

د. حسين اليرسب



الشيخ الأسود

كتاب الدم



www.looloolibrary.com



اهداء

إلى من منحوني المعنى الحقيقي للبقاء في هذه الحياة..

إلى من منحوني البهجة والفرحة والضحكة والصخب والجديد.

إلى فرحتي التي لا تنتهي ..

إلى السيد وريماس ..

وإلى يامن وآسر وسامر ..

وإلى سارة وهاجر ..

كم تمنى الحياة بالبهجة مع فرحتكم وضحكاتكم..

أحبكم ...

الفصل الأول

البَعْثُ



Looloo

www.looloolibrary.com

نظر بحيرة حوله ف شعر أن هذا العالم الذى يراه الآن غير العالم الذى يعرفه. بدا كل شئ غريباً وكأنما يقتحم عالماً يراه للمرة الأولى. كانت القاهرة أخرى غير التى فارقها منذ سنوات سبع. بدت وكأنما قامت قيامتها وسكانها فى فزع وصخب، وكلّ منهم يعدو بلا هودة، كى ينجو بروحه من الهول القادم. راح يُخَلِّق بِحِيزَةٍ فى الوجوه المكْفَهَرَة الكئيبة، والعيون الكالحة الكادحة، والأبدان المترهلة الغارقة فى عرقها ومومها. لا ضحكة واحدة تزين وجهاً ما، ولا أمل يرق فى عين من العيون. كانوا موتى يتحركون، أو هم أحياء فى ثوب الموت هانمون، وقد فليت أرواحهم وبقيت أبدانهم.

كانت سبع سنوات من الحياة كالموتى قضائها فى مصحة العباسية للأمراض العقلية، ثمناً لجريمة لا يُصَدِّقُه أحد أنه لم يقترفها. وعلاجاً من مرض نسمى لا يعانیه. كان الأمر كله عبئاً. لكنه عبئٌ كالجحيم. عبئٌ هُئِمَ نفسه ومزق روحه، وما هو الآن يغادر المصحة شاعراً بسقم حقيقى وقد دخلها صحيحاً كالجرس.

تعاشاه كل من حوله وأعرضوا عنه كأنه مصاب بالجرب. كانوا ينظرون إليه بعيون مملوءة بالنفور والحذر، وهم يتأفون منه سراً وجهراً. حتماً يراه البعض مخبولاً وربما يحسبه البعض لصاً؟. فى الواقع لم تزجعه تلك النظرات ولم تنل من نفسه، كان يدرك أن العالم بأكمله لا يقلقه أو يعنيه. إنه غريب فى أرض غريبة لا يعرفها، فلماذا يعبأ بقاطنيها؟..

مضى الوقت بطيئاً. وفى النهاية ومع صلاة العصر وصل إلى ميدان المطرية حيث انحرف إلى الشارع الجانبي المؤدى إلى العقار الذى يقطنه. كان عجيباً أن يمر بالكثيرين دون أن يتعرف أغلبهم، لكنه وما إن اقترب من بيته القديم، حتى رأى وجهاً مألوفاً. كان الحاج رضا. جاره الذى يعيش فى

شقة أسفل شقته. كان العمر قد تقدم بالرجل وازداد الجسد القصير بدانة، وقد تدلت بطنه أمام جسده وتكورت وانتفخت بصورة لا تكون إلا لمرض ما. اضطرب قلبه وهو يلحظ الوجه الذى ازداد شحوباً واصفراراً. والظهر الذى انحنى وهنأ. ورأى فى كَفِّ العجوز عُكَّازاً خشبياً يتوكأ عليه ويستند. وجد نفسه يسير نحوه وهو يفكر أنه لا بد كان عائداً من المسجد بعد صلاة العصر. اعترض طريق العجوز فتوقف الرجل هو الآخر ورفع ببطاء عنقه نحوه وقد ضاقت عيناه المتفتختان متفحصة إياه بحيرة لبعض الوقت، قبل أن يتعرفه فى النهاية. تهمل وجه الحاج رضا وأشرق واحتضنه بشوق حقيقى وهو يربت على ظهره، ثم أبعد بعدها رأسه عن عماد ليتأمله بمقلتين التهمتا المياه البيضاء والشيخوخة والمرض. لاحظ سوء حاله، فارتعشت يده، وارتجفت جفونه وهو يهز رأسه بأسف، ودموع خفيفة تنبثق من بين أجفانه، قبل أن يضرب بعصاه الأرض، ويدمدم بعسرة :

- حمداً لله أننى رأيتك ثانية قبل أن أموت يا عماد. لكنك تغيرت كثيراً.. لا أصدق أننى أراك هكذا. تبدو كشبح يا فتى.

واصل التحرك وعماد يهز رأسه بلا معنى، إن آخر ما يقلق باله الآن هو صحته.

دعاه الحاج رضا لمشاركته فى تناول الغذاء فرفض عماد بهذيب ولم يستجب لإلحاح العجوز. سارا بعدها واجمين. كانت هناك عشرات العيون التى تُعَرِّقُ عماد. حملت بعض النظرات شفقة حقيقية دفعت أصحابها لتعنيته بحرارة. وجاءت النظرات الأخرى فى المقابل مليئة بالانتهام والنفور، فكانت تحية أصحابها له باردة جافة، بينما تجاهله الكثيرون بعد أن رمقوه بنظرات لو اكتسبت كياناً مادياً لتحولت لجرايب وسيهام ومزقته. لكن

كل هذا لم يعبأ به أو يهتم بما يراه. فلا الأحضان الحارة أسعدته، ولا النظرات المستنكرة المحتقرة أزعجته.

كان حبيب أسامة، وكان بحاجة لأن يُعاوِدَ البحث في أروقة ذاته عن نفسه. كان عليه أن يستعيد عماد ثانية، فلماذا يهتم إذاً بنظرات يعرف مبرراتها ودوافعها. إنه أمام أغلبهم مذنب لا يستحق الرحمة والشفقة.

إنه في عيونهم الفتى الذى قتل أمه..

(2)

وصل إلى مسكنه فلم يشعر بأى حنين له. ثم صعد بعدها للطابق الثالث، وتوقف محبوبوس الأنفاس أمام باب شقته. حَذَقَ في الباب فشاهد الكثير من الذكريات التى مازالت محفورة على بابهِ وواجهته. الخربشات الطفولية على الخشب والى نُجِثَتْ بخط طفولي (مرحباً بالزائرين)، المسدس المرسوم على إطار البيت بالألوان الفلوماستر. الجزء الخشبي المفقود من الإطار الذى انتزعه يوماً في خرق فكان عقابه على يد أبيه.

انتبه لنفسه وتذكر أنه لا يحمل مفتاح الباب، فكيف يدخل شقته؟

لكن جارتته أم محسن أتت بالحل حين ظهرت بفتة من شقتها. تعرفته فاحتضنته وراحت تبكي قبل أن تخبره أنها تحمل مفتاحاً احتياطياً لباب شقتها.

دعته أم محسن هي الأخرى للطعام فاعتذر. اقترحت أن يمكث في دارها حتى تنظف شقته لكنه رفض. كان يرغب في أن يخلو بنفسه فاستأذنها ودخل شقته ثم أغلق الباب خلفه. ظلت أم محسن في مكانها خلف الباب

للحظات متعجبة من حاله، قبل أن تستدير وتعود لشقتها وهي تهز كتفها بإسفاق

وبالداخل غرقت الشقة في ظلامها المشنوم. كانت هناك رائحة غريبة لم يعتدها. كانت مزيجاً من الرطوبة والهواء المكتوم والذكريات المشنومة. أشعل المصباح الكهربائي فبدد الضوء الأصفر الظلام. رمق المكان بعينين خاويتين. فبدت الشقة أمامه غريبة هي الأخرى وكأنه لا يعرفها. شعر أنه يرتادها للمرة الأولى رغم أنه قد عاش عمره كله من قبل بها. كانت الصالة مثرية يكسوها الغبار، والجدران مسكونة بأعشاش العنكبوت. وعن يمينه قُبعت حجرة نوم أمه مظلمة ساكنة كالقبر وبابها مازال موارباً.

تعلقت عيناه بها وعقله يجترُّ بأسى ما جرى فيها من أهوال. راوده إحساس عجيب أن أمه مازالت بداخلها، بل وربما تخرج من بابها بعد قليل لتُرحَّبَ بعودته. انزلقت عيناه نحو الجدار الملاصق للباب فشاهد العلامات الدائمة للحريق المُفْزَع. رأى آثار كُفِّ دَامٍ، لِيَدٍ مشتتة قبضت على الجدار يوماً دون أن تعبا بالألم. ارتجف قلبه وهو يتذكر، فأغمض عينيه بقوة ليطرد الذكرى عن عقله ثم فتحها ببطء. هنا رأى أمه واقفة أمام الباب ترمقه بعيون زجاجية ميتة ووجه مُكْمَرٌ. اضطرب قلبه فأغمض عينيه بسرعة ثانية، وهو يتذكر كلمات الدكتورة سحر التى طالما رددتها على أذنه بالمصححة مِراراً :

- الموتى لا يعودون للحياة، و أمك قد غادرت هذا العالم للأبد. وشيخها الذى تراه ليس إلا أوهام يختلقها عقلك. وهم عليك أن تحاربه ولا تخضع له.

ثم فعل ما طالبت به وذَرَبَتْهُ عليه مِراراً. وبصوت مرتعش راح يعد... واحد.. اثنان.. ثلاثة..

حتى وصل بلسانه للعدد عشرة ففتح عينيه بحذر، فوجد أن شيخ أمه قد اختفى. وعاد مكانها فارغاً، زفر بارتياح وقد أفلح الأمر، لكن هل يفلح في كل مرة؟.

نزع نفسه من جموده وتحرك ببطء نحو حجرته. دفع بابها المغلق بتردد، وأشعل النور. كانت تضرب في الفوضى. الدولاب كان مفتوحاً، وقد تناثرت محتوياته من ملابس وغيرها أسفل، وسائد الفراش كانت مبعثرة على الأرض وقد برزت حشوها القطنية. وتدلت الأباجورة أسفل الكمود، ومازال سلكها معلقاً بالقابس الكهربائي. هل فعل رجال الشرطة كل هذا في بحثهم الفاشل عن دليل ما غير موجود أصلاً؟.

لم يخالجه الضيق لتلك الفوضى التي تضرب المكان. ولم يبتسئس لحال البيت. شعر أن مشاعره محايدة تماماً. لا أسف هناك لما حدث من قبل ولا فرحة بالعودة. كل ما كان يحسه في تلك اللحظة هو الخواء. فقط الخواء.

تحرك نحو الحمام ليفرغ مثانته. وفتح صنبور الحوض وراح يحرك بأصابعه الماء في كل اتجاه بالحوض ليزيح التراب العالق به. ثم بأصابعه المبللة راح ينظف سطح المرأة التي تعلق الحوض. وبعد لحظات صنعت يده دائرة نظيفة في منتصف المرأة راح خالها يتأمل وجهه..

كان يرى شخصاً آخر لا يعرفه. غارت العينان في محجريهما وانطفاً برشهما فصارتا كعيني شيخ عجوز باهته كنيية. وقد أحاطتهما هالات سوداء كثيفة. كما برزت عظام وجنتيه وامتنص خديه وأحاط وجهه لحية كثة مبعثرة. وتقلصت شفتاه عن أسنان اصفر سطعها وأسودت حوافها. وسقطت خصللات ناعمة من شعره على جبهته وقد أصاب الشيب أكثره.

حمل وجهه وجه رجل في الستين من عمره لا شاب في بداية الثلاثينات من عمره. بدا في تلك اللحظة كالجاذيب. فلم يكن ما يراه أمامه الآن هو عماد الذي عرفه من أعوام. بل كان عماد آخر شاخت روحه وجسده قصار عجزاً لم يتخط الثلاثين من عمره. خفض رأسه ناحية الصنبور ليغلقه وقد بدأ الماء يملأ الحوض وحين رفعها ثانية رأى وجه أمه في المرأة وهي تقف خلفه وتبتسم ابتسامتها المخيفة. انتفض جسده وخفق قلبه، وأغلق عينيه على الفور وهو يعد مرة أخرى الأرقام من واحد حتى عشرة. ثم فتح عينيه ببطء بعدها ليكتشف أنها قد اختفت. ظل قلبه ينتفض بلا انتظام لبعض الوقت فغادر الحمام من فوره وعاد لحجرته. أعاد مرتبته القطنية لمكانها ونفض عنها التراب الذي علق بها ثم ألقى بجسده عليها. أغمض عينيه وراح يتنفس ببطء كي تنتظم أنفاسه ويهدأ قلبه كما علموه من قبل في المستشفى. راح يبحث عن جنود النوم في عقله. وكانوا في انتظاره فأتوه متعجلين. وبعد دقائق غلبه النعاس.

(3)

عادت الهمسات لعقله ثانية، وكل مرة كانت خافتة، ومليحة، ومخيفة. حملت الهمسات أصواتاً غير بشرية بلا شك، لكنه رغم هذا تعرف صوت أمه من بينها. ثم ارتفع صوت أمه بغتة وتحول من الهمس إلى صراخ. وهي ترد:

"liberati Dominus de bello, et ignis"

راحت تصرخ في أذنه بتلك الكلمات الغريبة بلا توقف حتى كاد عقله أن ينفجر. جاهد روحه كي يستيقظ وهو يجبر جفنيه على مغادرة عناقيهما الحميم. وحين أفاق سكت الصراخ على الفور. فتح عينيه فاصطدمتا

بظلام الحجرة. هَبَّ من فراشه، وهو يلهث ويجهاد لالتقاط أنفاسه،
وصدره يصعد ويهبط بلا انتظام، دون أن يكف عقله عن التفكير..

لماذا عاودته الهمسات مرة أخرى بعد شهور من الإختفاء، ظن خلالها أنه
قد برأ من تلك الوسواس التي تؤرقه وتهز اتزانها النفسي، بل وتشككه في
قواه العقلية؟ لماذا عادت في نفس اليوم الذي خرج فيه من المستشفى؟
أيعنى هذا أنه يواجه انتكاسة مرضية جديدة؟!..

وبدأ وريد جبينه الأيمن في النبض، فعمل ما سيأتي بعد قليل. صداع
نصفى رهيب يمزق عقله ويفتك بخلاياه. تعلم ألا ينتظر حتى يصير ذلك
الصداع اللعين وحشاً لا يُقهر. وتعلم أن يعاجله ويطعنه بالمسكنات قبل
أن يشتد بأسه.

نهض من الفراش وجلس على طرفه في الظلام وراح يستدعي من ثنايا
ذاكرته ما أخبرته به الدكتورة سحر عن تلك الهمسات. أغمض عينيه وهو
يتذكر ملامحها الهادئة ونظارتها الأنيقة وابتسامها الواثقة المرحية. كان قد
سألها يوماً وقد أنهكته تلك الثوبات التي تطارده الهمسات الهلاوس خلالها
حتى كادت أن تذهب عقله. لماذا يحدث هذا معه ؟ وهل هو مجنون؟.

هنا أجابته الدكتورة سحر بابتسامتها الخالدة التي لا تعرف الفناء:

-أنا أؤمن أنك لست مجنوناً أو تختلق ما يحدث لك، لكن عليك كذلك أن
تدرك أنه لا وجود لتلك الوسواس الشيطانية. إن إجابة كل تساؤلاتك
بسيطة للغاية. أنت تعاني من اضطراب نفسي ولهذا يحدث لك هذا، وكى
نُشفى منه عليك أن تدرك طبيعته، وأن تعي أعراضه. أنت مريض
بالفصام، والفصام هو سيد الضلالات والهلاوس. ستشاهد رؤى لا يراها
غيرك. ستسمع أصوات وهمسات وسواس تتردد داخل رأسك وحده. هذا
مألوف للغاية ولا يحدث لك وحده. المصححة كما ترى مليئة بمن هم

مثلك، وكلهم لديهم ضلالاتهم الخاصة. ولو شئت أن تتخلص منها فعليك
أن تقاوم تلك الضلالات يا عماد. دع عقلك يرفضها ويطردها. لا تصدق
وجودها مهما بدت لك حقيقية. واعلم أنها لا تعدو ألعاب يختلقها عقلك
الباطن والمناطق المظلمة في عقلك.

لكن الهمسات التي تطارده لم تبد له أبداً أوهاماً أو ضلالات كما تزعم.
كانت دوماً حقيقية. حقيقية ككل شيء في هذا العالم القاسى. إن كلماتها
مُخَيَّرَةٌ ولا يستطيع عقله أن يهضمها. هل يعمل عقل المرء ضده وهل
يرغب في أن يسقطه أسيراً لأوهامه ومرضه. لم يستطع أن يعي أبداً كيف
يمكن أن يحدث هذا. أخبرها باعتراضه، فخذتته عن شيء غريب، وقالت
له:

-هل تعلم أنك محظوظ أنك لا تحيا بمرضك هذا في العصور الوسطى. لن
تخيل كم كنت ستعاني لو عشت في تلك الأوقات الكئيبة. هل تعلم أنهم
كانوا يعدون المرض النفسي دليلاً على ضعف الإيمان، وعملاً من حيائل
الشیطان والأرواح الشريرة وقوى الظلام التي تبغى التهام أرواح المؤمنين.
لقد آمنوا أن الهمسات التي يشكوها المرضى هي أصوات كائنات الظلام
ووسوستهم. كانوا يعالجونهم بالرق والعقاقير البدائية التي لا تجدى بلا
شك، أو يلجأون للمراسم الكنسية لطرد الشياطين بواسطة الكهنة
والقساوسة. لو كان المريض محظوظاً حينها لبرئ حينها، وإلا فهناك الحبس
والتعذيب البدني لإخراج تلك الكائنات الشريرة من رأسه وجسده، بالطبع
مات الكثيرون من تلك الوسائل البشعة، لكن الأكثر قسوة كان مصير
أولئك الذين يفشلون في علاجهم فيتهموم بممارسة السحر والشعوذة
ويحرقوهم أحياء أو يغرقوهم.

اقشعر جسده من هول ما يسمعه. من حسن طالعه بالفعل أنه يخفي في
القرن الواحد والعشرين ولم يختبر تلك الأساليب العنيفة، لكنه رغم كل

خرج من الحمام على دقات الباب وصوت مألوف يناديه من خلفه بالحاج صاحب، تذكر صاحبه وهو يتجه نحو الباب ليفتحه. كان صديقه ممدوح. رفيق الطفولة والصبا والجامعة. فتح الباب فدفعه ممدوح على الفور للخلف، قبل أن يلقي بنفسه عليه وهو يضمه بشوق لا رياء فيه. لم يكن هناك من فرصة ليرى كيف صار بعد تلك الأعوام وإن لم يفتنه أنه مازال محتفظاً ببدانته. ظل ممدوح يحتضنه بعنف ولسانه لا يكف عن الحديث:

-لا أصدق نفسى. لقد عدت حقاً يارجل. أخبرونى بهذا الآن فلم أستطع الإنتظار وهرعت إليك على الفور. يا إلهى! لا أصدق أننى أراك ثانية بعد كل هذا الوقت.

استمر العناق لدقيقة أخرى، قبل أن يُطلق ممدوح سراحه ليتأمله بشوق. وواصل عماد تأمله هو الآخر. ازداد جسد ممدوح بدانة وتكونت كتل أخرى من الشحم في كل مكان ببدنه، كما اختفى نحره الآن تماماً بفعل لُغْبٍ ثخين تكوّن في تلك السنوات الأخيرة حتمًا، بينما انحسر الشعر عن مقدمة رأسه حتى المنتصف تقريبًا مُخَلِّفًا القليل من الشعيرات السوداء. ظل عماد ينظر إليه صامتًا، لكن ممدوح لم يفعل وعيناه تتفقدته متسعة ومندهشة:

-يا إلهى، ما الذى أراه..ماذا بك يا رجل. تبدو نحيفًا كالبرص. أين ذهب اللحم والشحم؟، أنا لا أرى غير العظام والجلد. هل أنت بخير؟. لا تخبرنى أنك مريض.

ابتسم عماد وغمغم بشئ من السخرية :

ما تقولوه لا يصدق أن ما يحدث له مجرد أوهام. في النهاية هو يدرك أنه ليس مريضًا كما يدعى الأطباء. هناك بالفعل شر خفى يحاول اقتناصه والنيل منه. وهذا ما يؤمن به. لكن العجيب أن جلسات علاجهم وأقراصهم قد نجحت في تخفيف حدة تلك النوبات التى تهاجم عقله حتى انتهت تلك الهمسات تمامًا منذ شهور طويلة. وربما كانت مراقبة تلك الهمسات لعقله سببًا في اعتقادهم أنه قد شفى مما به. ولهذا أخرجوه من المصحى.

تذكر الأقراص التى زوده بها الأطباء في المستشفى قبل أن يخرج. والتى طالبوه أن يتناولها لو عاودته تلك الأعراض ثانية. رفع حقيبةته التى تحوى الأقراص وفشى داخلها عنها. ثم انتقى من بينها شريطًا كُتِبَ على ظهره بالإنجليزية "ارببىرازول" 30 مجم. انتزع منه قرصًا ووضع به قمعه ثم ابتلعه بلا ماء متجاهلاً مرارته.

غادر الغرفة بعد دقائق نحو الصالة. كانت حجرة أمه في مواجهته. وكانت علامات أصابعها الدامية على الحائط بجوار الباب كما هى تُذَكِّرُهُ بإصرار بما حدث. صرف بصره عنها. ونظر إلى الغبار الذى غمر أثاث الصالة كلها وحوائطها. كانت الشقة في حاجة للتنظيف الفورى. فكر في هذا وهو يوازن بعقله. هل يقوم بالأمر بنفسه، أم يبحث عمن يفعلها لقاء أجر ما.

استدار ليذهب للحمام فالتفت عيناه ثانية بالعلامات الدامية لأمه المطبوعة على الجدار. هذه المرة كانت متوهج مشتعلة. ارتجف بدنه لهلًا وأغمض عينه على الفور وقد رأى انه قد عاد لأوهامه. وبعد دقيقة أو أكثر فتح عينيه ثانية. هنا لم تعد العلامات متوهجة كما كانت، لكن قلبه ظل ينتفض إثارة. ظلت عيناه معقلة بالأثر الدامى وراح يفكر. أمازال عقله يعبث به ويمارس معه الألعابيه، أم أن هناك شئ ما يدور بالبيت لا يدرك كنهته؟..

-قد أكون مريضاً لكن ماذا عنك؟ ألا تنظر لنفسك في المرأة. لقد صرت كالخريت. أرى أنك لا تألو جهداً لتكون هكذا. ما الذى تأكله لتصير هكذا؟..

لم يتسم ممدوح لدعابته كما كان يفعل دأنمًا من قبل. وهو يتعجب من الشيب الذى غزا رأسه. لقد تغير صديقه كثيرًا وتبدل. لكن أكثر ما تغير فيه كان موت تلك الحيوية التى ميّزت عينيه من قبل. صارت عيناه متبلدتان جامدتان. بدا له عماد كرجل عجوز. هنا هز رأسه بعنف، و قد رأى فى عيني عماد أنه يقرأ ما يدور بذهنه فشعر بالخجل وقال بارتباك:

-ما رأيك لو هبطنا لنجلس على القهوة قليلًا، أم ترغب فى تناول العشاء عند (النتن) فى الحسين قبلها. أنت فى حاجة لكيلو أو اثنين من الكباب والكفتة لترمم نحافتك هذه. بعدما تعود سوياً لمقلب الزبالة هذا لتنظفه. أعتقد أننا سوف نقضى الليل كله فى تنظيف هذه الشقة.

لم يكذب يتم عبارته حتى فوجئ بصوت من الخلف يقول له:

-اهتم أنت بعماد، ودع الشقة لى ولسوسن ابنتى. امنحونا ساعات ثلاث فقط وحين تعودون سترون شيئاً مختلفاً.

كانت أم محسن، ومن خلفها برزت فتاة تغطت المراهقة بالكاد. كانت حلوة التقاطيع ذات قوام بديع وقد ارتدت ببجامة ضيقة للغاية أبرزت قوامها المرسوم بدقة وصدرها الناهد. بدت فى عينيها نظرة فضول ساحقة وهى ترمق عماد متفحصه إياه. كأنما ترى مخلوقاً من كوين آخر، وقد فتر ثغرها عن ابتسامة عجيبة لم يفهما عماد..

تهند ممدوح بارتياح لاقتراح أم محسن، وقال وهو يختلس النظر إلى قوام سوسن البديع:

-لا داعى للتعجب يا أم محسن. يمكننى أن أساعد عماد فى تنظيفها.

لكنها كانت مُصيرة فدفعتهم بيدها للخارج وهى تقول بشئ من المداعبة :

-كُفّا عن الثرثرة التى بلا طائل وغادرا المنزل الآن. أماننا عمل شاق هنا. لكن لا تعودوا قبل ثلاث ساعات.

تطلع إليها عماد بامتنان وانتقلت عيناه إلى سوسن فبادلته نظرة جريئة دون أن تخفض عينيها، ففعل هو بحرج، ثم خرج مع ممدوح الذى وضع كفه فوق كتفه وقال بتأثر:

-امراة طيبة أم محسن هذه!.. كما أن ابنتها حلوة. ألم تلحظ هذا ؟!

كان قد لاحظ حلاوتها، كما لاحظ جراتها الشديدة ونظراتها الحادة. لكنه لم يرغب فى مجاراة ممدوح فى الحديث عنها.

تحركا نحو القهوة، واتخذوا طاولة بالخارج، وجلسا عليها، وعلى الفور جاءهما النادل. طلب عماد قهوة سادة وطلب ممدوح الشاي، والتفت عماد إلى ممدوح وقال يهدوء:

- لم تأت أبداً لتزورنى فى المستشفى كل هذه الأعوام، اعتقدت أنك تشارك الجميع فى اتهامهم إياى بقتل أمى.

احتقن وجه ممدوح خجلاً، بدا وكأن السؤال قد فاجأه. وبشئ من الإرتباك أجاب:

-لم أرغب فى أن أراك هكذا. أنت تعلم أن هذا فوق طاقتى. كان هذا ليشعرنى بالعجز والضعف. كنت لأبكي لو رأيتك هكذا.

-رغم هذا كان عليك تأتى. ألم تدرك أننى قد أكون بحاجة لمثل تلك الزبارة؟

ثم صرف عماد عينيه نحو الأفق وصمت للحظة قبل أن يكمل قائلاً:

-كنت دومًا في حاجة لمن يزورني ويحدثني. كنت بحاجة لمن يخبرني أنني لست مجنونًا. هل تفهم معنى أن تعيش كل تلك الأعوام لا تُحدَّث غير المرضى عقليًا. أن تقضى كل تلك الأعوام دون أن يزورك أو يسأل عنك أحد. كنت لأفقد عقلي بلا شك لو مكثت في المستشفى لوقتٍ أطول.

لم يجد ممدوح ما يجيبه به، فأتربق بوجهه لأسفل ولاد كل منهما بصمته، رمق عماد الشارع بغواء. بينما نهش الخجل روح ممدوح من معاتبة صديقه. لم يكن الأمر مفاجئًا فقد توقعه كثيرًا، جهز عشرات الإجابات والحجج لكنه وأمام عيني صديقه نسي كل ما رتب له من قبل. طال الصمت وشعر ممدوح أن عليه أن يقطعه وأن يقول شيئًا ما فقال بخفوت:

-أتمنى لو تسامحتني يا عماد. أقسم أنني لم أتخيل أن أراك في مستشفى المجانين. أرجو أن تصدقني في هذا. الأمر لم يكن أبدًا أنني أتهمك كالآخرين بقتل أمك، ولم يكن كذلك كسلاً مني وعدم اكتراث بزيارتك. لكني كنت دومًا أتذكر ما حدث وأشعر بالحنق من نفسي لأنني لم أكن ذا جدوى حقيقة في معاناتك المشنومة. لا أعُدُّ هذا عذرًا، لكنني مازلت أمل في تفهمك.

لم يُعقِّب عماد وظل ينظر إلى الأفق المظلم بشروط، حتى أتى النادل بالقهوة له، فراح يرتششها ببطء. تصاعد في نفسه إحساسه بالغبرة والوحشة، وعاوده شعور ممض بأنه لم يعد ينتمي لهذا العالم. حتى ممدوح صديقه الوحيد ها هو يجلس بجواره صامتًا وقد انتهت الكلام بينهما في دقائق معدودة، كأنما لم يعد هناك ما يُقال. وقطع ممدوح حبال أفكاره وهو يقول:

-هل علمت بالثورة ؟

هز رأسه ببطء وأجاب دون أن يلتفت إليه:

-كنا نتابع أخبارها أحيانًا من الجرائد أو التلفزيون. لكن لا تتخيل أنني كنت أكثر ثبًا.

- لقد مات هنا الكثيرون في أيامها الأولى وفي الأحداث التي تلتها. البعض قُتلوا في المظاهرات والبعض الآخر أمام الأقسام ومراكز الشرطة. في شارعنا هذا كان أسامه عبدالعزيز أول من مات. هل تتذكره ؟.

تذكره على الفور فهز رأسه ببطء وهو يرتشف قهوته ولم يُعقِّب. لم تختلج في نفسه أي شفقة أو ألم نحو أسامه. شعر أن مصيبتته التي عاشها وما زال فيها قد أذهلته وصرفته عن مصائب العالم أكمله. ليعترق العالم كله أو ليبقى. فلم يكن الأمر ليُحزِّن في نفسه ساكنًا. هل تُقتل مأسينا مشاعرنا وتعاطفنا مع مصائب الآخرين، وهل تند معاناتنا إنسانيتنا وتعاطفنا مع الام الآخرين ؟. إن هذا ما حدث معه. ولا يدري هل هذا يحدث معه فقط أم أنها من طباع البشر ؟..

راح يتابع بشروط ما يحكيه ممدوح بحماس عن الثورة. خذَّته كثيرًا وكل ما فهمه أنه لا أحد يعي ماذا حدث بالضبط. هل كانت ثورة أم مؤامرة ؟. وكان تلك الأحداث الجسام والدماء التي أربقت قد زادت من عبثية الحياة في البلد ولم تجلو أمرها.

هنا رأى على بُعد شيء ما يتحرك في أحد الأركان المظلمة المواجهة له، كان شيخ امرأة أدرك منذ اللحظة الأولى من تكون. لقد كان شيخ أمه ثانية!!..

لاحظ ممدوح نظراته الجامدة نحو تلك البقعة فتطلع إليها فلم يرى بها شيئًا فقال بحيرة:

لماذا تنظر إلى ذلك الركن هكذا؟

ظل شيخ أمه في مكانه في الظل ساكنًا فغمغم:

هل ترى أحدًا يقف في ظلام ذلك البيت؟ هل ترى هناك امرأة ما؟

ضَيَّقَ ممدوح من عينيه ليرى تلك المرأة المزعومة فلم يرى شيئًا. البقعة التي يرمقها عماد مظلمة لا أحد بها، فرمق عماد بارتياح وقال:

أنا لا أرى امرأة ولا حتى رجلًا. هل ترى أنت أحدًا لا أراه؟

إذا هي الأوهام ثانية. فكر عماد وهو يُغمض عينيه وأجاب ممدوح بسرعة كي لا يثير شكوكه وتوتره :

-كلا. إنني لا أرى شيئًا. إنها الظلال حتمًا. لم يعد نظري كالسابق.

وَجَمَ ممدوح وراح يراقب الإرتجاجه الخفيفة التي اعترت جسد عماد وشعر بأنه ليس على مايرام. وراح يتسائل إن كان مكوث عماد الطويل في مستشفى الأمراض العقلية قد أثّر على قُوَاهُ العقلية. أَيْكون هذا تفسير غريبة أطواره التي يشهدها الآن. لم يشعر بالراحة فراح يرمق وجه عماد من حين لآخر.

بينما تجاهله عماد وأغمض عينيه، وعاد لممارسة تدريبه القديم. راح يعد حتى الرقم عشرة ببطء قبل أن يفتح عينيه ليختفي شيخ أمه من أمامه ويعود المكان لفراغه وسكونه. هنا عاد ليتحدث مع ممدوح في أشياء لا معنى لها ومواضيع متداخلة لا رابط بينها، كي يصرف عقله عن التفكير في ما يحدث له.

(5)

عاد لمنزله وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحًا. كان باب شقته مفتوحًا فدخلها بحذر، لينهر بنظافتها. وكانت سوسن بانتظاره بالشقة بمفردها. عيناها البنديقيتان تتحدثان بأشياء كثيرة، وقوامها الساحر الملفوف ببجامة ضيقة قصيرة تلهب خيالات لانتقي. ويسمها المستخفة تشي بمعركة دامية ستنتجج في أعماقه لتنتهي بهزيمة مؤكدة. المشكلة أن مستقبلاته الحسية والنفسية لمثل تلك الأشياء كانت مفقودة. الفتاة جهزت جنودها وأعدت أسلحتها لمعركة مضمونة النصر لكنها تواجه عدوًا مهزومًا في أعماقه من البداية. كان كل ما يشعر به هو العجب مما تفعله.

الوقت المتأخر وملابسها الجريئة وأمها الغائبة ورغبتها الصارخة كانت أمور أربهته. لاحظ حركتها العصبية وهي تنظر إليه، فدهش وهو يتغلبها تلك الفتاة الصغيرة النحيفة التي لم تكن قد جاوزت العاشرة حين رآها آخر مرة. لقد ماتت الطفلة الخجول التي كان يمرح معها ويحملها فوق ذراعيه ويلاعبها، وولدت الأنثى التي تعبت الرغبة والمراهقة والمهرمونات بجسدها بلا هوادة. وابتسم ابتسامة باهتة لا معنى لها، وقال لها محاولاً أن يبدو أمامها لا مبالياً بما تفعله:

-يبدو أنني قد أخطأت الشقة. لم تكن شقتي بمثل هذه النظافة والجمال حين غادرتها قبل ساعات. هل استعملت السحري في تنظيفها ؟

تجاهلت الرد على كلماته، وقالت ببطء دون أن تبسم لدعايته:

-أنتظرلك منذ ساعتين على الأقل. لكنك تأخرت. وها هي قداماي تؤلماني. أيروقك هذا؟

رمقها بحيرة. فما شأنها بعودته أو حتى غيابها؟. لم يشأ أن يصدّها أو يبدو فظاً معها، فقال وهو يجلس على الكنية المقابلة لمقعدها الذى تجلس عليه:

-لم أكن أعلم أنك بانتظارى. اعتقدت أنكما ستنظفان الشقة ثم تغادران.

-لقد انتهينا منها منذ ساعات، وأوت أوى للفراش بعدها منهكة. لا تتخيل كم كانت متسخة. كانت كالحظائر. بالمناسبة، لقد جمعت أوى ملايسك كلها لتنظفها وتغسلها. فلا تقلق لو لم تعثر عليها، سنعيدها اليك غداً فور أن تجف.

صممت بعدها دون أن تبعد عينها عن عينيه قبل أن تقترب منه وتقول هامسة:

-انتظرك لأرى إن كنت تريد شيئاً ما؟.

مرة أخرى تدهشه جرأتها. كانت ترمق عينونه بعينها الواسعتان دون أن تخفّضهما حياءً كما ينبغي أن تفعل، فأبعد عينيه عنها وقال بشيء من البرود:

-أعتقد أنه بإمكانى الاهتمام بشأنى. ولو احتجت شيئاً سأخبرك.

لم تهتم برده البارد وقالت:

-هل تعلم أنك قد تغيّرت كثيراً عن المرة الأخيرة التى رأيتك فيها.لقد فقدت الكثير من وزنك، لكنك رغم هذا مازلت وسيماً.

-كلنا يتغير يا سوسن. الزمن لا ينسى أحداً. كلنا يكبر طوال الوقت

نهضت من مقعدها وفتّر ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسنانها النضيدة البيضاء وهو توقف أمامه، وهتفت:

-وكيف ترانى الآن ؟

لم يكن يدرى ما يقوله لها. ولا يعرف الإجابة الصحيحة التى تنتظر أن تسمعها منه الآن، فقال مُجابلاً:

-لقد صرت أنسة حلوةً وجَميلةً بالطبع.

-أهذا يعنى أنى أعجبتك ؟

كان هذا أكثر مما يتخيله ويحتمله. فكر فى وسيلة ما لإخراجها من بيته والتخلص من إلحاحها. كان الخجل وحده ما يمنعه من طردها خارج المنزل. فأبعد عينيه عن عينها المحدثتين فيه بإصرار، وقال بضيق:

-ألا تعتقدين أنه ليس من اللائق أن نكون سوياً فى البيت فى هذا الوقت المتأخر. أرى أن نؤجل حديثنا هذا للغد.

لم يبد على خلجاتها أنها قد تأثرت بدعوته المهدبة لها بمغادرة بيته، وظلت جالسة بمكانها تحديق فيه، ثم قالت مبددة الصمت الذى أظليهما للحظات، وهى تعبت بشعرها وتضم شفتيها القرمزيتان بصورة تعمدت أن تبدو مثيرة:

-لكنك لم تجب سؤالى بعد. هل رُفِئت لك؟.

بدأ صبره ينقد وبدأت يده فى الارتعاش توتراً من عجبها وقال ببعض الحدة:

-لقد أخبرتك أنك صرت حلوة.

بدأ أن جوابه لم يروقها أو يرضها، فمطت شفتيها ثم قالت بضيق:

-إننى أعلم حيك ل "منى". لكنها رغم هذا لم تنتظر.

انتفض على الفور حين ذكرت "منى" أمامه. لكنها أكملت بلهجة غريبة:

-أعلم أنها جميلة. لكنها لم تعد لك. هل تعلم أنها قد تزوجت منذ خمسة أعوام وأن لديها طفلة الآن.

وَدُّ لو يصفعها ويطردها من المنزل وقد تبادت في تطفلها وجرأتها.. لماذا ترغب في اقتحام قدس أقداسه وتدينسه بوقاحتها؟. شعر أن هذا هو وقت الحزم فقال بحدة وقد ارتفع صوته:

-أعتقد أنه لا شأن لك بهذا يا سوسن. كما أعتقد أن الوقت قد حان لأن تغادري منزلي. لا أحب أن يرانا أحد معًا في وقت كهذا. من فضلك عودي لمنزلك الآن.

بادلت نظرته الغاضبة الحادة بنظرة متحدية لا مبالية، قبل أن تتهدد وتشير نحو لحيته الكثة وتقول:

-بالمناسبة احلقها من أجلى لتصير أكثر وسامة.

رمقها بسخط. ونهض مُتَجِّهاً نحو الباب، وهو يشير بيده نحو الخارج قائلاً:
-أعتقد أن خير ما تفعله الآن أن تغادري منزلي. مرة أخرى أشكرك على ما قُمتُ به، ولا تنسى أن تشكري أمك من أجلى.

رماحته مبتسمة، قبل أن تنهض وتسير ببطء متمائلة وهي تتجه إليه. وما أن حاذته حتى توقفت في الفراغ الصغير الذي يفصل جسده عن الباب، فشم رائحة ندية عطرة تشبه رائحة الياسمين تنبعث من جسدها، وهمست وهي تميل عليه:

-أعلم أنني قد أعجبتك. لقد رأيت هذا في عينيك رغم جفاءك وغلظتك. فضحتك عيناك أمها الوسيم.

لم يُجِبْها وابتلع ريقه بصعوبة توتراً، وحاول أن يبدو صوته متماسكاً، وهو يقول لها:

-تصبحين على خير يا سوسن.

لكن صوته خرج مرتجفاً ووشى باضطرابه، فابتسمت بظفر، وتهددت برسلة لأنفه أنفاساً معبقة برائحة أنوثتها الملتبسة، قبل أن تتحرك بدلال مغادرة الشقة. لم ينتظر حتى تدخل شقتها، وأغلق الباب خلفها في عنف ثم وقف خلفه يلهث. تملكه الضيق وقد أدرك أى أيام صعبة هو مقبل عليها من تلك الفتاة.

توجه الى المرأة الموجودة بحجرتة ونظر فيها إلى وجهه النحيل، رفق بأسى لحيته الكثة وتوقف لبرهة أمام نظراته المتبلدة.. إنه حطام بشري بحق. ما الذى فيه كى يروق لفتاة حلوة وصغيرة مثل سوسن. من الطبيعى أن تنظر لشاب فى مثل عمرها أو أكبر قليلاً، لا أن تلاحق رجلاً عمره ضعف عمرها ولا يوجد فيه ما يجذب أى فتاة عاقلة. حتماً هى حمقاء أو مختلة لتفعل. هنا انتبه لشيء مهم. فعلى سطح المرأة المصقولة رأى شبح أمه ينتصب بجواره تماماً مبتسماً. وتوابث قلبه على الفور هلعاً حين سمعها تقول:

-ألا ترى أنك تروقها أمها الأحمق؟. الحمقاء تحب مجنوناً قاتلاً.

أغمض عينيه على الفور وقلبه يخفق وراح يعد بعصية من واحد حتى عشرة. وحين انتهى عاد ليفتح عينيه. لم تكن هناك كما يحدث كل مرة. لكنه ظل يرتجف بشدة لبعض الوقت. هل كان هذا شبح أمه حقاً أم أنها الأوهام؟!.

تحرك نحو فراشه الذى عاد نظيفاً، فألقى جسده عليه بإعياء دون أن يفكر في تغيير ملابسه، وعاد يفكر في حبيبته التى غادرتها رشحاً عنه فغادرت.

إلى غيره للأبد. تذكر منى ونبض قلبه بقوه وذكرياتهما المشتركة التي حُفرت في أعماقه تعاودة ثانية لتلهب مشاعره..

لقد أخبرته سوسن عن الطفلة التي أنجبها "منى". ترى كيف تبدو تلك الفتاة، وهل تبدو كأُمها أم أنها تشبه أباه الذي لا يعرفه.. راح عقله يتساءل من تراه ذلك المحظوظ الذي حظى بـ"منى". نعم، إنه محظوظ بلا ريب، فلو لا ما حدث له ما كان هناك أحدًا يخطفها منه مهما حدث.

(6)

وحمل اليوم التالي له مفاجأة لم يتخيلها حين رآها. رأى "منى" مرة أخرى.

كان قد خرج بعد الظهر ليحضر شينا ما يأكله. تحرك بخطوات هادئة نحو محل البقالة في أول الشارع. كان هناك فتى نحيفًا في مقتبل عمره ذا نظرات لجة لم يحيا، سأله أن يجلب من أجله الجبن وبعض علب التونة والخبز، تحرك الفتى بتكاسل ليحضر له ما طلبه بينما التفت عماد نحو الشارع يتأمل به بشرود.

ومن بعيد رأى امرأة تتحرك نحوه. كانت تمسك بيدها طفلة لا تتعد الثالثة من عمرها وهي تسير بجوارها مطرقة رأسها. تعرفها منذ الوهلة الأولى، فديق قلبه وارتجف. كانت منى. مازالت مشيتها المنتظمة المستقيمة كأنها تهرول كما هي، ومازالت تسير وعينيها لاتفارق مؤطأ قدميها، كأنما تهرب بعيونها من العالم كله..

لم يدر ما يفعله وهي تقترب حثيثًا منه. ستكون بجواره بعد دقيقة على الأكثر، ومازال الفتى بالداخل يزن الجبن. فكر في أن يبتعد عن محل

البقالة حتى تمر ثم يعود ثانية. لكن ماذا عن فتى البقالة هذا؟.. ما الذي سيدور بخلداه عنه حينها؟. سينعته بالجنون حتمًا، وربما قص ما حدث للجميع. لم يشأ أن يُعقّد وضعه في المكان أكثر مما هو مُعقّد، فمكث في مكانه، وأدار ظهره للشارع حين بلغته منى. وصله صوتها الرقيق الذي طالما أذاب قلبه وهي تُحدّث الطفلة وتساألها عما تريده. وسمع الصغيرة تطالبها بصوتٍ رفيع حلو

"عصير مانجو، وشيبسي كبير، ومصاصات.."

وَدُّ لو يلتفت ليرى ابنتها. كانت لتكون ابنته هو لو لم يعانده القدر. لكن البائع الأحق أقسد محاولته للتخفى، حين ناداه ليعطيه ما طلبه. فكر في أن يتجاهل ندائه، عسى أن ينصرف عنه إلى "منى" وابنتها ليعطيهما ما يطلبانه، ثم يعود إليه لكن الفتى لم يفعل، بل ناداه ثانية بصوتٍ خشن يحمل الكثير من الفظاظلة:

يا أستاذ!، لماذا لا ترد؟!، ألا تسمعي؟!، لقد أعددت ما طلبته. تفضل أسيانك.

لم يكن من مفر من أن يلتفت ويرد عليه. ووجد عينيه في اللحظة التالية ترتعشان بين عينها. هنا ارتسمت على مُخيّاتها تعبيرات لا تنتمي للبشر. مزيج من الدهشة والحيرة والشوق والألم والعتاب والسرور. كل هذا بدا على وجهها في وقتٍ واحد. وارتجف كفيها بشدة حتى أن الطفلة البيضاء الحلوة رفعت رأسها نحوها لترى ما بها، وصاحت بحيرة :

ماما !، ماما !.

وانحدرت من عينها دمتان ساخنتان ظلّتا حبستا أجفانها لأعوام طوال، بانتظار لقاءهما مرة أخرى لتتحررا. فتحت فمها لتقول شيئًا ما قبل أن تغلقه بسرعة، كأنما تاهت منها الكلمات. رأى في عينها نداء خفيًا

لأن يحتضنها، أو يختطفها لتدفن في صدره مرارات سنين خَلَفَهَا في نفسها الزمن. رأى كل هذا وقلبه يرتجف وفي أحشائه بركان هادر من المشاعر والأشواق يزأر ويثور. تجمد الوقت وطالت اللحظة الصامتة، وتبادلت عيونهما حديثاً خفياً بث فيه كل منهما للآخر لواعج نفسه طويلاً. وحين أفاق من ذهوله كان في البقالة يهتف فيه بصوت أقرب إلى الصراخ :

-ماذا بك يا أستاذ؟ ألم تسمع كل هذه النداءات؟ هل تتعاطى شيئاً ما يا هذا؟

التفت إليه بلا مبالاة وتناول حاجياته المكْدُسة في كيس بلاستيكي وسأله ببرود:

-كم حسابك؟

-سبع وأربعون جنياً.

عاد لينظر إلى "مى" التى أطرقت رأسها نحو الأرض وقال:

-انظر ماذا تريد الأستاذة وطفلها وأضفه لحسابي.

هنا كلمته للمرة الأولى. وخرجت كلماتها من حنجرتها شاحبة مرتجفة كوجعها:

- كيف حالك يا عماد.

- أهذه ابنتك؟.

أومأت برأسها موافقة فانحنى نحو الطفلة التى رمقته بفضول. حاول أن يُقَبِّلَهَا فرفضت رأسها لأُمها بِحَيْرَةٍ كأنما تسألها هل تسمح له بِقُبْلَةٍ؟. لكنه قَبَّلَهَا رغماً. كان البائع قد عاد يراقبهما بنظراته اللزجة بعد أن أحضر ما

طلبته الطفلة. شعر بالإحراج فأعطاه حسابه، قبل أن يتحرك مبتعداً عن المحل برفقة مى وابنتها. وقال بصوت خافت:

-كيف حالك يا مى؟

تهتدت وهى تكتم أهة حارقة تتأجج فى أعماقها، وأجابت بصوت خافت:

-الحمد لله.

-ابنتك جميلة. إنها تشبهك كثيراً.

-أشكرك

-ما اسمها

صمتت للحظة وواصلت سيرها مُطْرِقة دون أن تهتم بعيونه التى لا ترتفعان عنها، قبل أن تقول بصوت خافت مقتضب:

-"سما"

اعترته الدهشة فجأة فتوقف فى مكانه، بينما بدا عليها التوتر وقد رغبت فى إنهاء حديثهما فجأة، فجذبت الفتاة بقوة لتدفعها للمسير أسرع، وهى تهرول مبتعدة دون أن تودعه. ظل بمكانه فى منتصف الشارع وعيناه معلقتان بها، ما الذى يسمعه. هل أسمت ابنتها سما؟ لقد كان هذا هو الاسم الذى اختاره سواً من قبل لطفلتهما الأولى.

ودَوَّى من خلفه نفير سيارة يعترض طريقها، فانتبه وتحرك مبتعداً عن الطريق وما زال فى ذهوله. أما زالت تذكره وتحبه حتى تسمى طفلتها الأولى، بالاسم الذى اختاره لها من قبل. حذَّه قلبه أنها مازالت تهيم به وتذكره. لو لم تكن كذلك، فلماذا هربت فجأة منه بعد أن أخبرته اسم الطفلة.

نحو الحائط المجاور للباب باحثاً عن مفتاح الكهرباء. ثم ضغط عليه فساد الظلام. كان على وشك إغلاق الباب حين رأى الشيء المتوهج على الحائط خلف فراش أمه..

كانت هناك كتابات تتوهج بلهب جهنم..
"سوف أعود"

وأسفها اشتعل ذلك الرمز الذي بدا به كل شيء..

الثعبان الناري الملتف حول نفسه والذي تتوسطه جمجمة تشتعل عيناها وعلى جانبي رأسها قرنان قصيران.

أظلمت الدنيا في عينيهِ، واكتنف الدوار عقله لكنه تحاسس على الباب ليغادر الغرفة. ثم أغلق الباب خلفه. وتناهت لأذنه تلك الضحكة المخيفة التي ترددت خلف الباب المغلق..

راح يلهث، وهو يندفع إلى حجرته باحثاً عن دواء ثانية ليرد به تلك الأوهام.. وهو يردد بلا انقطاع وجنون

"أوهام لعينة. إنها كذلك. كل هذا ضلالات وهلوسة."

وابتلع الأقراص بارتباك دون ماء، ثم انهار بجوار الفراش مُمَضّاً عينيه في انتظار الدوار الخفيف الذي تحدّثه العقاقير.

غابت مئى وماتت سوسن من عقله وعادت الأحداث المشنومة لتطفو على سطح عقله ثانية. ودون أن يشعر بنفسه راح ينتحب

وصل للبيت الذى يقطن فيه وصعد الدرج ليجد سوسن على باب شقتها بانتظاره فتهد بضيق وغمغم في سره "ليس ثانية!". ابتسمت له وهي تلوك علكة. وقد ارتدت هذه المرة بنطلونا أخضرًا ضيقًا، وبلوزة زهرية قصيرة ضيقة أبرزت صدرها. بلغ باب شقته فتحرّكت نحوه وقالت :

- أعددت الطعام من أجلك ورأيت أن أنتظرك. دقيقه واحدة وسأجلبه لك من الداخل.

-لا داعى لهذا. لقد جلبت الطعام من الخارج..أشكرك

لكنها لم تلتفت لاعتراضه واختفت في شقتها قبل أن تعود حاملة صينية عليها أطباق مغطاة. فتح باب شقته باستسلام فسبقته للداخل ووضعت الطعام على طاولة بالصالة يستعملها كماندة. بينما ظل هو واقفًا أمام الباب منتظرًا أن تغادر منزله فعادت إليه وقالت بدلال :

-ما رأيك لو ناكل سوّيًا..هذا سينعش شهيتك.

-أتمنى لو كنت أستطيع. لكننى لا أشعر بالجوع الآن. ربما نتناول الطعام سوّيًا في المرة القادمة.

تهددت بضيق قبل أن تتحرك نحو الباب وغمغمت بصوت خافت :

-كما تحب. لقد كان مجرد اقتراح.

ثم غادرت المنزل فتهد بارتياح وجلس على مقعد مجاور للطاولة التى عليها الطعام وعاد يفكر في "مئى" ثانية. مضى وقت طويل وهو يَجْتَزُّ ذكرياته معها قبل أن ينتبه إلى شيء ما يحدث من حوله بالشقة. كانت حجرة أمه مفتوحة الباب ومضاءة. لم يكن قد دخلها منذ عاد للشقة ولم يكن ليفعل. إذا من فتح بابها وأضاء مصباحها. تحرك نحوها ليَطْفئ نورها ويُغلق الباب وهو يُغالب توتره. دلفها بتردد متحاشيًا النظر إليها ومَدَّ ذراعه

شعر عماد أنَّ الاسم مألوفاً له، وأنه يعرف صاحبه. اجتهد في تذكره للحظات قبل أن تسعفه ذاكرته فتعرقه. هنا اتسعت عيناه باستنكار حقيقي ووجد نفسه يهتف دون أن يشعر بصوته المرتفع :

-محمد عصام هو زوج منى. مستحيل!، محمد عصام؟!، ذلك المخنث. إنه أتفه شاب عرفته في حياتي !، هل هو من تزوجته "منى" .. لا ريب أنك تمزح. لدهشته رأى كيف اتسعت عيناه ممدوح دُعرًا، وراح يتلفت برأسه بسرعة وقلق ليرى إن كان أحد ما قد انتبه لما يقولاته أم لا.. قبل أن يميل نحوه ويهمس بحلق:

-اخفض صوتك أيها الأحمق. سوف تجلب لنا المتاعب بصوتك هذا. لقد تغير محمد عصام ولم يعد ذلك المخنث التافه الذى كانه. لقد صار أحد أكبر تجار المخدرات في المنطقة وله أتباع وأعوان وشركاء. إنه آخر من ترغب في عداؤه الآن.

تجددت الدهشة في نفس عماد، وهو لا يتخيل أن يتحول محمد عصام الذى لم يعرفه إلا هشًا ناعمًا كالفتيات، إلى تاجر مخدرات وزعيم عصابة إجرامية. مازال يذكر كيف كاد أن يفتك به يومًا حين شاهده وهو يعاكس منى ويضايقها. توالى حينها صفعاته على وجه محمد وراح يقذفه يمينًا ويسارًا ويتناقله بين أقدامه كالكرة دون أن يقدر حينها على الدفاع عن نفسه. يومها راح محمد عصام يصرخ مستغيثًا وهو يكرر قسمه أنه لن يفعلها ثانية. ولأن يخبره ممدوح أنه احترف الإجرام، بل وتزوج "منى" التى كانت تمتنع من نعومته ولزوجته فيما مضى.. ورغم دعر ممدوح الحقيقى الذى أنبأه أن ما يقصه حقيقة لا اختلاق فيها إلا أن عقله أبى التصديق، وسأل ممدوح بصوت مخنوق :

أفاق في المساء و منى لاتفارق تفكيره. اعتصره الألم فتحرك نحو النافذة ونظر للأفق المظلم في شرود وسأل نفسه. ما الذى اقترفه في حياته كي يفقد كل شيء. أمه التى قتلت، وأخته التى هجرته، وحبيبته التى تزوجت غيره. والسنوات السبع التى قضاها حبس الصحة النفسية، ومستقبله الذى ضاع. أى عدالة تلك فى ما يحدث له؟، وكيف يمكن للأيام أن تعوضه عن خسارته تلك. تعالى إحساسه بالضيايع، وضاعت أنفاسه، فاتصل بممدوح وأخبره أن يقابله فى القهوة.

وفى القهوة رغب عماد فى معرفة المزيد عن "منى" فأخبر ممدوح بما جرى بينها فى منتصف اليوم. وبدأ الانزعاج على وجه ممدوح حين سمع هذا، فصاح فيه :

-أى حمق هذا الذى فعلته يا رجل. يبدو أنك فقدت عقلك بالفعل فى تلك المصحة اللعينة. لقد صرت مجنونًا بلا شك.

لم يفهم عماد لماذا غضب هكذا وأى جُنُونٍ فى ما فعله، فقال بتعجب:

-وماذا فعلت لأصير بالجنون ؟

-لقد تحدثت معها فى الشارع أمام الناس جميعًا. هذا يكفى وزيادة لتكون مجنونًا.

-وماذا فى هذا ؟.. طالما وقفنا سويًا من قبل ولم يُعقَب أحد.

-كان هذا قبل أن تتزوج. لكنها الآن قد تزوجت. وليت زوجها كان شخصًا عاديًا. إنه محمد عصام.

منتصف الليل عارية بملابس نومها، لتنهشها العيون ويشمت فيها الشامتون.. فتهتف بغضب وهو يضرب المنضدة الخشبية بقبضته في حنق: ذلك الوغد الجفير.. لو حضرت هذا لقتلته بيدي..

أوما ممدوح برأسه موافقاً وأكمل بعد نفس آخر من الدخان: أوافلك تماماً انه وغد حقير. لن تجد من يعترض على وصفك له هكذا. لكن أن تقتله بيدك الآن فهذا أمر مشكوك فيه. المهم أن "مى" طلبت الطلاق بعدها لكنه لم يوافق ونجح بحيلة ما في إعادتها لبيته. ثم قامت الثورة وسادت الفوضى. حينها تناهى لأسماعنا أنه راح يتاجر في المخدرات على نطاق محدود، قبل أن يشهر أمره وتوسع تجارته ويلتف حوله أعوان وأتباع من البلطجية. هنا صار رجلاً آخر. شخص لا قلب له فتك بالكثيرين. هل تذكر صلاح الجن؟.. ذلك الفقي الأشقر الذي كان يمتلك ورشة للسيارات في أول الشارع. لقد هجر ذلك الأحمق عمله وانضم إلى محمد عصام وعصابته، وبدؤهم اختلّفوا لأمر ما من أعمالهم المشبوهة، وفوجئنا ذات صباح بجثة صلاح عارية مذبوحة، وقد علّقت من أرجلها فوق أحد الجدران بالقرب من بيته.

وكان محمد عصام من فعل هذا به؟

- الكل يعلم أن محمد هو من فعلها، لكن لا أحد كان يجسر على اتهامه. الكل يهابه ولا أحد يبغي عداوته.

لقد نوحش الرجل بحق، فكَز عماد بتعجب. لا يدرى كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا وكيف تتغير شخصية المرء هكذا للنقيض تماماً. شعر أن ممدوح يُخَيِّئُه عن رجلٍ لا يعرفه، لكنه وبينما ينظر للفراغ بشروء عاد ليفكر في "مى" ثانية..

- أخبرني بكل شيء، كيف تحول محمد عصام للإجرام، ومتى تزوج "مى". وكيف وافقت هي بالزواج منه. أريدك أن تخبرني كل ما تعرفه.

أعاد ممدوح الشيشة لفته والتقط منها نفساً عميقاً. أخرجه ببطء وقال:

- لقد تزوجها بعد شهر من القبض عليك وذهابك للمصحة. تقدم لخطبتها فرفضته، بل وطردته حينها من منزل أبيها. لكنه كان لُحُوحاً فكرر محاولته فرفض، ثم عاد مرة ثالثة ورفض مرة أخرى. لكن أهلها لم يدعوها. ضغطوا عليها وبوسيلة ما أجبروها على الموافقة على "محمد" حين تقدم المرة الرابعة، وقد وعد أهلها بالمهر الكبير والمؤخر الضخم، وأغدق عليهم بأمواله التي ورثها عن أبيه. لا أحد يعلم كيف وافقت "مى" عليه هذه المرة، لكننا فوجئنا بزواجهما بعد خطبة قصيرة لم تتعد الشهر.

لم يصدق عماد ما يسمعه، أى شيطان هذا الذى يدفعها للزواج من هذا اللعين. لكنه لم يُعَقِّب وهو يستمع إلى ممدوح الذى أكمل:

- لم يكن محمد سعيداً في زواجه من "مى" كما أعلم. هنا راح حاله يتغير. احترف شرب الخمر والحشيش والأقراص المخيّرة وتمادى في غيِّه فمارس القمار وراح يتعقب فتيات الليل، ليفقد في شهور معدودة كل ما كان يملكه. ثم راح يُمَيِّء معاملتها رغم إنجائها منه طفلتها. سلها حينها كل ذهبها وأموالها بل وباع بعض أثاث المنزل أيضاً من أجل القمار الذى ذهب كما يبدو بعقله قبل أن يذهب بأمواله.

راح يعاملها بقسوة ويضربها، بل وصل الأمر به إلى طردها يوماً من المنزل بعد منتصف الليل بملابس النوم. ربما كان مخموراً أو مُغَيَّباً تحت تأثير العقاقير المخدرة التى أدمنها، حين فعل هذا.

واشتعل في نفس عماد الغضب وثار كيانه كالبركان، وهو يتخيل كل ما حدث لمى. هاله أن يعتدى عليها ذلك الجبان بالضرب، بل ويطردها في

-وأين "مى" في كل هذا؟.. لماذا لم تردعه أو تمنعه عما يفعله؟.

-لقد طلبت الطلاق ميرزا. بل وغادرت منزله لمنزل أبيها مرات كثيرة. لكنها كانت تعود في كل مرة. أعتقد أنه يهددها أو يهدد أهلها، ولهذا كانت ترضخ له.

خَيَّم الصمت بعدها عليهما، وقد فهم عماد لماذا اتهمه ممدوح بالجنون حين حَدَّثَ "مى" ظهر اليوم. ربما خشى أن يدفع محمد أحد أعوانه للتحرش به.. لم يكن في الواقع يخشى أى شيء أو يهتم بعواقب أى حماقة.. إنه شخص فقد كل ما يحبه، فما الذى يخاف عليه غير حياته المليئة بالألام والأوجاع..

قرر أن يلتقيها ثانية مهما كلفه الأمر. يجب أن تخبره بالذى لا يعلمه. يجب أن يعرف كيف تطيق الحياة مع شخص مثل زوجها هذا. يجب أن يعلم منها لماذا قبلت بالزواج منه.

وفي اليوم التالي انتظرها أمام المدرسة التى تعمل بها. وبعد حين تمادت أمام عينيه مُقْبِلَةً من باب المدرسة. انتهت له فوجِئَتْ للحظة وبان التردد عليها قبل أن تتحرك نحوه ببطء وقد احتقن وجهها. وصلت له ومدت نحوه يداً طالما احتضنها وقَبَّلَتْهَا. سَلَّمَ عليها وهو يود احتضانها. فرأى كيف ترتعش أناملها بين كفيه. لم يكن هناك وقت للمقدمات. وقال لها مُغَائِبًا :

-ما الذى فعلته بنفسك يا "مى"؟. أى أتون هذا الذى أقيمت نفسك في باطنه؟. محمد عصام؟. ألم يمكنك أن تختارى غيره؟.

انحدرت الدمعات الساخنة المقهورة على صفحة وجه رائق، وهى تتحرك بجواره مُطْرِفَةً برأسها بهوان. ومن فمها خرجت الكلمات اليانسة المذعورة:

-لقد قاومت كثيرًا. قاومت أكثر مما تظن. لكنهم لم يتركوني وشأنى. ظلوا يُلْعَثُونَ على. هنا قررت أن اختار محمد عصام دون غيره. أدرى لماذا؟.

التفت إليها وهز رأسه ببطء منتظرًا إجابتها، فأكملت بابتسامة باهتة:

-لأنه الوحيد الذى لم أحبه أبدًا ولن أفعل أبدًا. اخترته لأنى كنت أمتعض منه وأكرهه. لقد قررت ألا يكون هناك من أحد آخر في قلبى غيرك فاخترتة.. خشيت أن أتزوج من قد ينافسك على قلبى أو اهتمامى.

وصمت بعدها قبل أن يفاجئ بها وهى تطلق ضحكة غريبة لم يسمعها من قبل. ضحكة كانت مزيج من السخرية والمرارة واليأس. وأكملت بمرارة :

-لم أكن أدرى أنه سيصير هكذا. هل علمت كيف أصبح محمد الآن؟. إنه زعيم عصابة حقيقية. عصابة من تلك التى تراها في الأفلام والمسلسلات. هل تصدق. محمد عصام الذى كنا نسخر منه أصبح مجرمًا.

كانت مرامتها تُذِيب الأمل وتُعَكِّر صفو صباح مشرق. تمنى لو يضمها إليه، فجاهد نفسه كي لا يفعل. ثم وجد نفسه يسألها :

-علمت أنه يعتدى عليك بالضرب؟..

توقفت بفترة والتفتت إليه بجسدها كله، وبدت على شفرتها ابتسامة ساخرة وهفتت بتعجب :

-يضربنى؟!. إنه يحسن معاملتى حين يكتفى بضربى. لقد صار الضرب رفاهية أمام ما يفعله معى الآن. أنت لا تعلم كيف يمكنك أن تعيش في فرع في كل لحظة من عمرك. أن تستيقظ فجأة وأنت لا تدري أين ستسقط الضربة التالية على جسدك.. أن تنظر إلى كل سيجارة متوهجة وأنت لا تدري هل سيكتفى بإطافئها في المنفضة أم سيطفئها على جسدك.

استشاط غضباً وتأججت كراهيته نحو رجل صار وحشاً ينهش في حبيبته،
تمنى لو يقدر على الإنتقام، تمنى لو يفعل به ما يفعله ب "منى".

وعادت منى ثانية لحديقها وشكواها :

-أجسُ أحياناً أنه قد صار وحشاً بسببى. أشعر أنه أصبح هكذا لرفضى له
وكراهيى لضعفه الذى تزوجته من أجلها. أعتقد أنه يريد أن يخبرنى بما
يفعله أنه قوى. أنه رجل آخر غير الذى أتخيله وأعرفه.

صمتا ثانية وعادا للتحرك. كانا معاً لكنه شعر بداخله كم تغيرت وكـم
صارت منى أخرى غير التى يعرفها. ذهب البراءة التى طالما غلّفها وجاءت
المرارة والحق والإحباط. راحت الضحكة الساحرة لتأتى الضحكة المريرة
الساخرة. ماتت منى الحالمّة وولدت منى الحائقة. شعر بالضعف فسألها:

-وما الذى تنوين فعله الآن؟..

-هل تقترح على شىء ما ؟. إننى أنتظرك لتخبرنى ما الذى على أن أفعله.
انتظرتك كل هذه الأعوام لتخرجنى من هذا الجحيم وتحترنى. انتظرتك
لتنبى حيرتى والآمى. فهل تفعل هذا يا عماد؟..

وشعر بالعجز أمامها لأول مرة في حياته.. ما هى منى الضعيفة تأتبه طالبة
حمايته وأحضانها. فهل عاد قادراً أن يحقق آمالها؟. وقال بخفوت مقترحاً:

-يمكنك أن تطلى الطلاق.

-انتظرت أن تخبرنى بحلٍ آخر يا عماد غير هذا. إننى لم أكفُ يوماً عن
طلبه. لكنه دوماً يُرفض. إنه لن يطلقنى يا عماد. إننى نقطة ضعفه
الوحيدة والكانن الوحيد الذى يُشعِره بضعفه وقلة حيلته. لن يتركنى أبداً
إلا حين ينتهى مِنّى تماماً.

-لكنك لن تعيشى معه رغماً عنك. لن يستطيع أن يجبرك أن تفعلى.

-يمكننى أن أهجره. أن أهرب بعيداً عنه في مكان لا يصل فيه إلى. لكن
ماذا عن أهلى الذى يهدنى بهم. ماذا عن ابنتى التى يهدنى بحرماني منها لو
تمسكت بالطلاق. ماذا عن زوجى المفترض بعدها والذى أقسم لى أن يقتله
لو فعلت. أنت لا تعلم ما صار إليه محمد الآن. لقد صار وحشاً ولا أحد
صار قادراً على ردعه.

تمنّى في هذه اللحظة لو يراه لينتقم منه. ورمقها وشفتيه ترجفان ثَوْتراً
وغضباً وهتف بغضب:

-إذا سأقتله. لو لم يكن هناك حل آخر فسوف أقتله..

كان صوته عاليًا صاخبًا جذب الأنظار إليه، فالتفت إليه بعض المارة
بدهشة. لكنهما واصلا التحرك بصمت حتى وصلا إلى مفترق الطريق
الرئيسى، هنا توقفت وظهرت على وجهها الضحكة المريرة ثانية، وقالت
بإحباط:

-حاول أن تنسانى وعش حياتك يا عماد. دعنى لقدرى ومصيرى. وأبداً أنت
حياةٌ جديدة. أنت لم تخرج من جريمة قتل لتقتل آخر. لن يسعدنى أبداً
أن أراك تسجن ثانية أو تُعَذِّم من أجلى. أخرجنى من حياتك لو كنت مازلت
بها وابحث عن أخرى.

-إننى أحبك. ولن أبتعد.

- وما جدوى الحب مع العجز.. وما جدوى الحب بغير أمل إلا العذاب
والموت احتراقاً. حاول أن تنسانى لو كنت تحببى حقاً. إن هذا أفضل
لكلينا.

لم تسمح ابتهام أبداً عماد في ما فعله مع أمهما، ولم تصدق ما ادعاه عن اللعنة التي أصابت أمه وانتهت بقتلها. كانت حينها مسافرة مع زوجها العجوز الذي يعمل طبيباً لأمراض الكلى في الكويت. ظلَّ هناك حتى مرض زوجها وشعر أنه لم يعد قادراً على احتمال تلك الغربة أكثر مما فعل فحزما أمتعتهما وودعا الكويت للأبد، ثم عادا للقاهرة ليستقرا فيها هذه المرة. افتتح زوجها مركز طبى صغير ليعمل به. وعادت لتعمل في مدرستها القديمة ثانية.

قرر عماد أن يزورها وقد اشتاق إليها. ظن أنها لوراته أو جلس معها وحكى لها ما جرى فقد تصدقه وتسامحه. كانت تسكن في المهندسين فذهب إليها في المساء. صعد إلى شقتها، وأمام باب شقتها توقف. فكر في التراجع وهو لا يدرى كيف ستقبله وهل ستعطيه الفرصة كي يتحدث أم تطرده. غالب حيرته وذق جرس البيت. مضت دقيقة قبل أن يُفتح الباب. رأى أمامه طفلاً في الخامسة من عمره. كان عماد الصغير الذي أسمته على اسمه. أراد أن يحتضنه لكن نظرات الطفل الحائرة صَدَّتْهُ فقال باسمًا:

هل ماما بالداخل يا حبيبي؟

أوماً عماد الصغير برأسه وقال بلهجة طفولية ثقيلة بعض الشيء:

نعم. لكن من أنت؟ وماذا تريد؟

أخبرها أن خالك عماد ينتظرها بالخارج.

رمقه الطفل بحيرة للحظة، قبل أن يغيب عن بصره داخل البيت. ومضت دقيقة مليئة بالترقب قبل أن تظهر أخته وهي تتحرك نحوه بخطوات حازمة أربكته. كانت ملامحها جامدة قاسية ولم يرى في وجهها ما ينم عن

- صدقينى حتى لو وعدتك أن أبعد فلن أفعل. لن أفقدك ثانية. متى يمكننى أن ألقاك ثانية يا مـ. هناك ما أريد أن أحدثك به.

احتفظت بابتسامتها المريرة، وهزت رأسها بأسف، وقالت:

لن يحدث هذا ثانية.. لقد حدثتُك اليوم لأننى كنت بحاجة لهذا. علمت منذ الأمس أنك ستنتظرنى اليوم. وقد فعلت ما توقعته. لكن هذه هى المرة الأخيرة التى أفعل فيها شيئاً كهذا. لن نلتقى ثانية يا عماد. إن هذه رغبتى فعندنى أن تلبىها كما كنت تفعل دائماً. عدنى أرجوك أن تفعل إن كنت تحببى.

راحت ترمقه بثبات وحزم لم يعرفه في عيونها. أراد أن يرفض ما طلبته منه فلم يقدر. أراد أن يطالها بالهرب معه فعيجز عن طلب هذا. أراد أن يختطفها ويهرب إلى مكانٍ ناءٍ فلم يعرف كيف يفعل. وجد نفسه يهز رأسه للأسفل ويتمتم بعجز:

- أعدك أن أفعل.

هنا عادت لوجهها الابتسامة القديمة الحلوة التى طالما انتظرها وعشقتها.. وجدها تقول له بشوقٍ وخُب:

- عماد.. اهتم بنفسك من أجلى

قالها وابتعدت عنه على الفور دون أن تنتظر رده. وظل بمكانه يرمقها حتى اختفت من أمام بصره.

اللهفة أو الشوق له. أراد أن يقول لها أى شيء لكنها كانت من بادره بالكلام. وقالت له بجفاف وكأنها لا تعرفه :

-ما الذى أتى بك إلى هنا؟ وما الذى تريده منى؟..

كانت كلماتها قاسية لازعة فأبركته. وقال بصوتٍ مُتوترٍ مُحاولًا الحفاظ على ابتسامة تتأرجح على شفتيه وتغالبه في الذبول:

-كيف حالك يا ابتسام؟

-إننى بخير كما ترى.. لو كان هذا ما ترغب فى معرفته فلقد عرفته، هل من شيء آخر أقدمه من أجلك.

شعر أنها تطالبه بالذهاب. لكنه أصبر على مواصلة محاولته معها وقال متوددًا:

-ألن تدعونى للدخول بدلًا من الحديث على الباب هكذا. إننى مازلت أخوك وليس عيبًا أن تدعبنى للداخل.

-ولماذا تدخل؟! أعتقد أنه لا شيء يجمعنا لنحدث عنه. لو كان لديك ما ترغب فى قوله يمكنك أن تقوله من مكانك هذا. أخبرنى بما تريد قوله. ولكن بسرعة من فضلك، فهناك ما أقوم به الآن.

كانت كلماتها قاسية فلم يحتملها وهتف مُخنَّدًا:

-لا أدري كيف تعاملينى هكذا. لم أت إلى هنا لأطلب منك شيئًا. أتيت لأطمئن عليك وأراك وأرى ابنك. إننى خال الطفل وأخوك.

هنا بدأ صوتها يعلو وبدأ القناع الزائف الجامد الذى اجتهدت لترسمه على وجهها فى الإنهيار وهتفت به:

-كنت أختي. لكنك الآن قد انتهيت من حياتي. لا أردى كيف تريد أن أعاملك، وقد قتلت أمنا. قتلها وهى التى لم تبيء لأنيًا قط. هل تنتظر منى أن أقتلك وأن أحضنك بعد ما فعلته. وهل تريد منى أن أهمل فى أذنك أننى سامحتك على ما فعلته. أنت واهم لو اعتقدت هذا. أتمنى أن تدرك أنه حين ماتت أمنا لم تمت بمفردها. لقد مات معها أختي الذى كنت أعرفه. هل تفهم معنى كلماتي. لم تعد أختي لأن أختي الذى أعرفه قد مات.

وتاهت الكلمات عن لسانه فصمت، وبدأت يده فى الإرتجاف ثانية ودموع حائرة تجاهد عينيه كي تندفع للخارج. بينما أشاحت ابتسام بعينها بعيدًا عنه للحظات قبل أن تحزم أمرها فتدفع ابنها للداخل، وتغلق الباب فى وجه أخيها دون كلام..

وأمام الباب المغلق كالصنم تجمد عماد مذهولًا مما فعلته أخته. ومما قالته له. واهتز ضوء الدرج للحظة قبل أن يرى شبح أمه معترضًا طريقه وهى تقول:

-لن تتقبل أبدًا قاتل أمها. أنت أحق لتظن غير ذلك.

ووجد نفسه يصرخ فى جنون:

_ اتركينى وشأنى.. ما الذى تبغيه منى. عليك اللعنة. عودى للجحيم.

واضربت ابتسام خلف الباب الذى أغلقته وراحت تنتحب.. لم تصدق ما قالته لأختها وما فعلته. وهالها ما وصل إليه أخوها من هُزالٍ وضعف وبؤس. تمنّت لو استطاعت أن تحضنه وتطمئنه، لكن أمها المقتولة كانت دومًا بينهما. وصلها صراخه خلف الباب فكادت أن تثب للخارج لتحضنه وتطمئنه وتعتذر له. لكنها لم تفعل وكم تمنّت بعدها لو فعلت.

ذهبت لحجرتها وظلت تبكي وتلتحف لساعات حتى أتى زوجها عبد المنعم.
كان في السادسة والستين من عمره. أخبرته بكل شيء. وبين أحضانها عادت
لتبكي ثانية.

(9)

مضت الأيام كنيبة، مملة. لم يرى "مى" ثانية، لكنه لم يكف لحظة عن
التفكير بها. رأى زوجها يومًا يمر بسيارته الجيب الفخمة بجوار الكافيه
الذى اعتاد أن يجلس عليه مع ممدوح كل ليلة. تبادلًا سويًا حينها نظرات
حادة تعقب بالكراهية والتحدى. واعترف عماد في قرارة نفسه أن شيئًا ما
قد تبدل في محمد عصام، وأن تلك النظرة الواهنة المائعة التى اعتاد أن
يراها في عينيه قد اختفت وحل محلها نظرة شرسة شريرة. شعر أن محمد
عصام يهدده بنظراته، وأنه يرسل له تحذيرًا خفيًا أن يبتعد عن مى وإلا..

كذلك ازدادت المحاولات التى تبذلها سوسن حثيثًا لإغوائه. لم يفهم أى
شيطان هذا الذى يحركها. إن كانت ترغب فى أن يحبها ويتزوجها بمحاولاتها
الغرقاء هذه، فهى حمقاء بلا شك. وإن كانت ترغب فى علاقة عابرة تستمع
خلالها به، فليس هو من يفعل هذا، وحتى لو شاء أن يفعل فلن تكون هى
من يتورط معها فى أمر كهذا..

عاد لبيتها يومًا بعد منتصف الليل ليجدها بانتظاره. خرجت إليه فور أن
صعد الدرج، ونادته من خلفه هامسة فانتفض فزعًا. أراد أن يمسحها و
يزجرها، لكنه صدى بما رآه. كانت ترتدى (شورتًا) ضيقًا قصيرًا (توب)
ضيق قصير انحسر عن بطنها بإغراء لاحت له. وأطلقت شعرها خلف رأسها
ثائرًا بلا قيد فبدت كالحوريات..

كانت فاتنة بلا شك، ولم ينكر هذا يومًا ما..

راقبت بأنفاسي ملهية كيف ينظر إليها بعيون جائعة نهمه. لكنه عاد
وتمالك نفسه بعد حين. وأولاهها ظهره، ثم اتجه نحو شقته ليدخلها، مُتَمَرِّدًا
بصمت وإثارة. لكنها لم تدعه وأسرت قدخلت خلفه، وهمست من خلف
أذنه بصوت يعقب بالإثارة:

-والآن ما رأيك؟ وكيف ترانى اليوم؟.. أمازلت الطفلة الصغيرة التى كنت
تلاعها وتجلب لها الحلوى حين مضى..

اشتعلت فى جسده نيران لا تُطفأ. وانهارت سدود مقاومته مع همساتها
الملتهية، ولمسات أناملها الرقيقة على كتفه.. وأدرك ما سيحدث فى
اللحظات التالية ففعل آخر ما يتوقعه هو أوى. دفعها مرة واحدة خارج
الشقة، ثم أغلق الباب خلفها فى حدة وعنف، ثم أسند ظهره للباب وراح
يلهث مُحَاوِلًا جمع شتات نفسه ثانية..

ظن أن هذا كافيًا لتنصرف عنه، لكنها لم تفعل. ومرة يومًا قبل أن يجد
من يطرق باب بيته بعد الظهر. فتح الباب ليجدها أمامه. كانت تحمل
طعامًا فى صينية زرقاء وهى تبتسم ببراءة كأن شيئًا لم يحدث. أراد أن
يشكرها بجفاء، وأن يخبرها أنه لا حاجة به لهذا الطعام، لكنها دفعته فى
صدره بكوعها ودلفت الشقة لتضع الطعام على الطاولة الخشبية، ثم
دارت بوجهها نحوه.. حاول أن يبعد عينيه عنها، وعن ملابسها الضيقة التى
توشك أن تتمزق لتكشف عن مفاتن لا تقاوم. حاول ألا ينظر إلى عينيها
النجلوين اللتين أحاطتهما بالكحل ببراعة فلم يقدر. تَصَنَّعت الخصام
وقالت له مُقَطَّبَةً:

-ما الذى فعلته أول أمس؟..

شعر بالحيرة من غضبها المزعوم. لولا ما قام به لانتك عذبتها بلا شك في تلك الليلة. لو أدركت قيمة ما فعله لشكرته. وقال يهدوء وهو يغالب بصره كي لا يرنو نحوها لينهل من حلاوتها:

-أنت مجنونة بالفعل. ألا تدركين هذا؟.

برقت عينها وقد فهمت ما يقصده، وقالت بجذل :

-هل خفت مني يومها؟.. لكنني لا أعض.

أبتلع ريقه بصعوبة ورد عليها متوتراً:

-بل خفتُ عليك. أنت لا تدركين ما الذى تدفعينى لفعله وما الذى تتزلفين إليه.

-ولكني لا أخاف منك. هل تعلم لماذا؟. لأننى أحبك.

كانت جراتها تثيره وتهز أعماقه، وفي الوقت نفسه تحنقه وتغيظه باندفاعها. وهتف فيها وهو يقبض على ذراعها بقوة، غاضباً مستكراً:

-تحبيننى أنا ؟. أنت لست حمقاء فحسب. بل غبية كذلك. إن عمرى في ضعف عمرك تقريباً.. إننى بلا عمل ولا مستقبل. فأى شئ تحببه من أجله؟

سحبت ذراعها من يده، وقالت بهمس يفوح منه هرمونات أنوثتها العابثة المماجنة، وصوت رغبها الصارخ:

-كل هذا لا يعنينى..كل ما أريده هو أنت.. أنت فقط.

قالها وفاجأتها بما فعلته بعدها.. مالت نحو شفثيه مرة واحدة، وطبعت قبلة سريعة عليها.. أبعد رأسه عنها بسرعة مذهولاً. لكنها احتفظت بابتسامتها العابثة الظافرة، وتحركت لتغادر شفثه، وهي تقول :

-لن أياس أبداً منك. أعلم أننى سأصل إليك في النهاية.

شعر أنه إن لم يفعل شيئاً ما ليقف ما تفعله فسوف ينحدر معها في ما ترضيه. فكر في أن يخبر أمها. لكنه خشى أن يجرحها بكلماته، أو أن تسيء فهم مقصده. قرر أن يكون أكثر حذراً معها.

لم تكن سوسن شكواه الوحيدة. كان هناك أيضاً الفراغ والملل.. واقترح عليه ممدوح أن يبحث عن عمل ما. إنه مهندس اتصالات، وقد عمل لعامين في شركة اتصالات كبرى قبل الحادث المشؤم. لكن أى مكان يقبله وهو موصوم بقتل أمه والجنون كذلك. كرر المحاولة مرتين كان نصيبه الرفض فيهما فقرّر أن يكف عن المحاولة. لن يعمل في أى مكان بغير معجزة في زمن فارقته المعجزات.

لكن الشئ الذى أفزعته وأقضى مضجعه هو ما صار يحدث له في البيت. صار يرى أمه طوال الوقت. بل وعاد يرى أشياء وظلالاً مخيفة في كل حين. ولم تعد العقاقير تُجدي كثيراً في إنهاؤها أو حتى تخفيف حدتها كالسابق، ولم يعد إغلاق عينيه والعد من واحد لعشر، بكاف كي تختفى.

اعتاد كذلك على الصرخات المفزعة التى تنبعث كل ليلة من حجرة أمه المغلقة، وصار مألوفاً أن يرى ذلك الضوء الأحمر منبعثاً من أسفل بابها في الظلام..

شعر أن ثباته النفسى يهتز بشدة.. وشعر أن كل تلك العقاقير التى أمدته المستشفى بها صارت بلا جدوى.. ومرة أخرى راح يحاول جاهداً أن يصل

بعقله إلى إجابة لتساؤله الدائم.. هل ما يجري له الآن أوهام يختلقها عقله.. أم هي أحداث غامضة تدور حوله، ولا شأن لعقله بها..

شعر أنه مُوشك على الجنون لو لم يتوقف كل هذا، وفكر في أن يسأل أحد ما عن المساعدة..

وقفز لعقله شخص ما من أعماق ذكرياته القديمة. تذكر الدكتور محمد شاهين. ذلك العجوز المتأنق اللعين الذى يعيش في فيلته المهجرة بالمقطم. تذكر ما فعله معه من قبل طففا غضبه على سطح عقله وعاودته رغبته في الانتقام منه. كانت شهادته بالمحمكة هي ما أودعه مستشفى الأمراض العقلية والنفسية بالعباسية. لو أخرج المحكمة بالحقيقة، لربما تغير الوضع، وربما لم يكن الحبس مصيره. لكنه لم يفعل.

(10)

في تلك اللحظة كان الحق في نفس الدكتور عبد المنعم والقهر لا حد لهما. وتمنى لو يموت الآن ليستريح من النيران التي تكوى روحه نفسها. فلا وصف مما تحويه الكتب والمعاجم والبلاغة بقادر على وصف ما يشعر به الآن.

بدا الطريق الدائري المظلم أمامه ممتداً بلا نهاية، مُنْذِرًا بكارثة مُقْبِلَة بلا ريب، فلم يهتم. كان يبكي وراحت دموعه اللثغينة تنهمر على وجنتيه بلا توقف..

راح سؤاله يتردد في عقله وعلى لسانه بلا أمل في إجابة تنجيه من حيرته.. أنتجيب أبنائنا ليظهرونا، وهل نثق فهم ليخونونا؟..

وكان هذا ما فعله به أدهم ابنه. ابنه البكر من زوجته الأولى التي تُوفيت منذ أكثر من عقدين من الزمن تاركة ابناً وحيداً. شعر الدكتور عبد المنعم أنه مازال بحاجة للمرأة، فتزوج ابنتام زوجته الحالية لينجب منها ابنه الآخر عماد..

كان يعلم أن أدهم لا يحب زوجته. لكنه تجاهل الأمر. ظن أن أدهم يكرهها لأنه يعتقد أنها قد جاءت لتحل محل أمه الراحلة. ورأى الدكتور عبد المنعم أن مشاعره تلك غير ناضجة ويوماً ما سوف يدرك لماذا احتاج أبيه للمرأة، ولماذا كان عليه أن يتزوج ثانية.

لكن الولد تخرج من الكلية دون أن تتبدل مشاعره ودون أن يفارق جفاءه نحو زوجة أبيه. هنا فكر الدكتور عبد المنعم في استرضاءه بشيء ما، ففعل أكبر حماقة في حياته كلها. فكتب من أجله توكيلاً عاماً يُمَكِّنُه من إدارة كافة ممتلكاته عسى أن يدرك أدهم أن أباه لن يظلمه، وأنه لن يعطى للزوجة الشابة من أمواله أكثر من حقها..

توقع بعدها أن يطمئن قلبه فيثوب إلى عقله.. لكن ابنه لم يفعل. بل خانته. واستولى ابنه على كل ممتلكاته بواسطة هذا التوكيل. سلبه سيارته والشفقة التي يسكنها والعقارات الأخرى والحسابات البنكية، بل وحتى المركز الطبي الذي يعمل به. كانت صدمة لم يتفهما الدكتور عبد المنعم ولا عرف دوافعها. هل يحجر عليه ابنه في أمواله وممتلكاته؟ أم تراه يرغب في الاستيلاء عليها بمفرده؟ كان يريد الإجابات وكان عليه أن يحصل عليها من ابنه فذهب إليه. وقابله الأخير ببرود كاد يقتله. وفوجيء به يقول له بتحد:

-وماذا في أن أنقل كل ما تملك لنفسى. إننى ابنك وأموالك في النهاية سننزل لى. كل ما حدث أننى عَجَلْتُ بالأمراً قليلاً. وليس في هذا شيء.

لم يتحمل قسوة كلماته فصرخ في وجهه ثائراً:

هذا حين أموت وليس وأنا على قيد الحياة. وحتى لو ميتٌ فأموالي ليست من حقك وحده. هناك أخوك وزوجة أبيك.

في الواقع هذا هو ما دفعني لنقل ممتلكاتك باسمي. هناك طفل تعتقد أنه ابنك، وأنا لا أعترف به ولا أصدق أنه أخي. هل نظرت إليه يا أبي. هل رأيت في وجهه شبه ما يجمعك به أو حتى بي. إنه لا يشبه غير أمه فما أدراني أنك أباه؟

كان هذا أكبر من أن يتحملة وارتفعت يده لتهوى على خد الإبن العاق في صفة مدوية وهو يصرخ في جنون:

إنه ابني شئت أم أبيت، وله في وفي أموالى مثل ما لك تمامًا. وإياك أن تكررها ثانية. إنه ابني أيها الغبي. ابني مثلما أنك ابني.

لكن أدهم لم يرتدع. وتحسس مكان الصفة بأنامله للحظة ومازالت نظرة التحدى في عينيه، قبل أن يقول ببرود:

ما دمت تؤمن أنه ابنك ولا تشك، فهذا شأنك. لكن أموالك لا. إن أموالك ستكون لى وحدى. وحدى فقط ولن يشاركنى فيها أحد آخر.

شعر بالقبضة الخفية التى تآتى من بعيد لتعصر صدره وتخنقه. كانت هناك أزمة قلبية مُقْبلة، ويعود ليتحدث بصوتٍ مخنوق ولسانٍ ثقيل:

بل له نصيب في كل شيء أملكه. إن أموالى ملكى وحدى وسأفعل بها ما أشاء. أما أنت فسوف تعيدها لى ثانية لأسامحك على ما فعلته. سوف تفعل هذا يا أدهم. أليس كذلك؟

لن أعيد إليك أى شيء.. لن أعيدها لتحرمنى منها وتمنحهما إياها. وأما بشأن معيشتك ومتطلباتك فلا تقلق، سوف أعطيك كل شهر ما يكفيك

حتى وفاتك. وأعدك أن تحيا حياة كريمة كما تعيش الآن، لكننى لن أعيد الأموال ثانية لك.

اجتاحه دُوارٌ عنيف فأظلمت الدنيا في عينيه، وبالكاد نجح في تجاوز سيارة تسير أمامه كاد أن يصطدم بها. اعتصر عجلة القيادة ببديه وهو لا يسمع السَّبَابَ البذيء الذى أطلقه قائد السيارة له. وازدادت دموعه انهمامًا فَبَهْرُ رأسه بقوة كأنما ينفض الأفكار عن عقله، مُحَاوَلًا ألا يتذكر ما حدث بعدها. لا يرغب أن يتذكر كيف توسل لابنه كين يعود لعقله، وكيف كاد أن يُفَقِّلَ يديه دون أن يلين أدهم. لا يريد أن يتذكر كيف نهشته الذبحة الصدرية حينها وضاعت أنفاسه وصدره يتسول الهواء فلا يصله، فاتهمه ابنه حينها بالتمثيل وادعاء المرض..

هنا لم يكن أبدًا ممكنًا أن يحدث أكثر من ذلك، فخرج من عنده لا يلوى على شيء.. كان يسير بسيارته على الطريق الدائرى في جنون، وتمنى سائراً لو يظل هكذا للأبد.

اتجه إلى طريق السويس الصحراوى. اختفت أعمدة الإضاءة، وخلا الطريق من السيارات تقربًا، فبدأ ساكنًا هادئًا.. لكنه قلبه لم يهدأ..

هنا رواه خاطر مُهمِّم ومُخيف. شعر أنه ليس وحده بالسيارة وأن هناك من يجلس خلفه. وحين نظر إلى المرأة التى تتوسط زجاج السيارة أمامه رآها تجلس في منتصف المقعد الخلف للسيارة وهى ترمقه بنظرة وحشية أربعته.

كانت حماته. بل كان شبحها بالطبع. وهنا فعل أكثر الأشياء حماقة. دار برأسه للخلف ليتأكد مما يراه فى المرأة وفى الوقت نفسه ضغطت قدمه على مكابح السيارة..

كان المقعد الخلفى فارغاً. لكن السيارة لم تعد سيارة في تلك اللحظة. فقد ارتفعت فجأة في الفضاء كطائرة سوداء عملاقة. هنا رأى زوجته ابتسام ممسكة بيد عماد الذى راح يُلَوِّحُ له وعلى شفثيه ابتسامته الطفولية الحلوة. رأى أدهم يرمقه بِشَفْ و ما زال مُحْتَفِظاً بنظراته القاسية الباردة. ورأى نوال، زوجته الأولى تأتى من خلف الحجب والضباب تشير إليه أن يتبعها فابتسم لها..

هبطت السيارات وانقلبت على الطريق بضعة مرات.. ارتفع الغبار إلى عنان السماء فحجب عن القمر حقه في متابعة ما يجرى.. وفور أن همدت السيارة وكُفَّت عن حركتها العنيفة اشتعلت فيها النيران. ومضت لحظات قبل أن يأتى الانفجار العنيف الذى مَرَّقَ سكون الليل. وانتشت زهرة النار المقدسة وأينعت وتفتحت..

ومضى وقت طويل قبل أن تأتى النجدة إليها،
لكن بعد فوات الأوان بالطبع.

(11)

انكمشت ابتسام حول ابنها الراقد بجوارها على الفراش في وضع جنينى مذعور تلتبس منه الحماية والسكينة والدعم في عالم قاسي لا يرحم. شعرت أنها طفلة حائرة مذعورة. طفلة ألقوها في الغابة المظلمة وأخبروها أن عليها أن تواجه الشيطان والساحرات والوحوش بمفردها. كانت بحاجة لمن يستندوا فتذكرت عماد. أخوها الوحيد. ازداد نحيبها وهى لا تدرى لماذا يرفض قلبها أن يلجأ له. هل صارت أمها الراحلة هى السد العالى الذى يحول بينهما. لكن إن لم تلجأ إليه فلن تلجأ، ولم يعد هناك من يمكنها أن تطمئن إليه في هذا العالم غيره.

مَرَّ أسبوع منذ وفاة زوجها مُحْتَرِّقاً بسيارته. ظلت طوال الوقت تتساءل بحيرة. إلى أين كان يتجه بالسيارة مُتَّخِذاً طريق السويس؟ ولماذا انقلبت به السيارة وقد أثبت تقرير العمل الجنائى أن السيارة لم تصطدم بشيء.

لاحظت الجفاء والخشونة التى عاملها بها أدهم فلم تتعجب. لقد تعودت على هذا منه. لكن العجيب أنها لم ترى في عينيه دمعة واحدة على أبيه الراحل. هنا شعرت بقسوته وجحوده. من أين استقى ذلك الشاب كل تلك القسوة على أب غيَّذته كريماً وعطوفاً معه.

لكن المفاجأة الحقيقية حين علمت كيف استولى على الشقة واستأجر بعض البلطجية الذين طردوها وطفلها في الشارع.

هذه المرة لم يعد أمامها إلا أن تستقر في بيت أبيها مع شقيقها الذى رحب بها بوجد حقيقى، وإن ظل الجدار الضخم الذى يفصل بينهما قائماً. حاول عماد أن يقص عليها ما حدث مع أمه، لكنها لم ترغب أبداً في سماع شيء مما حدث، كي لا تجتر ألامها ثانية ورجته ألا يفعل.

عادت لحجرتها القديمة التى عاشت بها قبل الزواج وامتنعت عن الدخول إلى حجرة أمها. شعرت بأن الذكريات التى تسكن الحجرة قادرة على هزيمتها وتحطيم ما بقى من سلامها النفسى إن وطنها، لتتركها على حالها مغلقة على ذكرياتها وأحزانها، ولتنتبه إلى ابنها الذى هو بحاجة لها حقاً..

مضت الأيام رتيبة باردة بينها وبين أخيها. تحاشته خلالها وإن لم تستطع أن تمنع ابنها عماد عنه، وهى ترى كيف تعلق به للغاية. وراحت تتساءل بحيرة ما الذى يعجزها هى الأخرى عن حب أخيها وطالما فعلت من قبل..

مضت الحياة لحين على رتابتها حتى استيقظت ذات ليلة على صياح ابنها وقد صحا من نومه فزعاً وراح يصرخ:

-المرأة العجوز يا أمي. إنها تختفى في الظلام وتشير إليك. إنها تُخِيفُنِي.

ظننت أنه كابوس. لكن أخي الذي هرع إلى الحجرة فور سماعه صرخات الطفل امتقع وجهه بشدة وهو ينظر إلى الحجرة المظلمة نظرات غريبة قبل أن يسد أذنيه بكفيه ويغمض عينيه كأنما يسمع أصواتًا خفية لا تسمعها، وراح يصرخ هو الآخر.

وبعد بضعة أيام أخرى فوجئت بابنها يقف أمام حجرة أمها المغلقة. العجيب أنه كان يضع أذنه على باب الحجرة المغلقة مُسْتَرْقِيًا السمع لما يحدث داخلها. شعرت بالحيرة مما يفعله وسألته وهي تنحني نحوه لتعلم ما الذي دفعه لفعل هذا، فأبعد رأسه عن الباب ونظر إليها بعيونٍ لامعة وقال بحماس وهو يشير للحجرة المغلقة:

-هناك من يتحدث بالداخل.. لقد سمعته من قبل، والآن أسمعهم ثانية.

رمقت ابنها بتوتر وخوف لتفاجأ بأخيها يندفع من حجرته نحو ابنها وينحني نحوه قائلاً بعيونٍ زائغة أرعبتها :

-هل قلت أنك تسمع أصواتًا بداخل الحجرة يا عماد.. أخبر خالك ولا تُخْفِي عنه شيئًا.. ما الذي سمعته؟

أجاب الطفل خاله على الفور بحماسة الذي لم يُطْفَأ:

-إنهم يتحدثون ويصرخون أحيانًا، لكني لا أفهم حديثهم. لقد اكتشفت أمرهم منذ أيام. من هؤلاء يا خالي؟ ولماذا لا يخرجون من الحجرة؟!

راحت عينا ابتسام تتنقل بين أخيها المذعور وابنها المتخمس، بتوتر لا حدود له وهي لا تفهم ماذا يحدث. ورأت كيف زاغت عينا أخيها وكيف ارتجف وهو يُلمِصُ أذنيه بالباب هو الآخر كأنما يرغب في سماع ما سمعه الطفل..

لم تفهم ما يحدث لكنها شعرت بخوف غريب يعتريها على ابنها حين أبعد عماد أذنه عن باب الحجرة برعب ثم أمسك برأس الصغير برفق وقال له:

-انظري يا عماد إلى.. أنت تحبني وتحب أن تُطِيعَنِي، أليس كذلك؟..

هزَّ الطفل رأسه موافقًا، فأكمل:

-إذا عدنى ألا تقارب من هذه الحجرة ثانية.. عد خالك ألا تفعلها مرة أخرى.

رمقه الطفل بعجزة. وكان هذا أكبر من أن تحتمله، فاندفعت نحو ابنها وجذبتة من بين أصابع خاله وهي تصرخ في وجهه محذرة:

-ما الذي يحدث ها هنا وما شأنه بابي. أخبرني يا عماد؟. ما الذي يدور في هذه الحجرة

جاوبها صمته. ونظراته التائهة، قبل أن يُولِّها ظهره ويسير نحو حجرته دون أن يجيبها. وشعرت بالذعر، فصرخت فيه وهي تحتضن الطفل بقوة:

-ابتعد يا عماد عن ابني ولا شأن لك به.. لو أصابه مكروه ما فسوف أقتلك ببدي هذه المرة. لن أسامحك أبدًا لو فقدته كما فقدت أمي. سوف أقتلك حينها. أقسم أنني سوف أفعل.

ولم يطمئن قلبها بعدها أبدًا. وقد اجتاحتها القلق على طفلها، فراحت تراقبه بحذر طوال الوقت. لكن الطفل بدا وكأنما فقد اهتمامه بالحجرة تمامًا بعدما فلم يقترب منها ثانية كما طلب منه خاله.

وبعد شهرٍ كامل خَلَّت الكارثة. كان الوقت ظهيرًا، وقد انهمكت ابتسام في إعداد الطعام بالمطبخ. حين لاحظت أن صوت ابنها قد اختفى فجأة. نادته

فلم يجيبها، فخرجت للصالة ونادته ثانية، وحين نظرت إلى حجرة أمها شعرت بالرعب.

كانت الحجرة مفتوحة باتساعها، وقد انبعث منها ضوء أحمر مخيف. نبض قلبها بعنف. وظلت بمكانها مُتَجَمِّدَةً للحظات قبل أن تتذكر طفلها فجأة. هنا طردت مخاوفها من عقلها، واندفعت بلا تردد نحو الحجرة..

وحين رأت ابنها لم تتمالك نفسها، كان ما تراه حينها هو الهول نفسه.

ووجدت نفسها تصرخ بفرع كما لم تفعل من قبل.

الفصل الثاني

المصحة

(قبل سبعة أعوام)

ألم عينيه وميض عشرات الكاميرات المصوبة نحوه، فأغلق عينيه في ضيق. وارتفع الصخب والضوضاء في قاعة المحكمة فازداد توتره. وقف داخل القفص الحديدى مُترنخاً ذاهلاً عما يدور حوله، وانهمرت على أذنيه الكثير من الأسئلة التى يلقيها عشرات الصحفيين الملتفين حول قفصه. كانت أسئلتهم متكررة ومتشابهة يجمعها الإصرار والإلحاح والسماجة، فلاذ بصمته ولم يرد. كلهم يبحث عن خبر مثير أو كلمة منه تزين صفحات جرائدهم الأولى.

تمنى لو يتركوه لحاله ويكفوا عن إزعاجه. ليتهم يتركوه لآلامه وحيرته وذهوله.

أغمض عينه ثانية بشرود كي لا يرى أى شئ مما يدور حوله. وعاد ليتذكر أمه التى رآها تموت أمام ناظره.

وتذكر ما كان حين نجح الجيران في كسر الباب المغلق ودخلوا ليشاهدوا الجريمة البشعة. الأم راقدة على وجهها بين ذراعيه وهو يقبض على السكين المخروز في عنقها من الخلف ليخرجه، وجسدها المذبوب ينتفض ويخور. وقد تفجرت نافورة من الدماء الساخن من عنقها. لم يكن هناك من أحد غيره معهم. وكان السكين في يده. هذا ما رآه الجميع، فأى دليل أخرضه أقوى من هذا ليعتقدوا أنه من قتلها.

لكنه لم يقتلها.. لم يكن ليفعل هذا أبداً هذا حتى لو أراد.. المشكلة أنه لا أحد يريد تصديقه، ما رآه جيرانه أقوى من حجته مهما قال..

انتبه إلى صوت العاجب البدين ذو الكرش الضخم، والذي صرخ في الجميع فجأة "محكمة.."، ثم دخل القضاة، قبل أن يأذن القاضى لوكيل النيابة أن يتلو مرافعته وعريضة الإتهام.

نهض وكيل النيابة الشاب وسوّى هندامه قبل أن يبدأ في مرافعته المتوقعة والتى سينهيا كما جرت العادة بطلب أقصى عقوبة على المتهم، وهى الإعدام حتمًا. وجال في خاطر عماد سؤال عجيب. لماذا لم يرى أو يسمع يوماً وكيل نيابة يطلب البراءة لمُتهم ما؟.

لم يهتم بما يقوله وعيناه تسبح على وجوه الحضور. انتبه إلى "مى". كانت تجلس بالصف الأخير وعيناهما مُغلقة به. ذبل جمالها، ونُحُل عودها، وتراكمت حول عينها الهالات السوداء الكثيفة. لابد أنها تبكى كثيرًا ولا تنام. وهل ينتظر منها ألا تفعل؟..

كانت تنتحب، وهى ذاهلة عما حولها. قبل أن تنظر نحوه. تلاقت العينان في تلك اللحظة ودار بينهما الحوار الأبدى الصامت. تمنى لو تُثبّ نحوه وتختطفه وتبتعد به عن العالم كله، وتمنى لو يحدثها للمرة الأخيرة ويطالها أن تهتم بمستقبلها وأن تنساه. شعر بأنه لا يحتمل بكانها، فأشاح بوجهه بعيداً عنها. عاد لينتبه إلى ما يصرخ به وكيل النيابة الشاب، والذي لم يكف عن الإشارة إليه بإصبعه من حين لآخر:

-وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.. وهل جزاء المعاناة التى تكبدتها الأم أعوامًا طويلاً من أجل تربية ابنها وتهذيبه، العقوق والقسوة.. إن المتهم المائل أمامكم قد تجرد من كل معانى الرحمة والمحبة والإنسانية حين قام بما فعله.. لقد هدم المعبد بأكمله حين قتل أمه.. خالف الشرائع كلها وخالف الفطرة السوية حين فعل جريمته.. ما الذى ننتظره منه بعدما قام به نحو أمه التى اعترف بلسانه أنها لم تسمى.. ألتنتظر منه مواظبًا

صالحًا سوئًا، أم ننتظر منه أيًا فاضلاً.. أم تراه يكون بعد ذلك عابداً ناسكاً.. إنه قاتل وليس قاتلاً عادياً من الممكن تَفْهُم دوافعه.. كلا إنه قاتل لا يمكن التسامح معه في ما فعله وقد قتل أقرب إنسان إليه بدم بارد.. قتل أمه!

ألا ننتظر أن يفعلها ثانية مع آخرين لو أطلقنا سراحه؟.. حتماً قد يفعل وقد برهن بما قام به أنه لا قلب له.

وأسوأ ما في الأمر هي تلك التمثيلية السخيفة التي يرددها على مسامعنا، بأن أمه كانت ممسوسة وأنها هي من هاجمته، وأنه لم يقتلها وأن كانتا شيطاناً هو من فعل.. هُراء وخزعبلات يَصْنَعُها على أذاننا بلا انقطاع، منتظراً منا أن نصدقها أو نتهمه بالجنون كي يفلت بجريمته من العقاب..

شعر عماد مع كلمات وكيل النيابة وخطبته الحماسية الملتهبة أن القاضي سيكتفى بتلك المرافعة وسيحكم عليه بالإعدام، دون أن يعطى فرصة لذلك المحامي الذي جلبه له ممدوح أن يدافع عنه. لماذا لا يصدق أحد منهم.. ولماذا لا يلتفتون لشهادة ممدوح والأستاذ محروس والحاج رضا الذين أيدوا ما قاله عن أمه. لماذا يظنونه وحشاً قتل أمه بلا سبب ويرغب في الهروب من العقاب..

دارت عيناه بين الحاضرين ثانية فرأى الدكتور محمد شاهين يجلس في الصف الثالث. مازال كما هو، الطبيب النفسى العجوز بوسامته الأرستقراطية وأناقته الفائقة. تلاقت العينان وقد التفت نحوه الدكتور محمد. وكأنما شعر بنظراته، فظل الأخير واجماً، وهو يهز رأسه هزات خفيفة، كأنما يطمئنه. شعر عماد ببعض الراحة لمجنيته. كان قد طلب شهادة الرجل، وما هو قد جاء. لقد كان شاهداً على ما جرى بينه وبين أمه. ولابد أن شهادته ذات قيمة وقد تُدْعِمُ أقواله وموقفه كثيراً.

انتهى وكيل النيابة من مرافعته فساد الصمت للحظات وتبادلت العيون النظرات، قبل أن ينهض محاميه ليرتافع عنه. بدا المحامي الضخم مرتبكاً، وبدت مرافعته غير متماسكة أو مترابطة، فشعر عماد بالحنق. من هذا الأحق الذي جلبه ممدوح ليرتافع عنه؟ إنه لم يقنعه هو نفسه ببرائه بما يقدمه من دلائل وبراهين، فكيف يمكنه أن يقنع القضاة. فكر في أن يصرخ في الجميع أن يبعدوا هذا الأحق، وأن يأتوا له بمحامٍ غيره. لكنه اكتفى بكتم غيظه في قلبه وهو يتمنى أن يصمت وينتهي من مرافعته سريعاً. بالفعل انتهى المحامي فساد الوجوه على وجوه الجميع، واهتزت رأس ممدوح بحسرة، وازدادت دموع من هطولاً، وقد شعرت بالكارثة التي سببها المحامي ضعيف الحجة، ورأى في عيني الدكتور محمد عتاً صامتاً، وهو يهز رأسه بأسف، كأنما يلومه على اختياره لهذا المحامي المعتوه..

أتى وقت سماع الشهود ونادى الحاجب على الدكتور محمد شاهين، فهض يهدوء.. وألقى القسم بعد أن عرّف نفسه للمحكمة.. فسأله القاضي:

هل كنت تعرف المتهم من قبل؟

نعم لقد تعرفته في الشهور الأخيرة التي سبقت مقتل والدته..

لقد ذكر المتهم أنه قد طلب مساعدتك في علاج أمه من ضمير شيطاني أصابها، وأنت كنت شاهداً على أفعالٍ عجيبة تحدث لها.. هل هذا صحيح؟

لم يُجِبِ الدكتور محمد على الفور وهو يُغالب انفعالاً خفياً في أعماقه. والتفت إلى عماد الذي حبس أنفاسه بترقب وهو يرقبه بأمل، قبل أن يجيب القاضي بهدوء:

-أعتقد أن الصواب هو عكس ما ذكره. لقد كنت أعالج عماد نفسه وليس أمه، بل وكانت أمه هي من جلبته لعيادتي. وكان تشخيصي أنه يعاني من انفصام الشخصية ثنائي القطبية، والتي من أعراضه تلك الأوهام التي يتحدث بها.

خَيَّم الصمت على المحكمة والجميع في ذهول من تلك المفاجأة التي ألقاها الدكتور على رؤوس الجميع، وكان عماد هو أكثرهم دهشة. أي هُراء هذا الذي يسمعه؟! عقد الدهول لسانه فحبس أنفاسه وقد شعر بدوار عنيف يقشاه

وأكمل الدكتور محمد شهادته:

-إن نفيه الآن أنه مريض وأنني طبيب به عرض من الأعراض التي يعانيها..إنه لا يصدق أنه مريض، ولا يعي أن عقله يتوهم ويختلق كل ما رواه لكم. إنه يؤمن أنه قد مر بكل تلك الأحداث المخيفة التي يدعيها. للأسف كانت حالته في تدهور مستمر، وكان بحاجة حقيقية لدخول مصحة نفسية، لكن والدته -رحمها الله- هي من رفضت وأصررت على علاجه بالمنزل.

عاد الصخب ثانية والحيرة ترسم على الوجوه وخاصة مني وممدوح اللذين كانا في دهشة عارمة لما يسمعهان الآن..كلاهما يعلم أن عماد لم يكن يعاني من مرضٍ ما، فلماذا يدَّعي الدكتور محمد هذا؟..

وعاد القاضي ليسأل الدكتور محمد:

-وماذا عن أمه؟.. ألم تكن ممسوسة كما ادعى المتهم؟..

-لا أستطيع في الواقع أن أجزم بشيء ما. أعترف أنني قد شهدت بعيني في منزل عماد أشياء غامضة عجيبية، لكن هذا لا ينفي أن عماد كان مريضاً نفسياً ولا يُغفَد كثيراً بما يدَّعيه.

-ومتى بدأت تقريباً في علاجه؟

-منذ أربعة أشهر تقريباً..

-ولم يستجب للعلاج أو تتحسن حالته حينها.

-ليس بصورة مُرضية..لقد كان تقدمه بطيئاً

قالها وهو يهز برأسه أسفاً قبل أن يُمدَّ يده اليمنى القابضة على بعض الأوراق نحو القاضي مُكمِّلاً:

-هذه نسخة احتفظ بها من الوصفات الطبية التي وصفها له، وتقرير شامل بحالته وخطوات العلاج الذي اتخذتها معه.. وكما ترون فزيارته الأولى لي كانت منذ أربعة أشهر ثم تكررت زيارته لي بعدها بضع مرات.

تطلع القاضي بسرعة للأوراق التي أمامه، قبل أن يقول:

-وهل ترى أنه حين قتل أمه كان واعياً منتبهاً لما يقوم به، أم تراه غير مسئول عن أفعاله.

-أعتقد ليس مسئولاً أبداً عن أفعاله.. ففي مثل تلك الحالات تأتي لحظة ما من الجنون المؤقت يكون المريض فيها خارج وعيه وإدراكه تماماً، ولابد أنه قد تعرض حينها لضغط نفسي هائل، أو لنقل مؤثرات نفسية هائلة لم يحتملها. ربما تخيلها ممسوسة من قوى خارقة شيطانية، وربما ظن أنها تهجمه وتحاول إيذاؤه أو قتله.. هنا قد يصل به الأمر إلى مرحلة الجنون المؤقت، وربما أقدم على قتلها دون أن يشعر. المشكلة هنا هو أنه في الغالب يفقد ذاكرته بصورة جزئية، وينسى ما فعله في ذلك الوقت تماماً.

رقمه القاضي بتعجب. وغدَل من نظارته قبل أن يسأله:

-إِذَا فَأَنْتَ تَزْعُمُ يَا دَكْتُور أَنَّ الْمُتَمِّمَ لَمْ يَكُنْ مُسْتَوِلاً عَنْ تَصَرُّفَاتِهِ حِينَ قَتَلَ
وَالِدَتَهُ.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

-هَذَا هُوَ رَأْيِي الطَّبِىِّ وَمَا أَعْتَقِدُهُ..

صَمِتَ الْقَاضِي فَعَادَتِ الْهِمْمَةُ ثَانِيَةً. وَصَاحَ عِمَادٌ مِنْ قَفْصِهِ بِثُورَةٍ وَهُوَ
يَضْرِبُ بِكَفِّهِ جِدْرَانَ الْقَفْصِ:

-أَنْتَ كَاذِبٌ.. إِنِّى لَسْتُ مَجْنُونًا وَلَمْ أَقْتُلْهَا.. إِنِّى لَمْ أَفْعَلْ.. إِنِّى لَمْ
أَقْتُلْهَا.. إِنِّى مِنْ قَتْلُوهَا وَلَيْسَ أَنَا.

وَجَمَ الدَّكْتُورُ مُحَمَّدٌ وَهَزَّ رَأْسَهُ بِأَسْفٍ وَهُوَ يَتَحَاشَى النَّظَرَ إِلَيْهِ وَاسْمَحْ لَهُ
الْقَاضِي بِالْعُودَةِ إِلَى مَقْعَدِهِ ثَانِيَةً وَقَدْ انْتَهَى مِنْ شَهَادَتِهِ. تَوَالَى الشُّهُودُ
بَعْدَهَا مِنَ الْجِيرَانِ وَاتَّفَقُوا جَمِيعًا عَلَى مَا حَدَثَ. لَقَدْ اقْتَحَمُوا بَابَ الْبَيْتِ
حِينَ سَمِعُوا صَرَخَاتٍ كَثِيرَةً تَتَرَدَّدُ دَاخِلَهُ.. كَانَتْ أُمُّ عِمَادٍ حِينَهَا مُلْقَاةً عَلَى
وَجْهِهَا عَلَى الْأَرْضِ تَلْتَفُضُ وَتُصَدَّرُ مِنْ فَمِهَا صَوْتًا كَالْخَوَارِ، وَعِمَادٌ بِجَوَارِهَا
يَصْرُخُ وَفِي يَدِهِ سَكِينٌ مَغْرُوسَةٌ فِي عُنُقِ الْأُمِّ مِنَ الْخَلْفِ. وَقَالَتْ أُمُّ مُحَسِّنٍ
أَنَّ عِمَادًا كَانَ يَصْرُخُ حِينَهَا أَنَّهُمْ قَتَلُوهَا. لَكِنَّا ذَكَرْتُ أَنَّهَا شَاهَدَتْ بِعَيْنِهَا
أَشْيَاءَ غَرِيبَةً تَحَدَّثُ لَأُمِّ عِمَادٍ. وَأَنَّهَا تَعْتَقِدُ أَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ مَمْسُوسَةً. لَكِنِ
ابْتِسَامَةُ الْقَاضِي السَّاخِرَةِ وَشَتَّ بَعْدَ تَصْدِيقِهِ لِمَا تَزْعُمُهُ. كَمَا ذَكَرَ أَحَدُ
الشُّهُودِ وَهُوَ شَابٌ صَغِيرٌ يَعْمَلُ فِي مَحَلِّ دَوَاجِنَ أَسْفَلَ الْبَيْتِ أَنَّهُ فَتَّشَ
الْبَيْتَ حِينَهَا بَحْثًا عَنْ أَيِّ أَحَدٍ رُبَّمَا كَانَ مَخْتَبَأًا لَكِنِ الْبَيْتَ كَانَ خَالِيًا وَكُلُّ
نَوَافِذِهِ كَانَتْ مُغْلَقَةً..

فِي النِّهَايَةِ حُكِمَ الْقَاضِي وَقَدْ وَجَدَ أَنَّ شَهَادَةَ الدَّكْتُورِ مُحَمَّدٍ هِيَ الْأَكْثَرُ
مَنْطِقِيَّةً وَقَبُولًا. بِإِيْدَاعِ عِمَادٍ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ تَحْتَ الْمَلاحِظَةِ
لشَهْرَيْنِ لِنَقِيْبِمْ حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةَ قَبْلَ إِصْدَارِ حُكْمٍ نَهَائِيٍّ عَلَيْهِ.

(2)

تَوَقَّفَتْ سَيَّارَةُ التَّرْحِيْلَاتِ وَبَدَاخِلَهَا عِمَادٌ دَاخِلَ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ
الْعَقْلِيَّةِ بِالْعِبَاسِيَّةِ. وَبَعْدَ دَقَائِقَ فَتَحَ الْبَابَ الْحَدِيدِيَّ الْخَلْفَى وَصَعِدَ إِلَيْهِ
رَجُلٌ شَرْطَةٌ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَمْدَ إِلَيْهِ يَدَهُ لِيَحِيطَهَا بِالْقَيْودِ فَفَعَلَ.. رَأَى الضَّابِطُ
الشَّابَّ الْمُرَاقِقَ لَهُ وَالْمُسْتَرَّ خَلْفَ نِظَارَتِهِ السُّودَاءِ وَهُوَ يَرْمِقُهُ بِلَا مَبَالَةَ
فَتَجَاهَلَهُ. وَخَرَجَ مِنَ السَّيَّارَةِ لِيَسِيرَ فِي طُرُقَاتِ الْمَصْحَةِ. وَرَاحَ يَطَالَعُ الْكَثِيرَ
مِنْ الْوُجُوهِ الْكَالِحَةِ السَّقِيمَةِ لِمَرْضَى نَخَرِ أَبْدَانِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ الْمَرَضِ
كَالسُّوسِ. خَفَضَ رَأْسَهُ كَيْ لَا يَرَى أَحَدًا وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ قَادِرًا عَلَى التَّخْفِى كَيْ
لَا يَرَاهُ أَحَدٌ. عَبَّرَ بِأَبَا زَجَاجِيًّا ثُمَّ تَوَقَّفَ الْجَمِيعُ وَقَدْ بَلَغُوا حِجْرَةً وَاسِعَةً.
هَنَّاكَ رَأَى طَبِيبَةً فِي مَنْتَصَفِ عُمْرِهَا تَرْتَدِّي مَعْطَفًا أَبْيَضًا قَصِيرًا، أَسْفَلَهُ
قَمِيصٌ لَبَنِي وَبَنَظْلُونٌ قَمَاشِي، كَانَتْ تَرْمِقُهُ بِهَدْوٍ، وَابْتِسَامَةٌ خَفِيفَةٌ تَلُوحُ
عَلَى وَجْهِهَا حِينَ تَلَاَقَتْ عَيْنَاهُمَا فَخَفَضَ عَيْنِيهِ. رَفَعَ عَيْنِيهِ ثَانِيَةً فَرَأَى
الْمَرَضَ الضَّخْمَ الْوَاقِفَ خَلْفَهَا وَالَّذِي كَانَ يَرْمِقُهُ بِنِظَرَاتٍ لَزِجَةٍ بَارِدَةٍ.

لَحْظَاتٍ وَأَنْصَرَفَ الضَّابِطُ الشَّابُّ وَمُرَافِقَتُهُ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ جَنْدِيٍّ
هَزِيلٍ، وَالْمَرَضُ الضَّخْمُ وَالطَّبِيبَةُ الْهَادِئَةُ الْمُبْتَسِمَةُ. انْتَبَهَ لَصَوْتِهَا لِلْمَرَّةِ
الْأُولَى، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَيْهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى مَقْعَدِ جِلْدِيٍّ أَمَامَ مَكْتَبِهَا. جَلَسَ
وَلَا حَظَّ الْمَرَضُ الَّذِي تَحْرُكُ لِيَجْلِسَ أَمَامَهُ، وَالْجَنْدِيُّ الصَّغِيرُ الَّذِي ظَلَّ
وَاقِفًا يَرِاقِبُ الْجَمِيعَ بِتَحْفِزٍ.

وَقَالَتْ لَهُ الطَّبِيبَةُ وَابْتِسَامَتِهَا الْعَذِيبَةُ لَا تُفَارِقُ شَفَتَيْهَا الرَّفِيعَتَيْنِ:

-أَسْمَى هِيَ الدَّكْتُورَةُ سَحَرٌ. أَنَا هُنَا أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ الْمَسْمُوكِينَ عَنْكَ خِلَالِ
تَوَاجُدِكَ بِالْمَصْحَةِ. لَكِنِ فِي الْبَدَايَةِ أَخْبَرْنِي، مَا اسْمُكَ؟

أَرَبَكْتَهُ ابْتِسَامَتُهَا وَنِظَرَتُهَا الْمَحَايِدَةَ الَّتِي خَلَّتْ مِنْ الشَّفَقَةِ أَوْ الْإِهْتَامِ. لَكِنَّهُ
أَجَابَ بِبَطْءٍ دُونَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ:

-أهلاً بك يا عماد. وماذا كنت تعمل قبل أن تأتي إلى هنا؟

-كنت مهندساً في شركة اتصالات.

-اتسعت إبتسامتها المشجعة ولبعت عيناها. وهي تردد:

-أنت مهندس إذاً؟ هذا يعني تعليمٍ راقٍ وعقلية علمية.

لم يُعقِب قواصِلت ..ينها:

-هل تعلم لماذا أنت هنا؟

توتر ثانية ونظر إليها بحيرة وهو يتساءل لماذا تسأله سؤالاً تدرك حتماً إجابته. هل تسأله لثريته، أم تسأله لتتأكد، أم تسأله لغرضٍ آخر خفي لا يعلمه. قرر الصمت فعادت لتقول بإصرار:

-لم تُجِبْ سؤالٍ. هل كان سؤالٍ مُزعِجاً؟

-أنتِ تعلمين لماذا أنا هنا. لا بد أنهم قد أخبروك..

-لا يهمني ما قالوه ولا ما تقوله الأوراق. أريد أن أسمعك أنت..

تهبط بخفوت قبل أن يجيب بصوتٍ خافت ورأسه مُطرقٍ لأسفل :

-إنني مهتم بقتل أمي؟..

قالها وثبَّت عينيه على وجهها ليرى رد فعلها. ظلت إبتسامتها الندية على وجهها دون أن تتعكر. وقالت حينها مهدوء:

-وهل فعلت هذا حقاً؟..

-وهل ستصدقيني لو أخبرتك بالحقيقة؟..

-يمكنك أن تجربني. لن تتخيل أبداً مدى اتساع أفقي ومدى قابليتي لتصديق أي شيء؟..

-أنا لم أفعل. أقسم على هذا، لكن لا أحد يريد تصديقي..

-وهل تعلم من فعلها إذاً؟..

ابتلع ريقه بصعوبة وازداد اضطرابه وأجاب:

-ليتني أعرف. كان السيِّئُ في يدها، وفي اللحظة التالية كان مُغلَقاً في الهواء ثم طُعِنَتْ به. الأمر كله صعب التصديق. لقد كان هناك من يستحوذ على جسدها من الجان أو الشياطين، وكانوا هم من قتلوها وليس أنا.

-هل يعني هذا أن الشياطين التي استحوذت على جسدها هي من قتلها.

شعر بالإرتباك ثانية..فخفض رأسه وغمغم بخفوت:

-أعلم أنك لم تصدقيني.

-ومن قال أنني لم أفعل. إنني أَخَذْتُكَ لأعلم الحقيقة، وأنت لست هنا كي نُكذِّبُكَ أو نهمك بشيء. أنت هنا لنستمع إليك ونساعدك.

صمت عماد بتردد، ولم تفلح إبتسامتها الهادئة في إزاحة توتره ثانية كما فعلت بالبداية، قرأت الدكتوراة سحر هذا على وجهه فهضمت من مكانها، وقالت مهدوء:

هو الآخر بالجلد وفي أحد الأركان كان هناك باب خشبي منخفض يؤدي إلى ما يشبه الحمام. واقترب منه الممرض وهمس في أذنه ساخراً:

-هل أعجبتك حجرتك؟! إنها خمس نجوم كما ترى!..

لم يفهم عماد لماذا يُحَدِّثُهُ هذا الممرض الضخم يمثل هذه السخيرة، فلاذ بالصمت، وهو يتحاشى النظر اليه. لكن الممرض لم يتركه وشأنه، وأكمل هامساً:

-هل تريد رأيي؟. أنت لست مجنوناً، ولن تُفْلِحَ في ادعاء الجنون لتفعلت من فعلتك الشنيعة. لو كنت ذكياً لفكرت في حيلة أخرى لثُفِّلَتَ بها من حبل المشنقة غير ادعاء الجنون. أنت سليم يا رجل وهذا ما سيثبتته التقرير النهائي عنك

مرة أخرى شعر عماد بالإرتباك من تلك اللهجة العدائية التي يحدثه بها ذلك الممرض المأفون. إنه لم يات بجديد حين أخبره أنه ليس مجنوناً. إنه بالفعل سليم وعاقل ربما أكثر من هذا الممرض نفسه، ولولا شهادة الدكتور محمد شاهين ضده لما كان هنا الآن. وجد نفسه يشعر بالحنق ثانية على الدكتور محمد شاهين وعُضَّ على شفتيه بغيظ وتمنى لو ينتقم منه يوماً. وعاد الممرض ليتحدث إليه ببرودة:

-إنني الممرض المسئول عنك بصورة أساسية. ساكون دوماً بجوارك لأراقبك وسأكتب تقارير وملاحظاتك عنك ليعلمها الأطباء، صدقتى لن يكون تقريرى في صالحك أبداً. من سوء حظك أنهم هنا يثقون بى وسيؤيدون حتماً ما أكتبه عنك. إننى أخبرك بهذا لأنى أكرهك. أنا أفهم أى شىء غير أن يقتل المرء أمه، ولهذا لا أتعاطف معك ولا أحبك.

امتثلت نفس عماد بالغيظ من هذا الممرض الكرهه وغالب نفسه كي لا يلكمه فى أنفه ليتوقف عن هراءه. وقال مُحَاوِلاً أن يبدو غير مكترث بما يسمعه :

-حسناً. هذا يكفى اليوم، كما تعلم فسوف تمكث هنا لبعض الوقت، وسوف يكون بينا الكثير من الحديث. لكن حكيم سيصطحبك الآن إلى حجرتك لتسترىح قليلاً.

قالها وهى تشير الى الممرض، فنهض على الفور، وأشار له وللجندي قائلاً :

-هيا بنا.

تقدمهما بثبات ولم يلتفت إليهما وهما يتبعانه ويسيران بين الممرات المداخله. كان هناك الكثير من العيون التى ترمق الموكب الصغير دون وقرب. ومن حين لآخر كانت هناك بعض الأصوات تبعث من خلف الجدران. خرجوا إلى الحديقة، واتجهوا نحو مبنى واسع محاط بسور طويل. وصلوا بوابته الحديدية، وكان هناك أحد العساكر حاملاً سلاحه بترأخ. خيَّاهُ الممرض حكيم وتبادلا حديثاً هامساً، وهو يشير بإصبعه نحو عماد قبل أن يفك العسكرى الأقفال الضخمة، ويفتح الباب..

دخلوا المبنى الذى اتخذ شكل مستطيل ذو ضلع ناقص، ورأى عماد يافطة كتب عليها (أ رجال) فاتجهوا إلى مرآتهم، بدا المكان أكثر ظلاماً بالأضواء الشاحبة التى تبثها لمبات النيون المثبتة الى السقف المرتفع، وبدا الهواء راكداً بارداً. ومن الناحيتين كان هناك عنابر وحجرات بأبواب معدنية غليظة وقضبان حديدية كتيبة ثبت اليأس فى النفوس التى يراودها الأمل. ثم توقفوا أمام حجرة كتب عليها (5)

فتح الممرض باباها وتقدمهم للداخل، ثم توقف فى منتصفها وعلى شفتيه ابتسامته الباردة. كانت الغرفة عجيبه بعوانطها المُبْطَّنَة بالجلد وسقفها المرتفع والذى تتحرك فيه مروحة عتيقة فى حركات خفيفة لاتتحرك من الهواء ساكناً، كما رأى كاميرا رقمية مثبتة فى السقف يستخدمونها حتماً لمراقبة المرضى. كانت الحجرة خالية من الأثاث إلا من فراش مبطن كله

شعر بالجوع وبدا الأمر أنه لا أحد قد انتبه الى وجوده منذ الصباح. كان النهار قد أدبر، وأقبل الليل دون أن يأتيه أحد من الأطباء أو الممرضين.. راح يتحرك بعصبية وقد أَرْقَهُ الجوع وبدأت أمعائه في التلوى والتقلص احتجاجًا. رفع رأسه نحو الكاميرا وفَكَّرَ في أن يُخَدِّثَ من يراقبه، لكنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة. ربما كان حكيم هو من يراقبه الآن، وربما كان مستمتعًا وهو يراه جائعًا متوترًا، وحتماً سيسرُّه أن يبرجوه عماد ليجلب الطعام له.. قبع في ركن الغرفة الفُرْصَاء، وأخفى وجهه بين قدميه، وراح يتشاغل عن الجوع التفكير في مصيبته. جاءه الألم والشجن على الفور كأنما كان بالإنظار. أقبلت أمه من ثنايا ذاكرته بنظراتها اللائمة.. تلك النظرات التي اعتادت أن ترمقه بها حين يُخْطِئ، ولا ترضى عنه. عاد ليبيك. إنه لم يقتلها، لكنه عجز عن مساعدتها حين حدث لها ما حدث.. عجز عن منعها من إيذاء نفسها.. ولم تفلح محاولاته في تخليصها مما آلَمَ بها..

طفًا على سطح ذاكرته وجه آخر فانهمرت دموعه أكثر حتى كاد ينتحب.. راح يفكر في "مى". هل تراها صَدَّقَتْ ما يُقَالُ عنه؟. لم يتحدث إليها بعد الحادث، والمرة الوحيدة التي رآها فيها كانت في المحكمة تبيك وقد ذبلت ونحلت. هذه المرة لن تفلح محاولتهما وإصرارهما في أن يظلا سوياً. لقد أنتت النهاية، وليس هناك بصيص أمل في آخر النفق المظلم الذي صار حبيسه.

كل شيء ضده ولا أحد يصدقه. لو قرر الأطباء أنه سليم -وحتماً هذا ماسوف يحدث- فسيخرج من هنا، ليحكم القاضي عليه حكماً قاسياً بلا شك.. يعلم أنه لن يُعْذَمَ في قتل أمه، لكن هذا لا يمنع أن يُحكم عليه بالموءب.. ولو قرر الأطباء أنه مريض كما ادَّعى الدكتور محمد شاهين، فهذا

-يمكنك أن تذهب الى الجحيم ..!

بدأت الدهشة للحظة على وجه الممرض وكأنه لا يتوقع تلك الإجابة. لكنه تمالك نفسه بسرعة، وعاد ليرسم ابتسامته الباردة وهو يقول ببطء يحمل الكثير من الوعيد:

-لست أنا من سيذهب إلى الجحيم حتماً. إن الجحيم الوحيد الحقيقي هو هذا المكان لو كنت تعلم. وأعدك أن تصطلي بناره كثيراً، فلا تتعجل!.

ثم أشار بإصبعه نحو الكاميرا المثبتة بالسقف وقال:

- هذه الكاميرا هنا كي نراقبك دومًا، كي لا تؤذي نفسك، أو تفكر في الإنتحار. لكنك لو وجدت وسيلة ما للإنتحار، وكنت أنا من يجلس خلف الكاميرا حينها، فلن أَهْبَ لنجدتك ولن أَدْخُل. افعلها بارجل واقتص من نفسك وأعدك أن أحترمك ثانية.

قالها حكيم واندفع نحو الباب مُغَادِرًا يتبعه الجندي، جلس عماد على طرف الفراش الجلدى، وراح يفكر في الأيام العصبية المقبلة. شعر بالتوتر من اللهجة العدائية التي حدثه بها حكيم الآن، لم يفهم لماذا يعامله هكذا. هل يكرهه لأنه يعتقد هو الآخر أنه قد قتل أمه.. لكن ما شأنه بهذا.. وما أدراه أن هذا ما حدث، يبدو أن الأيام القليلة القادمة ستحمل الكثير له..

رمى الكاميرا بلا مبالاة وراح يُعَدُّ لفات المروحة البطيئة المرتفعة محاولاً التشاغل عما يدور في عقله ويكاد أن يصيبه بالجنون.. أئى ذنب يا ترى اقترفه ليقع في هذا الشُرْك؟..

وتواصلت حيرته بلا نهاية

قد يعنى أن يمكث في المستشفى إلى حين غير معلوم، لكنه حين يغادر الصحة بعدها، فسيظل موصوّمًا بالجنون. شعر بالتية والتخيظ وبدأ دوار عنيف يحيط برأسه ويزعجه. أ يكون هذا من أثر جوعه الطويل، أم هو من التفكير في حاله والذي لا يكل عقله عن تذكره..

تناهى إلى مسمعه الأصوات التي تتردد في الردهة بالخارج مقترية من حجرته. توقفت الأقدام أمام باب حجرته وسمع المزلاج وهو يتحرك قبل أن يفتح الباب، و يُطلّ منه وجّة جديده غليظ أسمر، يراه لأول مرة. كان مُمرّضًا هو الآخر، مميّزًا من ملابسه البيضاء ومن البطاقة الملونة الملتصقة أعلى صدره، وعليها صورته ومطبوع عليها اسمه. جمال محمود. كان يحمل في يديه صينية عليها طعام.

وضع الممرض صفيحة الطعام فوق القراش وقال له بخشونة:

-تناول طعامك بسرعة لنغادر الغرفة.. الدكتور أسامه يرغب في أن يراك الآن.

قالها وتوقف بجوار الباب وهو يراقبه ببرود. تقدم عماد نحو الصينيه ورفع غطاها. كانت تحوى حساءً باردًا وقطعة صغيرة من اللحم وبعض الأرز. كان مذاق الطعام سيئًا، لكنه ظل أفضل من طعام السجن. راح يأكل على مهل، لكن جمال تلمل وهتف به بنفاذ صبر:

-أخبرت أن تُسرّع يا هذا. ليس أمامنا اليوم كله. وهناك ما أقوم به غير الإهتمام بك.

هنا اكتفى عماد بما تناوله، وأزاح الصينيه جانبًا وغمغم:

-لقد انتهيت.

-إدًا هيا بنا..

قالها جمال وأمسكه من ذراعه وقاده للخارج. بدت السماء مظلمة صافية وقد خلت من القمر وامتلات بالنجوم وتحركت نسمات باردة منعشة فتتنفسها عماد بشوق وعمق. كانت الطرقات التي تتخلل حديقة المستشفى خالية من المرضى، وساكنة لا يقطعها غير همسات بعض حشرات الليل وصفيرها. انتهوا الى مبنى آخر غير الذى دخله عماد في الصباح وساروا في طرقات أضواها ساطعة وعلى جانبها تراصت بعض عنابر المرضى المغلقة بالأبواب الحديدية والتي أظلمها الصمت الآن وقد خلد المرضى جميعًا للنوم. انتهى الممر الطويل الى طرقة جانبية ساروا بها ومنها إلى حجرة في النهاية دلفوها..

كانت الحجرة واسعة رحيبة، رقدت في منتصفها مكتب ضخم مُغلّف بالجلد، جلس خلفه رجلٌ نحيلٌ أزاح الصلح الشعر من مقدمة رأسه، وقد اشتعل جانبي رأسه شيبًا. كانت لديه لحية خفيفة حول وجهه النحيف وكان يرتدى نظارة مربعة ضخمة أخفت نصف وجهه تقريبًا. وبين أنامله استكانت بقايا سيجارة تحتضر وقد عبقّت الغرفة بكمية هائلة من رائحة ودخان السجائر. بدأ عصبيًا وبدت ملامحه وخلجاته مشدودة كوتر قوس.

قدّمه جمال للطبيب العصبى، فمز رأسه ببطء ورفع سيجارته المُخَضَّرَة نحو شفتيه، وسحب منها نفسًا أخيرًا حبسه في صدره للحظات قبل أن يطلقه ببطء، وعيناه تتفحصان عماد بنظرات نافذة، قبل أن يشير إليه قائلاً ببطء ورتابة:

- يمكنك أن تجلس.. اسمك عماد، أليس كذلك؟.

تحرك عماد ببطء نحو كرسي جلدى أمام المكتب وجلس عليه وهو يجيب:

-بلى، هذا هو اسمى.

أشعل الدكتور أسامه سيجارة جديدة بواسطة قداحة ذهبية على المكتب أمامه وأطلق من فمه وأنفه أنفاسها الأولى نحو عماد، وقال :

-هل يُضَايِقُكَ أن أدخن يا عماد ؟..

لم يُجب عماد واكتفى بهز رأسه ببطء نافيًا.. فأكمل الدكتور أسامه :

-حسنًا دعني أخبرك بسرٍ صغير. إنني لأحب الدكتور محمد شاهين هذا، ولا أثق به، بل وأرى أنه قد فقد عقله بذلك الهراء الذي يهتم به من الخوارق وغيرها. تستطيع أن تقول أنني أراه دجالًا أفاقًا، ولا يصلح أبدًا أن يكون عالمًا أو طبيبًا نفسيًا محترمًا، ولهذا فانا لا أهتم بما ذكره في المحكمة عنك ولا أعتد بتشخيصه

خفق قلب عماد توترًا، ورفع عينيه متأملًا الطبيب الكهل الذي أكمل بعد أن سحب نفسًا آخر من سيجارته ثم زفّره:

-هل تفهم ما يعنيه هذا؟، سوف أخبرك. أنا لا أراك مريضًا نفسيًا كما زعم، ولا أصدق ما تخبر به الجميع من أن شخصًا خفيًا هو من طعن أمك. هناك سبب بالطبع لاعتقادي هذا، وهو ببساطة أنني لا أؤمن بالاشباح أو العفاريت أو غيرها. فحتى لو كانوا موجودين فعلاً فلم يصلوا حتمًا للتفاهة لهيموا بقتلنا وإزعاجنا.

تصاعد التوتر في نفس عماد ووجد نفسه يقول بصوتٍ مخنوق :

-إنني لا أكذب. كما أنني لست مريضًا ولا أدعي المرض. إن ما أقوله هو ما حدث بالفعل رغم عجزى عن إثباته.

ابتسم الدكتور أسامه ابتسامة باردة وهزّ كفه الممسكة بالسيجارة لينفض عنها بعض الرماد في مطفأة السجائر التي أمامه وقال:

-لقد طالعت ملفك الذي أرسلوه من المحكمة. لو كان ما به دقيق فأنت ها هنا لأنك مُنْهَمٌ بقتل أمك، وقد زعم الدكتور محمد شاهين أنك كنت مريضًا تعالج لديه، وأرسلتك المحكمة الى هنا لكي تؤكد هذا أو نفيه .. أليس هذا صحيحًا؟..

بدت لهجة الدكتور أسامه جافة تفتقد للود الذي كَلَّمْتَهُ به الدكتور سحر في الصباح. كان عصبيًا وبيد يده المعروقتان ترتعشان كلما اندفع في حديثه. لم يجبه عماد وهو لا يدرى ماذا يقول له، فأطرق رأسه نحو قدميه، وصمت.. بعد لحظات تكلم الدكتور أسامه ثانية يعد أن أنهى سيجارته :

-أخبرني يا عماد.. هل قتلت أمك حقًا؟..

سؤال ممل يتكرر بلا توقف من الجميع. ولا مفر أمامه من إجابته كل مرة..

-إنني لم أقتلها.

-هذا يعنى أن أحدًا آخرًا قد فعلها. فهل تعلم من يكون؟

-لا أعلم. لكنني لم أقتلها.

هز الدكتور أسامه رأسه بلا معنى، وهو يهمهم همهمات مُهْمَةً، وعيناه تتأملان وجه عماد وقال ببطء بلهجة محايدة من العسير أن تتبين إن كانت تحمل الجدية أم السخرية:

-إذ ربما يكون شبحًا أو شيطانًا هو من قتل والدتك. هذا ما تخبر به الجميع. أليس كذلك؟.

-لست أدري. إنني لم أرى من فعلها..

-اسمع يا عماد.. لو شئت الحق، فتقريري عنك جاهز في عقلي قبل أن أراك.
أنت سليم يارجل ولا تُعاني من مرضٍ ما. كان عليك أن تخلق شيئاً أكثر
إقناعاً من حكايتك تلك لو شئت أن تنجو. إن الفترة التي سوف تقضيها
هنا لا قيمة لها إلا إزعاجنا في الواقع بالإهتمام بك. ولو كان الأمر بيدي
لأعدت لك للسجن الآن ثانية.

احتشد العرق على جبهة عماد من اللهجة الهجومية التي يحدثه بها
الدكتور أسامه، ووجد نفسه يهتف فيه بصوتٍ حاول أن يجعله حاداً
متماسكاً:

-إنني لا أختلق أي شيء ولا أكذب يادكتور. لا يهمني تصديقك من عدمه.
إنني لست مريضاً ولم أرغب أن أتى إلى هنا بإرادتي. أعدني إلى سجنى حالاً
وساكون شاكراً لك لو فعلت، لكن أرجو أن تكف عن هجومك هذا، فأنا
أشعر بالغثيان منه ومنك.

اتسعت ابتسامة الدكتور إسامه وأشار لجمال الذي كان يراقب ما يحدث
باستمتاع:

-إذا أعدده لعنبره يا جمال. يبدو أن ضيفنا قد ملَّ مئاً سريعاً، وما هو
بهاجمنا.

تصاعد الحنق والغضب في نفس عماد وتمنى لو يسهه، وقد عقد الغضب
لسانه. جذبه جمال للخارج وسار به بين الممرات بخطواتٍ أقرب للهرولة.
كان الغضب يتصاعد في أعماقه هادراً كزلزال عنيف وكان يشعر بالمرارة
لأنه ذلك الكهل القمئ قد كدَّبُه وعامله باحتقار. تمنى لو قهر عجزه وردَّ
عليه أو سبَّه أو حتى بصق عليه. ربما لشعر بالراحة لو فعل.

كانوا يسرون بجوار العنابر الصامتة المظلمة حين اصطدم جسدٌ ما
بالباب الحديدى المغلق -لأحد العنابر- فتردد صوت الإرتطام مكتوماً.

ارتجف عماد للحظة وكذلك الجندي الشاب بينما تحرك جمال نحو الباب
الذي صدر الصوت منه ليرى ما يحدث. في اللحظة التالية أطلَّ وجهٌ نحيل
أشعث الشعر واللحية من نافذة الباب ذات القضبان الحديدية، وبدأ على
وجهه الهلع والجنون، وعيناه تتحركان في كل اتجاه كأنما يبحث بها عن
عُدُو أو خطري خفي يطارده، ثم توقفت عيناه على عماد وصاح فيه برعب:

-أنت. إنه أنت أيها البائس. إنهم يتبعونك! ألا تشعر بهم؟!

شعر عماد بالدهشة لأنه يناديه، وبادله نظرة متوترة وكاد أن يرد عليه،
لولا أن سبقه جمال الذي هتف في الرجل العجوز زاجراً:

-ابتعد عن الباب يا بدوى وعد لفراشك. إنه وقت نومك. هيا أيها الأحمق
عد لفراشك وأصمت.

لكن بدوى لم يُعِرَ اهتماماً وعاد ليهتف بلهجة أقرب للهذيان والجنون:

- إنه خلفك يبحث عنك ليصل إليك. إن لم تتخلص منهم فسوف
يتخلصون منك. سوف يصطحبونك معهم للجحيم. إذا أردت أن تتخلص
منه فابحث عنه. إنه ينتظر. إنه دوماً ينتظر، لكنه في النهاية هو من
ينتصر.

أصاب عماد الذهول مما يسمعه ولم يفهم ما الذي يعنيه بالضبط.. كان
طبيعياً أن يعتقد في تلك الكلمات الجنون وألا يُعِرَها اهتماماً.. لكن
إحساساً مُهِمّاً في نفسه دفعه للإهتمام بما يقوله العجوز المجنون هذا،
فاقترب من النافذة المغطاة بالقضبان الحديدية، في نفس اللحظة الذي
صاح فيها جمال في بدوى بعصبية وهو يخط على الباب بيديه:

-أخبرتكَ أن تأوى لفراشك أيها الأحمق.. عد لفراشك وإلا عاقبتك.

تقهقر الرجل حينها نحو الظلام بالداخل في نفس اللحظة التي تحدث فيها عماد إليه:

-ما تقصد يا هذا. من الذى يلاحقنى. لست أفهم ما تقوله.

جاوبته ضحكة مجنونة من الداخل وبدأت همهمات بالداخل تتعالى بالداخل من أفواه المرضى النيام الذين أزعجهم هذا الصراخ بلا شك، في نفس اللحظة التي جذب فيها جمال عماد من ذراعه وهو يتعد به عن المكان..وقال عماد لجمال والحيرة والدهشة تنهشه:

-من هذا ولماذا يُخَيِّئُنِي هكذا ؟..

لكن جمال لم يهتم بإجابته واكتفى بالردّ عليه ببرود ومازال يجذبه من ذراعه:

-إنه عجوز مجنون يهذى مثلما يفعل الجميع هنا في كل لحظة. لقد كان يعبث بك وكلماته لا تعنى شيئاً.

كان الردُّ منطقيًا لكن عماد لم يشعر بأن الجواب هو ما سمعه..بل شعر أن هناك سرًا ما في قول ذلك الرجل له..وصل إلى عنبره وتركه جمال وما زال يفكر بلا انقطاع في ما قاله الرجل

-ابحث عنه لتتخلص منه

ما الذى يعنيه بهذا ؟..

(4)

كان نومه مُضطربًا تغلله الكثير من الأحلام والكوابيس. رأى أمه غارقة في دمانها وتشير اليه بالسكين الذى مانت به وتحديثه بلهجة غامضة أثارت رعبه دون أن يدرك ما الذى تريده منه. ورأها في كابوس آخر وقد نما لها ذيلٌ طويلٌ وانبثق من جانبي رأسها قرنان صغيران وهى تُرَدّدُ بجنون.

-ابحث عنه وحرره. ابحت عنه وحرره.

ثم جاء ذلك الرجل المجنون المدعو بدوى وهو يرتدى هذه المرة بالطو الأطباء الأبيض، وقد وضع سماعة طبية حول رقبته وأشار لأمه بإصبعه بوقار وقال:

-إنها مجنونة ولن يشفها إلا الصدمات الكهربائية وإلا أكلتنا جميعًا.

قالها وراح هو الآخر يُطلق ضحكات مجنونة وهو يعدو مبتعدًا.

أفاق من هذا الحلم، ولاحظ ضوء النهار المبكر المتسرب من النافذة المرتفعة الملاصقة للجوار. جلس على الفراش لاهئًا ومسح بيده العرق الغزير المحتشد على جبهته رغم الهواء الخفيف الذى ترسله المروحة المرتفعة. قرر أن يظل يقظًا وألا ينام ثانية، وعاد لأفكاره وهو أجسه..

وبعد ساعات دخل عليه حكيم..كان يحمل إفطاره وابتسامه لزجه متشفية، على وجهه، وبادره فور أن رآه:

-علمت ما حدث بينك وبين الدكتور أسامه بالأمس. لقد كشف الرجل حيلتك من أول وهلة. أستطيع الآن أنؤكد لك أنك عائد لسجنتك لا محالة.

لم يلتفت إليه عماد وحاول تجاهله. بكفيه ما يعانیه. لكن حكيم لم يتركه وشأنه كعادته، واستمر في استفزازه:

-إن الدكتور سحر ترغب في أن تترك فور أن تنتهى من إفطارك. بالمناسبة، لا تُعَوِّل على معاملتها الرقيقة كثيرًا، إنها لن تُنْقِذَكَ من مصيرك. إن الكبار ها هنا هم من سيحكمون عليك في النهاية. وعليك أن تستعد لارتداء البدلة الحمراء من الآن.

لم يتمالك عماد نفسه في هذه اللحظة فترك طعامه، بل وأخرج من فمه لُقْمَةً كان يلوکها وألقاها في الصينية بحقن والتفت إلى حكيم صانعًا في وجهه مُخْتَنِدًا :

-ماذا بك يا هذا، وما شأنك بي؟ اتركنى لشأنى ولا تتدخل فيما لا يعينك.

-ومن قال أننى افعل. إننى فقط أخبرك بما سوف يحدث.

شعر عماد بشهيته تفارقه، فآزاح الطعام من أمامه حائفًا، وهتف بغیظ:

-لن أكل ما دمت أمامى.

-هذا شأنك.. لكن ما دمت لن تأكل فدعنا نذهب للدكتورة سحر.

تحركا سويًا للخارج ولحقهما أحد جنود الحراسه.. كانت الحياة قد عادت ثانية للطرقات والعنابر وارتفع الصخب وانتشر المرضى والمريضین. رمقهم بعض العيون بفضول، وبينما انصرفوا نحو المبنى الذى استقبلته فيه الدكتورة سحر في المرة الأولى، أبصر عماد الرجل العجوز الأشعث المدعو بدوى. كان جالسًا في ظل شجرة بلوط ضخمة وقد أسند ظهره على جذعها الضخم. أبطأ حينها في سَيرِهِ قليلًا وحبس أنفاسه بترقب مُنتَظِرًا أن يُكَلِّمَهُ الرجل. لكن الرجل اكتفى بأن نظر إليه للحظة، ثم صرف عينيه عنه نحو الفضاء بلا أى تعبيرٍ ما على وجهه كأنه لا يعرفه. تجاوزوه وعماد

يفكر في ما فعله الرجل بالأمس ولا مبالاته الآن. ربما كان جمال الممرض مُجْعًا في زعمه أن ما قاله له بالأمس لا يعدو هذيان مجنون ولا قيمة له. كانوا قد بلغوا المبنى حينها ووجد عماد في نفسه رغبة مُلِحَّةً لأن ينظر للخلف نحو بدوى. التفت برأسه فوجد عيون الرجل تنظر نحوه بثبات. دخل المبنى وهو متأكد أن الرجل كان يراقبه. تَرَى ما سِرُّ هذا الرجل هو الآخر؟..

وصلوا مكتب الدكتورة سحر. وخلف المكتب المُبْتَنُّ بالجلد جلس رجل متوسط القامة خفيف الشعر، يرتدى نظاره كبيرة هو الآخر. بدا أن عمره تجاوز الخمسين ببضع أعوام، وكان يرقبه بعيون ضيقة ووجه أبيض حليق به بعض التجاعيد المتكاثفة حول فمه وعينيه. بينما جلست الدكتورة سحر على مقعد أمام المكتب. نهضت حين رآته فشاهد على وجهها تلك الإبتسامة الحلوة التى رأها بالأمس. ووجد نفسه مرة واحدة يدرك لماذا علقت في ذهنه هذه الإبتسامة. كانت تشبه ابتسامة مئى التى كانت تمنحه إياها حين تُكَلِّمُهُ أو تراه. كم كان يعشق تلك البسمة وينتظرها. تحدثت الدكتورة سحر مُخَرِّجَةً إياه من أفكاره:

-مرحبًا بك يا عماد.. أخبرنى كيف حالك اليوم، وهل نمت جيدًا بالأمس؟

غمغم ومازال واقفًا بجوار حكيم :

-الحمد لله.. إننى بخير.

-إذًا لماذا تقف هكذا بعيدًا. تعال وأجلس هنا أمامى.

تحرك نحو الكرسي الجلدى المقابل لها وجلس عليه، فأكملت وهى تشير إلى الطبيب القابع خلف المكتب:

-هذا هو الدكتور أحمد دياب. إنه أحد أساتذتنا ها هنا وهو أحد الأطباء المسؤولين عنك. هل تحب أن تتحدث إليه أم أن هذا يزعجك؟.

نظر للدكتور أحمد الذى يتطلع إليه بهدوء راسماً ابتسامة مريحة على وجهه تختلف تماماً عن تلك التى منحها الدكتور أسامه إياها بالأمس، فقال:

-لا بأس يا دكتورة. أنا تحت أمره

هنا تكلم الرجل للمرة الأولى. كان صوته رقيقاً بعض الشيء. وقال له بهدوء:

-حسنًا يا عماد. عملت كمهندس اتصالات فى شركة اتصالات. أليس كذلك؟

-بلى..لقد كنت كذلك

-أخبرنى عن عملك. هل كنت تحبه؟ وهل كنت تحب زملائك فيه؟..

-نعم. كنت أحب عملى وأحب زملائى.

هزَّ الرجل رأسه حينها بتفهم وغمغم مُعْتَبِراً:

-هذا جيد..فى الواقع من الرائع أن يعمل المرء فى عملي يحبه، وأن يحب من يعمل معه. إننى مثلك تماماً أحب العمل ها هنا كما أحب زملائى. هذا يريح النفس حقاً. لكن دعنى أسالك سؤالاً شخصياً. هل كنت كنت على علاقة بفتاةٍ ما؟

شعر عماد بالحرج ولم يدر ما علاقة هذه الأسئلة بوجوده هنا، ولاحظ بطرف عينيه الإبتسامة الباردة للزجة على وجه حكيم ونظرة الترقب البادية على عينيه الزرقاوين الباردتين كالثلج. فعاد يلتفت الى الدكتورة سحر التى ما زالت تبتسم إليه وهزَّت رأسه له مُشَجَّعة فأجاب:

-كنت مرتبطاً بزميلة لى وكُنَّا على وشك الخطوبة.

-وكانت والدتك على دراية بالأمر بالطبع

-نعم. كانت تعلم بالأمر

-وماذا كان رأيها فى تلك الفتاة؟.

جال بعقل عماد أن الرجل يمارس لعبة ما بأسئلته تلك. هل يعتقد أنه كان على خلاف مع أمه لأنها لم تقبل ارتباطه بحبيبته ولهذا قتلها. هنا قال بجدة:

-لو كنت تعتقد أن أمى كانت ترفض ارتباطى بفتاتى فهذا لم يحدث. لقد كانت أمى تحبها وتبارك زواجى بها.

اتسعت إبتسامة الدكتور أحمد وخلع نظارته بإحدى يديه ووضعها أمامه على المكتب وهو يُجيب:

-أنا لم أقصد بأسئلتى أن أصل لأىِّ شىء. أننا نتحدث سوياً فحسب

هنا تدخلت الدكتورة سحر فى الحديث وقالت:

-انظر يا عماد. نحن هنا لسنا جهة تحقيق معك. ولا يهمنا أن نصل لاعتراف منك أو حتى نفى التهمة عنك. نحن هنا على الحياد تماماً. كل ما نبحثه فعلاً، هو أن نتحقق من حالتك النفسية وندرسها، والدكتور أحمد يفعل هذا بأسئلته تلك.

انتقلت عينا عماد بينهما بتوتر قبل أن يُخفض رأسه ويقول بصوتٍ أقرب للهمس:

-حسنًا. يمكنكما أن تكملًا.

ران الصمت للحظات قبل أن يتحدث الدكتور أحمد ثانية:

-هل عانيت من قبل من مرضي نفسيّ ما أو حتى نوبة اكتئاب صغيرة مثلاً.

-لم يحدث هذا أبداً.

-ولا تشنجات أو إصابات بالرأس؟

-كلا..

-وماذا عن علاقتك بأهلك. هل يمكنك أن تشرح لي كيف كانت. أعني هل كنتم على وفاق أم كنتم تختلفان أحياناً كما يحدث معنا جميعاً؟

-أعتقد أن ما يربطني بأمي كان قوياً. لقد مات أبي وأنا صغير ورَفَضْتُ أن تزوج بعدها من أجل ومن أجل أختي.

-لقد قلت أن أمك كانت ممسوسة بالجان. كيف عرفت هذا؟

-هذا ما حدث. لقد تغيّرت فجأة، وبدأت في فعل أمور مخيفة. ولقد رأها بعض الشيوخ الذين يفهمون في تلك الأمور، فأكدوا لي أن هذا مسّ شيطانيّ؟

-وذلك الجيّ الذي استحوذ عليها هو من قتلها برأيك؟

-لست أدري..

رفع الدكتور أحمد حاجبه الأيمن حينها ومال نحوه عبر المكتب وقال:

-إذا من فعلها. لقد كانت شاهداً على ما حدث، وأنت الوحيد إذا الذي يعرف قاتلها.

-لست أدري.. أقسم أنني لست أدري

شعر الدكتور أحمد أن هذا يكفي هذه المرة. فرسم ابتسامته الهادئة ثانية على وجهه، وقال وهو يعيد ارتداء نظارته ثانية:

-حسناً يا عماد. إن هذا يكفي اليوم، إنني أشكرك كثيراً لتعاونك هذا.

لم يُعَقِّب أحمد فأشارت الدكتورة سحر لحكيم أن يعيد عماد لحجراته ثانية فانصرف به. هنا قال الدكتور أحمد لها:

-مارأيك يا دكتورة سحر؟..

-أعتقد أن علينا ألا نتعجل في إصدار أحكامنا عليه. لكنني لا أظن أنه يشكو من شيء ما في هذه اللحظة. ربما عانى وقتها من ذهان لحظي حاد Brief psychotic disorder, or brief reactive psychosis إن الأعراض هنا بالفعل، هناك الضلالات التي يؤمن بحدوثها، وهناك المؤثر القوي الذي ربما أدخله في هذه الحالة والذي ربما يكون موت أمه.

هزّ الدكتور أحمد برأسه موافقاً على ما قالته، وغمغم:

-أعتقد أنك مُجَقَّة. ربما هذا ما حدث بالفعل. في النهاية ما زال هناك شهران لنلاحظه لنتيقن من حالته. علينا بالفعل ألا نتعجل الحكم عليه كي لا نخطئ.

ولاحظت سحر الإضطراب في عينيه

(5)

مضت عشرة أيام على وجود عماد بالمصحّة النفسية.. كان عليه كل يوم أن يقابل الدكتورة سحر أو أحد الأطباء المسئولين عنه ليتحدثوا إليه ولينشوا ذاكرته ومكنون نفسه. كما اعتاد في كل يوم أن يرى "بدوي"

واقفاً أو جالساً بمكانه الدائم تحت شجرة البلوط الضخمة وهو يراقبه من بعيد دون أن يحدثه. لكن الرجل غريب الأطوار فعل هذا اليوم شيئاً مختلفاً.

كان قد ذهب بعد الظهر إلى مكتب الدكتور أشرف، أحد الأطباء الذين يراقبون حالته. وحين انتهى الطبيب منه سار برفقة حكيم عائداً لعنبره، هنا رأى بدوى يهرول فجأة نحوهم، وقد ارتسم على وجهه الكثير من الذعر والجنون، وما أن وصل إليهم حتى صرخ في وجهه وهو يدور حوله بجنون:

-احترس منه. لقد وصل إلى هنا. ولقد رأيته. ألا تشعر به. إنه حولك في كل مكان.

تجمد عماد في مكانه كالضنم، وإذا بحكيم يلطم الرجل العجوز على وجهه بقسوة غير مُبرَّزة فيتكوم الرجل الهزيل على الأرض ليركله حكيم ويصرخ فيه:

-إبتعد عن طريقنا أيها الاحمق، إياك أن تفعلها ثانية.

شعر بالشفقة على الرجل الذي انكمش في نفسه وراح يزحف على مقعدته مبتعداً وهو يتاوه بألم، فصرخ في حكيم بغضب:

-لماذا ضربته هكذا؟ إنه لم يفعل شيئاً ليستحق هذا العقاب.

لكن حكيم صاح فيه بغلظة وهو يدفعه ليتحرك:

-لا شأن لك يا هذا بما أفعله. أنت لست هنا لتعلمي كيف أتعامل مع هؤلاء المختلفين. اهتم بشأنك فقط ولا تتدخل في عملي.

لاذ بالصمت حانقاً. كان أكثر ما ضايقه في أيامه السابقة بالمصحة معاملة حكيم السيئة له. يحدثه ببرود ويذكره دوماً بالسجن العائد إليه لا محالة. يؤخر طعامه أحياناً، ويعتمد أن يستفزه ويغضبه.

وعاد لحجرتة وراح يفكر في ذلك الرجل المجنون، لماذا اندفع نحوه هكذا وما الذي يحذره منه؟! لقد قال له أنه قد عثر عليه. تُرى ماذا يقصد بقوله هذا.

هل يعلم هذا الرجل المجنون شيئاً ما يجعله الآخرون، أم أن مايقوله هذيان لا معنى له. أرهق التفكير عقله فنام، لكن نومه كان لفترة وجيزة، ووجد نفسه يستيقظ فجأة، وهو يسمع تلك الهمسات المخيفة تُدَوِّي في أذنيه. بدت كثيرة متداخلة، كأنما هناك العشرات ممن يهمسون في أذنه في وقت واحد بلغة لايعلمها. كانت الهمسات مخيفة وأحس وكأنها تنفذ إلى عقله وتؤجج نيرانها فيه. كانت أفعالاً شيطانية. واتسعت عيناه دُغراً وزاغتا في محجرتيهما، وهو يدور بجسده في الحجرة بجنون بحثاً عن مصدر تلك الهمسات المزعجة. حاول أن يسد أذنيه بكفيه، فلم يفلح هذا في كتمانها. أخفى رأسه في الوسادة فلم تختفي، في النهاية وجد نفسه يصرخ بجنون. راح يضرب رأسه في الحوائط المبطنة بالجلد كأنما يرغب في تحطيمها لتفارقه تلك الهمسات. وهو يصرخ بجنون:

-كفى. عليكم اللعنة. اصمتوا وابتعدوا عني. لم أعد أحتمل.

لم تهدأ الهمسات، فظلَّ يخيِّطُ رأسه في الحائط بجنون. ومضت لحظات قبل أن يدخل عليه جمال وبرفقته ممرض ضخم هو الآخر. أحاطا به وتعاونوا على السيطرة عليه ثم أرقدها على الفراش رغماً عنه وقاما بتقييده إليه. كان يقاومهما بجنون وهو يصرخ فيها متوسلاً، أن يُسَكِّتَا

الهمسات اللعينة. ودلفت الدكتوراة سحر الغرفة لاهثة مهرولة. وما أن
رأته حتى هفتت بجمال:

-أُمبول نيوريل بسرعة..

خرج جمال من الحجرة على الفور ليجلبه، بينما راحت هي ترتب على
كتف عماد وهي تحاول تهدئته:

-اهدأ يا عماد.. اهدأ.. تمالك نفسك وستكون بخير

-أسكتهم يادكتوراة.. انهم يمزقون عقلى. افعلى أى شىء أرجوك.. أوقفى
تلك الهمسات بالله عليك.

وعاد جمال في تلك اللحظة الحجرة وبيده محققاً ممثلاً بسائل مائل
للإصفرار. انحنى نحو ذراعه المقيّد بالفراش وأفرغ ما فيه بأورده. مضت
بعدها لحظات بطيئة ظل فيها عماد يطلق صرخاته المجنونة المستغيثة،
حتى سرى الخدر في جسده وغلّف عقله. ففقت الهمسات حتى تلاشت
تماماً وراح هو في ثبات عميق.. راقبته الدكتوراة سحر حتى انتظم تنفسه،
ثم التفتت إلى جمال ليخبرها بما حدث. طالبته أن يأتيها بعماد فور أن
يستيقظ ثم انصرفت. لكن عماد ظل طوال الليل نائماً، وحين استيقظ في
الصباح شعر بالإعياء وصداع رهيب يهكه. جاءه حكيم حاملاً إقطاره
وابتسامته للزجة تسبقه، فيادره عماد بإعياء وهو يضغط على صدغيه
بأنامله ويغمض عينيه بالهم:

-أريد شيئاً ما لهذا الصداع العنيف.

وضع حكيم صينية الطعام على جانب الفراش وقال ببرود:

- إنه من تأثير ما فعلته بالأمس. لقد رأيت تسجيل ما حدث كاملاً. صَبَقْتِي
لقد كنت بارعاً في تمثيل نوبة الجنون تلك، لكنى لا أعتقد أن هذا كافياً

لتقنعهم ها هنا أنك مجنون بالفعل. لقد رأينا هنا الكثير من تلك
الإدعاءات ولم تعد نخدعنا.

عاوده الغضب، وأراد أن يحتد، لكن الصداع اشتد فجأة ما أن تحرك
ليتحدث، فوجد نفسه يمسك رأسه بكلا يديه ويصرخ:

-لماذا لاتدعنى وشأنى فحسب؟. لماذا تعاملنى هكذا؟.

-لأننى أستمع بالأمر، وكما ذكرت من قبل لك، أنا لا أصدِّقُك.. أه أحبك.

-إِذَا أعطى أئ شىء من أجل هذا الصداع اللعين.. أعدنى أئ شىء
يُسكِتُه.

-لايمكننى أن أعطيك أئ شىء دون توصية الأطباء. انته من طعامك
وسوف أذهب بك للدكتوراة سحر. إنها ترغب في أن تراك قبل أن تعود
لبيتها بعد انتهاء نوبتية الأمس، يمكنك أن تسألها مُسَكِّناً ما.

-إِذَا دعنا نذهب إليها.. إننى لست جائعاً.

(6)

رقد على الفراش الجلدى فى الظلام، وهو يفكر بحيرة فى تلك الأصوات
المخيفة التى هاجمته اليوم. إنها المرة الأولى التى يحدث له فيها شىء كهذا.
كانت الهمسات وحشية، غامضة، ومخيفة. بدا وكأنها تخترق روحه، وتهش
خلايا جسده وعقله. أتكون تلك الهمسات عرضاً من أعراض مرضه، أم
تراها رسالة خفية تحاول أمه أن ترسلها له من عالمها الآخر. أم هى عبث
شيطانى، يبغى تهيج جنونه؟..

لم يشعر من قبل بالجنون مثلما حدث حين ترددت تلك الهمسات في أذنيه. مازال لا يصدق أنه راح يضرب رأسه بالحائط بكل هذه القسوة لتزول عنه، ولولا تلك البطانة الجلدية التي تبطن الحوائط لكانت إصابته بالغة بلاشك.

دار في رأسه تساؤل مفزع. هل يعنى ما حدث له أنه مريض بالفعل؟ هل كان كل ما مر به أوهام راودته. هل كانت أمه سليمة ولم تكن مسكونة بالشياطين؟ هل كان مريضاً يُعالج عند الدكتور محمد شاهين كما ادعى في المحكمة؟ ولو كان هذا صحيحاً، هل كان هو من قتل أمه في نوبة جنون حدثت له؟ شعر بالإغياء فرقد على الفراش بحثاً عن نوم يُغَيِّبُه عن واقع غامضٍ مرببٍ يُسَقِّمُه.

مضى نومه هادئاً لا يعكره شيء، حتى استيقظ على صرخات تترد خارج حجرته. بدت الصرخات عنيفة وكأنما يُعاني صاحبها ألماً لا يُطاق.. نهض مُسرِعاً وأطْلُ برأسه من القضبان الحديدية لباب حجرته ليرى ما يدور بالخارج. رأى الشرطي الذي يحرس الباب مُلتَصِفاً بالحائط ويجواره وقف حكيم وممرض آخر، وبين أقدامهم كان هناك رجل ينتفض بعنف. كان جسده يتلوى بأكمله وعضلاته تنقبض وتنبسط بسرعة رهيبية، وقد مالت رأسه للخلف بزاوية مخيفة، شعر عماد أنها ستحطم عنقه حتماً. تقلصت أسنان الرجل في فمه، وخرج من بينها الكثير من اللعاب كرهاوى كثيفة. راح الرجل يمزج كحيوان ضارى، وراقبه الباقون دون أن يُقيم أحدهم على فعل شيء ما..

حبس عماد أنفاسه رهبة وتساءل بأعماقه لماذا لايتدخل أحد ما ويسعفه..ومضت اللحظات ثقيلة وبطيئة قبل أن يهمد جسد الرجل تماماً، ويستكين على الأرض بلا جراك، كأنما غادرت روحه جسده..هنا دبّت الحياة في أجساد الرجال الثلاثة ثانية، وتعاونوا على حمله وإدخاله إحدى

الحجرات واختفوا داخلها، وإن ظلت أصواتهم تصل لعماد. ظهر بعدها طبيب شاب في تلك اللحظة متجهاً نحو حجرة الرجل. وبعد دقائق قليلة خرج منها مصطحباً الممرض الذى كان مع حكيم، يتبعه الشرط ثم خرج حكيم في النهاية فأوُصِدَ باب الحجرة على الرجل المريض، ثم تحرك ناحيته قبل أن يتوقف أمام باب حجرته المغلق. هنا رسم الإبتسامة للرجة الباردة على وجهه كالعادة، وقال وهو يقترب بوجهه من القضبان الحديدية التى تفصله عن عماد:

-إذا فقد استمتعت برؤية ما جرى، ظننتك نائماً

تجاهل عساد برودة وسأله وعيناه مُعَلَّقَةٌ بحجرة الرجل:
-ما قصة هذا الرجل؟..

-القصة المعتادة!! لقد قتل زوجته ثم ادعى الجنون، فأحالوه إلينا كي نلاحظه ونفحصه. تماماً كما حدث معك. إنه سليم هو الآخر، ولايعانى من أى شيء..

رمقه عماد بشك، وعقله يستعيد ما جرى للرجل منذ قليل، فانسعت ابتسامة حكيم وكأنما أدرك ما يفكر فيه وقال:

-لا تصدق ما رأيته. فهو كما رأيته ممثلٌ بارع. إنه يحاول أن يقنعنا أنه يعانى من الصرع، لكنه فشل في هذا. لقد أدركت هذا منذ الوهلة الأولى، ولهذا تركته كما رأيته يتمادى في ادعاءه حتى انتهى، فحملته لحجرتي..

تذكر عماد الزاوية العنيفة التى مالت بها عنق الرجل وقال مُغْتَضِراً:

-وماذا لو كان مريضاً بالفعل؟.

-ما أخبرتك به ليس رأيي فقط. إنه رأى الدكتور ضياء أيضًا. لقد فحصه، وأكّد ظني، حتى أنه لم يوص له بأى عقار.

قالها ومال بوجهه نحو القضبان حتى التصق به تمامًا، وهمس بسخرية:

-أعترف أنك كنت أكثر براعة منه في ادعاء المرض بالأمس. لكن كل هذا بلا طائل وستعودان لسجنكما ثانية قريبًا لتتدلى أعناقكما من حبل المشقة.

تصاعد الغثيان في نفس عماد وأبعد رأسه عن الباب وصرخ في وجهه :

-أنت رجل مريض..أنت مريض بلا شك.

تعالّت ضحكة حكيم الساخرة، وهو يتعبد، ف شعر بكراهية لا حد لها نحو حكيم في تلك اللحظة. إنه إنسان مريض سادى يستمتع بإيذاء المرضى الذين يشرف عليهم.

تحرك نحو فراشه وجلس غاضبًا على طرفه.. حاول أن يخرج حكيم من عقله فتشاغل بالتفكير في أمور أخرى. راح يتأمل المروحة التى تدور برتابة. بعد حين بدأ وريد جهته الأيمن فى النبض بقوة. تحسسه بأنامله فألمه. وفوجئ بالهمسة الأولى تتردد فى أذنه..

"No bis in circuitu"

انتفض بذعر، وتلقت بعنف حوله بحثًا عن مصدر الهمسة. خيم الصمت للحظة، وقلبه يدق بترقب. قبل أن تكتسح الهمسات أذنيه وعقله مرة واحدة. أتت هذه المرة كاسحة لا تقاوم. لكنها لم تأت بمفردها بل خرجت الأشياء السوداء من كل مكان حوله وراحت تنقض عليه. راح يصرخ بجنون وهو يحاول أن يصبم أذنيه وعينييه بكفيه بلا جدوى. لقد غادرت الشياطين الحجيم من أجله هذه المرة. راح يدور حول نفسه بلا توقف وهو يصرخ ويتألم. ضرب رأسه بالحائط مرارًا فلم يتغير شيء.. ارتدى على

الأرض وتكوّم حول نفسه فلم تفارقه. رفع رأسه للأعلى وعوى فازدادت جنونًا. وفي تلك اللحظة رأى أمه مُعلّقة في سقف الحجرة ترمقه بابتسامة شيطانية، وهى تردد الهمسات المخيفة كأنما هى عضو فرقة كورال يرددون ترانيل وحشية غامضة. وصرخ فى نفس اللحظة التى فُتح الباب فيها، وسمع صوت أمه وهى تصرخ فيه:

-شياطين الحجيم بانتظارك أمها الأحمق. ألا ترى؟!

هنا راح جسده ينتفض على الأرض بلا توقف..التوى ظهره..حتى كاد أن يحطم فقرات ظهره، وأطبقت أسنانه على لسانه فأدمته. وثقو عضلات مثانته على كتمان ماها فأراقته وبلل ملابسه. رأى هذا حكيم بتوتر حقيقى، وقد أدرك أن الأمر لا ادعاء فيه. لحقه ممرض آخر وذلك الشرطى المكلف بحراسة المكان وتبادلوا النظرات العاجزة حتى همد جسد عماد بعد حين. هنا قال الشرطى للممرضين وهو يلحظ خيط الماء الذى انساب من بطنال عماد:

-ألن تفعلوا شيئًا ما ؟..

انحنى حكيم نحو الجسد الهامد وقال للممرض الآخر:

-أحضر الدكتور ضياء بسرعة..أخبره أن الأمر خطير وعاجل.

(7)

شعر بإعباء لا حدود له، وقد صار كل جزء من جسده يزن أطنانا. وعقدت الدكتورة سحر ذراعها أمام صدرها وقالت له حين حاول أن ينهض من فراشه من أجلها:

- لا تتحرك. أعلم مقدار ما تشعر به من ضعف وألم، وأعلم أن إجهادك لا حدود له. لكنها مسألة وقت لا غير. كل ما تحتاجه هو بعض الراحة وسيتجدد نشاطك ثانية.

- إنه أكثر مما تتخيلين. أشعر وكأن قاطرة قد دهستني مزارًا.

- هذا أمر طبيعى بعد نوبة التشنجات التى حدثت لك. لقد استهلك جسدك طاقته كلها تقريبًا فى تلك اللحظات القصيرة التى حدثت التشنجات خلالها.

صمت عماد للحظة لينتعل رقبه وشعر بلسانه الدامى يؤلمه، ثم غمغم وهو يُغلق عينيه بوهن:

- وهل سيتكرر الأمر ثانية؟.

- من يدري؟. لكن أخبرنى. هل أتت تلك الهمسات ثانية

أومًا بعينيه وهز رأسه موافقًا..

- ولم تعى ما تردده تلك الهمسات كالمرّة السابقة؟..

- نعم. لكن الأمر هذه المرة مختلفًا. كان هناك أشباحًا هاجمتنى وكان شبح أُمى بينهم.

شعرت سحرًا بالإنارة فنظرت له بترقب وقالت جدهشة :

- وماذا حدث غير ذلك

رمقها بضعف للحظة وخاف ألا تُصَدِّقَه فقرر ألا يخبرها بكل شيء.. لهذا غمغم بإعْياء:

- كان هذا كل شيء.. بعد ذلك لا أذكر أى شيء..

راحت سحر تخط ملاحظتها فى دفتر صغير كان بجيبها. ثم عادت لتحدثه ثانية:

- لكنك تعلم أن أمك قد ماتت وأنه ليس منطقيًا أن تراها ثانية.

كان عقله مُشَتَّتًا بشدة، وأدرك أنها ربما تختبر إدراكه ومنطقية تفكيره. تهدد للحظة، وقال بصوت نحيب في أن يجعله قويًا :

- أعلم أن أمى قد ماتت، ومن المستحيل أن تكون ها هنا، ولو كانت حيّة فلن تطير فى الهواء، أعلم كل هذا وأعى أن كل ما يحدث لى ربما هى أوهام وضلالات. كل هذا أدركه. لكننى أخشى أن يقودنى هذا للجنون وربما صرت مجنونًا بالفعل ولا أدري.

ابتسمت له بإشفاق، وقالت، هى تتخير كلماتها، بلطف:

- هون عليك يا عماد. لا يوجد شيء فى علم النفس اسمه الجنون. الأمر لا يعدو اضطرابات عقلية ومشاكل عضوية. لكن الجنون لا وجود له فى الطب النفسى، لنقل أن الجنون هو مصطلح عام يصف أى شيء خارج عن المألوف أو التعود، أن العبقري قد يُقال عنه أنه مجنون. والفنان قد يقال عنه أنه مجنون. والشاعر كذلك. ألم يطلقوا على قيس مجنون ليلى- هل تعتقد أن هذا يعنى أنه لو كان موجودًا فى عصرنا لدخل هذه المستشفى لنعالجه من عشقه؟..

قالها شيء من المداعبة، لكنه لم يضحك. لم يكن يعنيه هذا الجدل عن المصطلحات ولا قيمة عنده إن كان الجنون مُدرجًا كمرض نفسى أم لا.. كل ما يغشاه أن يكون ما يحدث له، مقدمة مرض نفسى حقيقى له، أو يكون ما حدث له قد سبب خللاً ما فى عقله.. وانبه حينها لما تقوله:

-المرض النفسى ليس أبداً عيباً يا عماد، كما أنه ما زال لغزاً، لماذا يصاب البعض بنوع معين من المرض ولماذا لا يحدث للآخرين؟.. لماذا يصيب المرض أناساً يعانون أشد المعاناة من فقر وإحباط ومرض، ولماذا يصيب المرض نفسه آخرين لايشكون شيئاً ويعيون فى رغد وسعادة؟.. صدقنى المرض النفسى لا خجل منه على الإطلاق، لانه قد يصيب الجميع بما فهم الأطباء النفسيين أنفسهم.. إن بعض المرضى هنا فى المستشفى كانوا أطباء هنا بالمكان. أتصدق هذا؟!..

وقبل أن يُعَقِّب أصدر هاتفا رنيناً يحمل نغمات أغنية دينية..أخرجته ونظرت إلى شاشته. كانت رسالة من الدكتور أحمد:

"أريدك حالاً فى مكتبى.. دعى ما تقومين به وتعالى."

أعادت محمولها إلى جيبتها بهدوء، والتفتت إلى عماد ورسمت بسمتها اللطيفة على شفتيها ثانية، وقالت:

-أنا مضطرة للذهاب الآن، المدير يطلبنى فى مكتبه، لكنى سوف أعود ثانية، وحتى ذلك الحين سيكون هناك أقراص تتناولها بانتظام كي تمنع عنك تلك الهمسات والروئ التى لاترغب بها. تناولها بانتظام ولن تعاودك تلك الهلاوس السمعية ثانية بإذن الله.

والتفتت بعدها إلى جمال، وقالت وهى تُدَوِّن فى تذكرة عماد العلاجية:

-أعطه سافينيز أقراص ثلاث مرات يومياً، وقرص فاليام قبل النوم فقط. سوف أدَوِّن تلك العقاقير فى تذكرته..

ذهبت بعدها إلى مكتب الدكتور أحمد. وتناهى لمسمعها الأصوات الصاخبة والمناقشة الحامية الوطيس التى تدور بالداخل. وميّزت قبل أن

تدخل صوت الدكتور أسامه بعصبيته وجدّيته. فهمست لنفسها وهى تُنِجِّن من مشيتها:

-مشاجرة أخرى بين التنانين. ليرحمنا الله!.

طرقت الباب ودخلت دون أن تنتظر الرد..كان هناك الدكتور أحمد خلف مكتبه وأمامه الدكتور خالد يجلس على المقعد الموجود على يمين المكتب، وفى الجهة المقابلة كانت هناك أريكة جلدية جلس عليها الدكتور أسامه الذى بدأ التوتر على وجهه وهو يدخن كعادته..

هتف الدكتور خالد حين دخلت مبتسماً ومُرَجَّباً:

-وها هى الدكتور سحر قد جاءت لتجسم الجدل. إنها طبيبته المُعالِجة وهى أدرى الجميع بحالته. أخبرينا يا دكتورة برأيك عن حالة عماد. لقد رأيت الفيديو الذى سجلته كاميرا المراقبة لما حدث له حتماً.

أجابته بسرعة:

-رأيتُه وفحصته بعدها.

-وما رأيك فى حالته؟

هنا سبقها الدكتور أسامه وهتف بقوة وهو يلوح بيده فى الفراغ:

-بالطبع "malingering"..حتمًا هذا ما ستخبرنا به يا سحر.

هنا صاح فيه الدكتور أحمد باستهجان:

-يا رجل كفى تَعَجُّلاً وافتراءً!..كلنا يدرك أنه من المستحيل أن يتقن أحد ما القيام بتلك التشجعات. مهما كان بارعاً فى التمثيل فلا بد أن يُخْطِن.

-ولماذا لايفعل؟. كلهم صار يفعل هذا اليوم. أخبرني كم حالة تقابلها يوميًا هنا لمرضى متمارضين. أكثر من نصف الحالات التي نراها كل يوم أليس كذلك؟. إنها الموضوعة الآن، الكل يقرأ في علم النفس هذه الأيام، وهناك آلاف الفيديوهات التي تصور مرضى حقيقين على اليوتيوب، يمكنه بسهولة رؤيتها. وليس من العسير أن يتعلم تنفيذها وتمثيلها كما رآها.

قال له الدكتور خالد معترضًا:

-ولماذا يفعل؟..ولماذا لم يقم بتنفيذ تلك الأعراض منذ البداية، بدلًا من الانتظار أيامًا.

-إنه مهندس، ولايد أنه ذكي ويرغب في أن يُحكّم حيكته. لابد أنه أعدَّ الغدّة منذ وقت طويل لهذا الأمر.

هنا صرخ فيه الدكتور أحمد وهو يضرب سطح مكتبه بكفه استنكارًا:

-أعدَّ الغدّة كي يقتل أمه ثم يدعى الجنون في المستشفى؟.. هل تصدق حقًا ما تقوله يا دكتور؟. أنت تتجنى عليه كثيرًا يارجل. لقد كاد الفتى أن يُهشّم رأسه في الجدار في المرتين. منذ متى يفعل المتمارضون هذا، إنهم لا يؤذون أنفسهم أبدًا. هل لاحظت نوبة الصرع التي أصابته. أهذه يدعها أيضًا؟..

هنا تدخلت الدكتورة سحر في الحديث، وقالت مؤيدة الدكتور أحمد في رأيه:

-لو شلتم رأيي فهو مريض بالفعل. إنه يتحدث عن همسات مُلحّة سبقت نوبة التشنجات في المرتين بالإضافة لأشباح في المرة الثانية. ألا يبدو هذا مألوفًا؟.

"Hallucinations and Delusions"-

صرخ الدكتور أحمد وأكمل وهو يميل بجسده نحو الدكتور أسامه ويشير بسببته نحو وجهه بظفر:

-الأمر جُلّي للغاية، وليس بحاجة للكثير من التفكير كما ترون..الفتى يعاني من اضطرابات ذهانية تصحبها هلوسات سمعية وبصرية..إنه الفصام يارجل..الفتى مصاب بالفصام حتمًا.. ألا توافقيني في هذا يا دكتورة سحر؟.

-أوافقك تمامًا. فهذا ما أشعر به.

لكن الدكتور أسامه لم يرق له الأمر، فوضع ساقًا فوق ساق وقال باستنكار:

-تشعرين؟!.. طيبه نفسيه وتقولين في رأي علمي تشعرين!. أنت تمزحين يادكتورة حتمًا. حين تحدثني عن مرض أو احتمال ما حدثني بلهجة علمية من فضلك. إننا هنا أطباء، ولا دخل للمشاعر أبدًا في عملنا.

احمر وجهها خجلًا وتوترت، وحمل صوتها بعض العصبية وهي تقول:

-ليس هذا ماقصدته يادكتور..لقد قصدت أنه ربما يعاني من اضطرابات ذهانية مصحوبة بضلالات بصرية وسمعية..

لكن الدكتور أسامه استمر في مهاجمتها بلا مبرر، كأنما يستمد من هذا عونًا له في رأيه الذي يعارضه فيه الدكتور أحمد، والدكتور خالد..وقال بابتسامة لم ترتع لها الدكتورة سحر وأزعجتها:

-أرى أن الدكتورة سحر تُولي ذلك المريض اهتمامًا أكثر مما يقتضيه الأمر. كما أنها صارت تتعاطف معه ومع ما يدّعيه.

-أرى أنك متحيز ضد المريض يا دكتور أسامة. "counter-tranference"
وهذا ليس من العدل لهذا المريض.

تكهرب الجو بفتة. كان الدكتور خالد يعنى أن الدكتور أسامة صار لا
يتعامل مع مريضه هنا بحيادية وأنه صار يتحيز ضده بلا مبرر. وكان هذا
يعنى أنه يطالبه بمراجعة نفسه في حكمه عن المريض. أويتنحى ليستبدلوه
بطبيب غير. وبدا التوتر جلياً على خلجات الدكتور أسامة، وبالرغم من
عناده إلا أنه لم يرغب في أن يصل الخلاف إلى هذا الحد، فنهض من مكانه
وسحق عقب السيارة المتبقى في منفضة السجائر الزجاجية المجاورة له
بعصبية، وقال بهدوء مصطنع:

-حسنًا، افعلوا أيها السادة ما بدا لكم واكتبوا في تقريركم ما تشاءون، ثم
أرسلوه إلى لأوقعه. لن أختلف معكم في ما تقررونه، لكن تذكروا أنني لا
أوافقكم الرأي في أي شيء حول هذا المتهم. هذا المتهم عاقل لا يعاني شيئًا.
وغادر المكان دون تحيتهما غاضبًا. واستدار الدكتور خالد نحو الدكتور
أحمد وتهند بارتياح قائلاً:

-هذا أفضل. خشيت أن يستمر في عناده وبرهقنا بإصراره.

هز الدكتور أحمد كتفيه بحركة مُهَيَّمة قبل أن يخرج التليفون المحمول
من جيبه ويطلب رقمًا ما. جاء الرد بعد الرنة الثالثة فقال على الفور
دون مقدمات أو تمهيد:

-حسنًا يا دكتور محمد. لقد مضى الأمر كما طلبت. سوف نُعيدُ التقرير
النهائي وسنثبت به أنه غير مسئول عن جريمته تلك.

كان الطرف الآخر هو الدكتور محمد شاهين. الذي يتهدد ببطء قبل أن
يجيبه:

هنا قفزت الدكتور سحر من مقعدها بعصبية. وقد أزعجها ما توارى بين
طيات حديثه من تلميحات لا تحبها. وهتفت فيه بغضب حقيقي:

-ما الذى تعنيه يا دكتور أسامة. ما معنى قولك هذا؟..

أجابها ببرود وهو ينفض دخان سيجارته نحو السقف دون أن ينظر إليها:

-أنا لا أعنى شيئًا.. إننى أخبركم بما لا حظته.

نقافزت شياطين الغضب على مخياها، واحتقن وجهها الأبيض الجميل.
فبدا في حمرة كحبة الطماطم، ووجدت نفسها تقول بعدة:

-لقد أخبرتكم برأى. والرأى الثباتى فيه متروك لكم. أنتم من يكتبون
التقرير النهائي لا أنا. سوف أذهب الآن ولو احتجتم شيء فأخبرونى..

قالتا ورمقت الدكتور أسامة نظرة أخرى خملئها الكثير من المعانى
الحانقة، قبل أن تغادر. وصاح الدكتور خالد في الدكتور أسامة بغضب
واستهجان:

-ما هذا الذى قلته لها يا رجل. ألم تتعلم أن تلتفى كلماتك قبل أن تنفوه
بها. هل ترى كيف أغضبتها وأخرجتها؟..

-إننى لم أقل شيئًا لتغضب. إنها بالنعل توثيه اهتمامًا زائدًا.

هنا صاح فيه الدكتور أحمد بعنف:

-لو كنت لا تُدرك ما لُحِت إليه في كلماتك فأنت في مشكلة حقًا. لولا أنها
مهذبة لردت على اتهامك بصورة أخرى لن تسرك حتمًا

لم يرد الدكتور أسامة عليه. وهو يدخن بعصبية، وأظلمت الصمت لوهلة.
قبل أن يقضعه الدكتور خالد قائلاً بهدوء:

لا أدري كيف أشكرك يا دكتور أحمد. يكفي أن تعلم أنك بهذا قد أنقذت
برئنا من عقاب لا ذنب له فيه. لقد قمت بالأمر الصائب يا دكتور أحمد.
ثقي في هذا.

لكن الشكوك ظلت ترتع في أعماقه بلا توقف. وظل ضميره يؤله بشدة
متشككا إن كان قد فعل الصواب حقاً أم أنه قد أخطأ. وساعد مجرماً
على الفرار بجريسته دون قصاص. ما كان يطمئنه قليلاً أنه قد رأى بعض
الأعراض الحقيقية على عماد، أنهى الاتصال بعدها وتبادل نظرة ذات
معنى مع الدكتور. س ولم يعقب أى منهما على الأمر..

(8)

مرة أخرى أتى صخب المحاكمة وإزعاجها. عشرات العيون التي تنظر إليه
بفضول وإلحاح. وفلاشات الكاميرات التي لا ترحم. كل هذا كان موجوداً
دون "مئ" هذه المرة. لماذا لم تأت؟ لا إجابة لديه. ظل ممدوح يشير إليه
من بعيد وهو يبكي وجسده الضخم يهتز بلا توقف. تذكر أنه لم يبك في المرة
السابقة. أترأه ظن أنها النهاية وأن القاضى قد يحكم عليه بالإعدام هذه
المرة فراح يبكي صديقه هكذا؟!.. وصرخ الحاجب فكف الصخب. ودخل
القضاة من بعده وجلسوا واجمين قبل أن يتلوا الحكم الموزج..

"إيداع المتهم مستشفى الأمراض العقلية.."

ساد الصخب ما بين معترضي كان يتمنى حكماً آخر، ومندهشي لا يصدق أن
ينتهي الأمر هكذا.. وبدا عماد في ذهول وسقط في بئر من الحيرة والتيه،
لا يدري إن كان عليه أن يسعد لهذا الحكم، أم يبتئس لحاله وقد وصموه
بالجنون.. هنا جاءت الهمسات من بعيد، كأنما كانت هي الأخرى تترقب

الحكم، وفي لحظات اكتسحت رأسه بلا رحمة. فراح يصرخ وهو يحيط
أذنيه بكفيه، ويحاول جاهداً أن يضرب رأسه بالقفص كي تغادره أو يموت
رحمة به.. وراحت تردد بإصرار:

"redire magister dryadatum vel peribis.."

"redire magister dryadatum vel peribis"

لم يكن هناك دواء هذه المرة ولا ممرضين.. بل جنود وأمناء شرطة وضباط
راحوا يقيدونه بصعوبة بالغه دون أن يتوقف الهياج حتى أتت الغيبوبة
من بعيد لترحمه من معاناته.

أفاق ليجد نفسه في المستشفى ثانية. وجد نفسه أمام طبيب شاب يبدو
عليه الإرتباك ولا يدري ما الذي عليه أن يفعله، كما كان هناك حكيم هو
الأخر الذي رمقه بابتسامته الباردة المتهمكة. في النهاية أوصى الطبيب
بإيداعه حجرة الملاحظة حتى الصباح، فصحبته حكيم إلى هناك وهمس في
أذنه قبل أن يتركه بالحجرة بمفرده:

-إذاً فقد عدت ثانية. إن هذا مفاجأة لي. ولأثنى مازلت لا أحبك ولم يتغير
رأى فيك، ولأن الأمور قد تغيرت وصرت تتبعنا هذه المرة، فأننا أعدك
بالكثير من المرح بينما. ستمضى وقتاً رائعاً سيرقك حتماً يا رجل.

واذ.. عرف بعد أن حققه بالفاليم كما طلب منه الطبيب الشاب، وفي
الصباح وبعد أن رآه الدكتور أحمد والدكتورة سحر، أمروا بإيداعه في
أحد العنابر مع بعض المرضى الآخرين بعد أن أوصوا باستمراره في تناول
علاجه السابق..

تقوَّق في نفسه، وراح يرقب كل ما يدور حوله باضطراب حقيقى. تمنى لو
كانوا قد تركوه في حجرة منفردة، كان لا يدري كيف سيخبر بين هؤلاء

المرضى النفسيين وهل يؤذي أحدهم يوماً ما. كان دوماً يتحاشى المجاذيب والبلهاء بل ويخشاهم. ربما يعود هذا لتلك الحادثة التي تعود إلى صباه حين كان في العاشرة من عمره، كان يومها عائداً من المدرسة برفقة أصدقائه حين رأوا أحد المجاذيب يُدعى أيمن العبيط..راحوا يضايقونه ويصرخون في وجهه:

-أيمن العبيط..أيمن العبيط..

راح المجذوب يهرول أمامهم بتوتر وخوف، لكن أحد زملائه كان وغداً حقيقياً، فالتقط حجراً من الأرض وقذفه به على وجهه فأدما. منا راح أيمن يعوى متألماً، وهاج وثار. لم يشاركهم عماد يومها في مضايقته، لكن سوء خلقه جعله بينهم حينها، وحين ثار ذلك المجذوب ظن عماد أنه لن يؤذي لأنه لم يضايقه، فلم يهرول مبتعداً عنه مثلما فعل الآخرون. كان خطئاً أدركه على الفور حين فوجئ بأيمن ممسكاً به وقد غمر الدم وجهه وغربت عيناه جنوباً وهو يصرخ في وجهه ويضربه ويخدشه بأظفاره. ووجد عماد نفسه يومها مستسلماً بين يديه بلا جزأك أو مقاومة. كان كالمشلول بين يديه. وظل المجذوب يضربه وهو ينتظر أن يموت بعد قليل. وحين بلغ رعبه مبلغه، وراح قلبه يدوى في صدره كطبول بربرية، فقد وعيه..

أفاق ليجد نفسه بين أحضان أمه تبكي برعب وهو تسمح بفضوة مبللة بالماء وجهه لتنظف جروحها، كان بعض الجيران قد انقذوه من بين براثن أيمن العبيط في الوقت المناسب، ورغم أن الحادثة قد مرت بسلام، إلا أنه ظل طوال عمره يصاب التوتر والهلع إن وجد نفسه في طريق ما مع أحد المجاذيب أو عبر أحدهم بجواره أو صلى بجانبه في المسجد..

الآن لم يعد هناك أيمن العبيط واحد فقط. بل هناك العشرات منه في المستشفى يعيشون في كل مكان حوله. هجره النوم في ليلته الأولى وهو

يترقب الكارثة. لكن الليلة الأولى مضت بلا مشاكل ووجد نفسه في نهايتها وقد نام دون أن يشعر، وحين استيقظ كان الصباح قد أتى، ولم يكن هناك من أحد غيره بالعنبر. جاء حكيماً بالدواء الذي يتناوله فتناوله من بين أصابعه بهدوء وانتظر أن ينصرف الأخير من أمامه، كما كان يحدث من قبل، لكنه لم يفعل. وجلس حكيماً على طرف فراش يقابل فراشه، وظل يرمقه ببرودة دون أن يخفض بصره. ف شعر بالسأم وقال له بتوتر:

-والآن ماذا؟. هل هناك شيء ما آخر غير الدواء؟.

-هناك تنظيف هذا العنبر. سوف تُرتب الأسرة وتُغَيَّر الملاءات، وتكنسه، ثم تغسل البلاط. هذا كل ما في الأمر.

شعر بالدهشة وهو لا يرى في وجهه ذلك الممرض البارد أى دُعَابَةٍ ما في الأمر.

-أنا لا أفهم ما تعنيه.

دارت ذراع حكيماً في أرجاء المكان وهو يشير إليه وهو يجيب:

-أعتقد أن كلماتي محددة وواضحة..أريدك أن تنظف المكان كله، أم تراك تربتنا نحن أن نفعله من أجلك أنت وأولئك المجانين الآخرين. النظام هنا أن يقوم أحدهم كل يوم بتنظيف المكان واليوم هو دورك.

-وماذا إن لم أفعل؟..

قالها عماد بشيء من التحدي، فأجابه حكيماً ببساطة دون أن تتعكر إبتسامته الباردة:

-سأُجِزِّكَ على فعلها. إنه النظام هنا ولايمكنتك أن تكسره أو تخرج عنه.

-وهل يعلم الأطباء بهذا؟.

إنهم من وضع هذا النظام. يمكنك أن تشكوني لهم لو شئت. لكنك ستنظف المكان قبلها.

تبادلًا النظرات المتحدية، وتمنى عماد لو يستمر في عناده، لكن روح التحدى بأعماقه وعناقه الذى عجز في الماضى عن ترويضه كانا قد فارقه منذ زمن. لقد تكسرت إرادته واعتراه عجز سخيّف منذ مقتل أمه. وجد نفسه يطرق برأسه لأسفل ويقول باستسلام:

-وكيف يمكننى أن أنظف المكان.

برقت عينا حكيه بظفر وقال على الفور:

-هناك مقشه ودلو بالخارج ويمكنك جلب الماء من الحمام.

نهض عماد بتناقل وخرج من العنبر قبل أن يعود بالمقشة والدلو ومنشفة صغيرة، راح حكيه يراقبه مستمتعًا وهو يقوم بتنظيف المكان كأنما يبغى إذلاله، بل وتعمد ألا يغيّر مكانه حين وصل إليه عماد بالمقشة كي يكنس المكان أسفل قدميه، وهو يشير له بسبابته ليدور من حوله بطريقة تحمل الكثير من الإهانة والتعالى. تمنى عماد لو أن إرادته طاوعته، فيحطم رأسه بيد المقشة الخشبية التى يقبض عليها، لكنه لم يفعل. حمل الجردل البلاستيكي بعدها نحو الحمام وحين عاد به ممتلئًا بالماء فوجد حكيه يصرخ في وجه أحد المرضى مطالبًا إياه بالإبتعاد عن المكان.

رقد على ركبتيه على الأرض ووضع المنشفة بالجردل وأخرجها مبيبة بالماء وبدأ في مسح البلاط. شعر بالخجل من نفسه، وبالغضب مما يحدث فراحت يده تنظف الأرض بعصبية وأنفاسه تسارع وصدره يضيق بها. وحين رفع رأسه ليغير مكانه كانت أمه هناك فوق الفراش ترمقه بابتسامتها المخيفة وبعيون محترقة سوداء.

ارتجف فجأة ولم تقو قدميه التى يركز عليها على حمله فانزلق بظهره للخلف وسقط. وبينما راح الرعب يغزو وجهه، كانت ملابسه التى تلتصق بظهره تتشعب بالماء الذى يغمر البلاط. رمقه حكيه بقلق وهو يراه ينظر إلى فراش خالٍ بعينين جاحظتين هلعيتين، فسأله وهو يتراجع بتوتر:

-ماذا هناك؟.. ولماذا تحدد في الفراش هكذا؟.

لكن عماد لم يسمعه وقد راحت أمه تهمس إليه بتلك اللغة الغريبة الغامضة.. وبينما تعالى صوتها المخيف، ظهرت حولها الشياطين الخفيفة بعيونها الحمراء المخيفة، فتدخلت الهمسات في رأسه ثانية وبدأت حفلة الجنون مرة أخرى..

راح يصرخ في أمه التى تتحرك نحوه وهو يمد ذراعية نحوها ليبعدا عنه، وهو يزحف بمؤخرته على البلاط:

-ما الذى تريدنيّه منى؟.. ابتردى عني واصمتى؟.. ابتردى عني !..

فتحت فمها على اتساعه فلم يرى إلا فجوة مظلمة كبير عميق، وارتفعت الهمسات والطرقات في رأسه فصارت كآلاف الطبول.. أخذ عماد ينتفض على الأرض وقد أصابته نوبة صرع جديدة. هرع إليه حكيه مراقبًا وعيناه تدوران في المكان بتوجس وقلق وقد شعر بالهواء الساخن الذى غمر العنبر فجأة، هنا هرول مغادرًا المكان واستدعى الدكتورة سحر التى هرعت نحو المكان. رأت الليل الذى يغمر ملابس عماد والشحوب الشديد الذى غزا وجهه ولاحظت أنفاسه الضعيفة الغير منتظمة، وانتهت لبعض قطرات الدماء واللعاب التى التصقت بجاني فمه. وضعت سماعتها على صدره واستمعت لأنفاسه ودقات قلبه الواهنة للحظات قبل أن ترفع رأسها نحو حكيه وتقول له:

-أمبول "كلوبيكسول اكوافيس" بسرعة. احفنه به الآن.

غادر حكيم المكان بسرعة لإحضار ما طلبت وعاد بعد دقيقتين به. ثم حقنه بسرعة، وقالت له الدكتورة سحروني ترمق عماد مُشفقة:

-حكيم. لا داعي لأن تجعله ينظف المكان كالآخرين، لا تفعل هذا ثانية، بَيِّل ملابسه تلك بأخرى نظيفة وراقبه طوال الوقت. لو حدث شيئاً ما أخبرني على الفور.

هز رأسه موافقاً وقد عادت ابتسامته الأبدية إلى وجهه. كانت هي الأخرى تكره تلك الإبتسامة، لكنها لم تُعقّب عليها، وأكملت :

-حين يفيق أخبرني لنقوم بعمل رسم مخّ له، ربما كان هناك خلد ما بكهرياء مخّه وربما كانت هناك بؤرة نشطة في مخه، لا أريد أن نهمل أي احتمال.

-كما تأمرين يا دكتورة.

وبعد ساعات خمس خضع عماد لرسم مخ. وضعوا أقطاباً كثيرة تنتهي بممصّات على رأسه، وامتدت من تلك الأقطاب عشرات الأسلاك التي تداخلت وتشابكت ثم انتهت إلى جهاز عتيق خرجت منه أوراق مخططة عريضة عليها الكثير من المنحنيات والخطوط. التقطت الدكتورة سحر الأوراق بعد أن نزعتها من الجهاز وراحت تتأملها باهتمام شديد، وتركيز تحوّل بعد دقائق قليلة إلى حيرة هائلة فتهدت بعمق.

كان رسم المخ طبيعياً ولا أثر فيه لجُرضي ما، إذاً فمن أين تنشأ تلك الهالوس والتشنجات العنيفة.

راحت تُفكر وتبحث عن إجابة ما بعقلها ولما عجزت قررت أن تستشير أساتذتها في هذا، ربما علموا ما خفي عنها.

بعد وقتٍ وجيز أدرك عماد أن المرضى من حوله ليسوا وحوشاً كما اعتقد وليسوا بلا عقل تماماً كما ظن. إنهم بشر مثله، لكنهم يختلفون قليلاً أو كثيراً عما اعتاده.

تعرّف على الكثير منهم ورأى من حكايتهم أشياء لم يصدق يوماً أنها قد تحدث. كان يبتسم أحياناً مما يفعلونه أو ما يقولونه، وحيناً أحرّكان يبكي حزناً لحالهم.

عالم آخر لم يعرفه من قبل، وأمراض وأعراض غريبة لم يُصنِّق بوجودها قط. كان الفصام سيد الأمراض وأكثرها انتشاراً في المكان. عشرات المرضى حوله يتبدل حالهم وتفكيرهم وتصرفاتهم في كل لحظة ولا يمكنون على حال واحد أبداً. يرى بعضهم يتمتم بلا توقف بكلام غير مفهوم، ويرى البعض الآخر شارباً دون أن يبدو عليه ما قد يشير إلى شعوره بأى شيء حوله. بدوا وكأن عقولهم على بُعد أميال من المكان كله. كذلك كان هناك ذوو الأعراض الخطيرة الذين تقتاتهم من حين لآخر نوبات مُدْمِرة من الهياج والثورة. هؤلاء كان مصيرهم العنابر المعزولة والمهدنات إلى الأبد.

كان هناك الدكتور سعيد عبدالعالم بعزله واكتنابه الأبدى. عجوز تخطى الستين من عمره، أشعث الشعر متفطن الملبس دوماً. فيما مضى كان أستاذاً للغة العبرية بكلية آداب عين شمس. كان الرجل ناجحاً في عمله وفي حياته كذلك. تزوج المرأة التي أحباها وأنجب ولدين شبيهاً وكبيرا، أمام عينيه يوماً بعد يوم يلاعهم ويعلمهم الأبيديه ويغني لهم ويزجرهم ويعاقبهم لو أخطأوا. كانت الحياة حلوة بالفعل، حتى حدثت المفاجعة منذ عشرين عاماً أو يزيد.

كان عائدًا بأسرته في سيارته إلى القاهرة عبر الطريق الزراعي قادمًا من الإسكندرية حيث قضوا إجازة آخر العام في شققهم المظلة على شاطئ العجمي. وقبل أن يصل إلى بوابات القاهرة بعشرين كيلومترًا

"لا توجد بوابة للقاهرة من الطريق الزراعي" ظهرت من العدم فجأة المقطورة الضخمة التي فقد قائدتها التحكم بها حين أصابه النعاس. حاول بجنون أن يتعرف بسيارته بعيدًا عنها أو يتفادها. لكنها لاحقته بإصرار قذري غريب حتى اصطدمت بمؤخرة سيارته لتقلب سيارته مراءًا على الطريق قبل أن تكف عن جنونها. ماتت زوجته على الفور وكذلك ابنه الأكبر وقد تمشمت جمجمته، وأصيب الأصغر بغيوبة استمرت لخمس أيام قبل أن يلحق هو الآخر بأمه وأخيه، أما الدكتور سعيد فقد أصيب بكسور مضاعفة بالساقين، وشرخ بالعمود الفقري، ونزيف بسيط بالمخ. برئ بعد حين من تلك الإصابات جميعًا، لكن إصابة عقله لم تبرأ. كان قد فقد عقله تمامًا مع من ذهبوا من أسرته، فصار يهذى طوال الوقت ويُخَيِّت أشباحًا خفية، يضحك حينًا ويصرخ أحيانًا أخرى بلا سبب، قبل أن يلزمه الإكتئاب لأوقات طويلة حتى يعتزل العالم أكمله فلا يكلم أحدًا ولا يأكل أو يشرب. صار من العسير على أسرته العناية به، فلم يكن هناك بُد من إيداعه مستشفى الأمراض العقلية. وهكذا صار نزيلًا دائمًا للمكان.

تعرّف عماد كذلك على عم مدبولي. ذلك العجوز الذي يقترب حسيبًا من السبعين من عمره. كان لطيف الحديث غير مؤذٍ أو غريب في أفعاله. في الواقع لم يعد مريضًا منذ سنوات طويلة وقد تحولت إقامته في المستشفى إلى مأوى له بعد أن فارق العالم أجمع، ولم يعد يذكر أحدًا ممن بالخارج. كان قد أتى إلى المكان منذ أعوامًا بعيدة لم يعد يذكرها. قال أنه ربما أتى بعد النكسة، ظل يردد أنه من طول مكوثه بالمكان صار يعتقد

أحيانًا أنه قد وُلِدَ ها هنا، وأنه لا يتذكر أي شيء آخر بالخارج. كان قد عمل مدرّسًا لبعض الوقت، حتى أصابته هلوسات غريبة. صار يرى أناسًا خفية يحدثونه، كما اعتقد أنهم يتحكمون بعقله. فراح يحارب أشباحًا خفية، حتى سئم أهله فأرسلوه للمكان. ظلوا يزورونه بانتظام في البداية، لكنهم انقطعوا عنه بعدها ولم يعد أحد منهم يذكره. نسوه فنسهم، وغادروا ذاكرته وعالمه، فهجروهم، وصارت المستشفى هي وطنه الوحيد.

منذ أعوام حاولت المستشفى إخراجه منها، لأنه لم يعد مريضًا.. خرج منها بالفعل. لكنه أمام العالم الغريب الذي نسيه، وجد نفسه تائها لا يدري إلى أين يذهب ولن يلجأ. كان قد نسى أين كان يقيم، وأين كان يعيش. في النهاية وبعد أيام من اللف والدوران حول المكان، ساءت حالته واضطرب عقله، فمكث أمام باب المستشفى يستجدي الأطباء والممرضين وموظفي الأمن كي يسمحوا له بالعودة ثانية للمستشفى. راح يبكي بين أيديهم بل وأرتمى يومًا تحت قدمي مدير المستشفى وراح يُقَتِّلُنَا كي يعيده الرجل للداخل.

في النهاية أعادوه ثانية للداخل. لكنه في المقابل كان عليه أن يقوم بالكثير من الأعمال، كي يتجنب سخافات الممرضين. كان ينظف الحمامات ويُلبّي طلبات الممرضين، ويهذب حشائش الحديقة ويقلم أشجارها. ويُصلح أي أعطال قد تطرأ في المكان. كل هذا كان يفعله بحماس وتفانٍ، خشية أن ينسوا منه يومًا ما فيطردونه للخارج ثانية.

كان الرجل أكثر من أحبه عماد بالمكان، وصار يأمن إليه كثيرًا..

عرف كذلك ناصر صبيحي. كان مهندسًا شابًا في مثل عمره تقريبًا لكن حالته غريبة للغاية وطريفة. كان يرى أن كل من حوله هم شخص واحد فقط وأن ذلك الشخص يُبَيِّل هيلته وشكله من حين لآخر لمخدعه

ويطارده. اعتاد دومًا على العيش منعزلًا عن الجميع، وكان يصرخ لو اقترب منه شخصًا ما. أول مرة رآه فيها كانت حين مر ناصر بجواره. يومها توقف أمامه فجاء وراح يتفحصه بنظرة ارتياب، وقد بدا عليه التوتر قبل أن يصرخ في وجهه:

-هل تعتقد أنني لن أعرفك لو غُيّرت من ملامحك في كل مرة. أنت واهم. إنني أعرف جيدًا من تكون وماذا تريد! بل، وبمكنتي أن أؤذيك لو واصلت محاولتك الحمقاء هذه.

هنا حاول عماد أن يتحدث إليه ليفهم ما يعنيه، لكن الرجل كان قد جُنَّ تمامًا حينها، وراح يقاتله ويضربه مما دفع عماد لأن يدافع عن نفسه هو الآخر فتشاجر معه. فيما بعد وفي إحدى جلسات علاجه التي كانت الدكتوراة سحر تجربها له سألها عما يعاينها أمجد فأخبرته بأمره.

كان يعاني من مرض نادر يدعى توهم فريجولي (Fregoli Delusion)، حيث يرجع تسميته للممثل الإيطالي ليوبولدو فريجولي (Leopoldo Fregoli)، الذي اشتهر ببراعته في تغيير مظهره بسرعة أثناء تمثيلة على خشبة المسرح. المريض هنا يرى الجميع شخصًا واحدًا، يُبَيِّل ملامحه دومًا ليضايقه ويتصلص عليه.

لم يكن أمجد هو أغرب الحالات التي قابلها. فهناك مثلًا عم زكي الذي يعتقد أنه المهدي المنتظر، وأنه على الجميع أن يتبعوه لينجدهم من براثن المسيح الدجال الذي يراقبه ويحاول قتله. وراح يردد أن من وضعه بالمستشفى هي زوجته الكافرة التي لم تؤمن به، واتبعت المسيح الدجال لتتخلص منه..

كانت هناك حكايات لا تنتهي وقصص لا تُصدَّق رآها وعاشها في المصحّة. لكنه في النهاية أدرك أنهم هؤلاء المرضى لا يخيفون أحدًا. بل هم في دُعر دائم من الجميع.

لكن شخصًا واحدًا ظلَّ يفكر فيه طوال الوقت متسائلًا ما حكايته؟!..

كان هذا هو (برعى) بنحوه ولحيته المهملّة وجنونه.

لم يكف ذلك الرجل عن مراقبته وتعاشيه يومًا.. وظل عماد يجاهد مرارًا حتى يتحدث إليه ولو مرة واحدة ليعرف حكايته لكن ! جل كان في استعداد دائم للهرب من أمامه.

(10)

ظلَّ بدوى على جلسته الأبدية وعزّلتة الدائمة تحت شجرة البلوط بحديقة المستشفى يرقب العالم حينًا وترنو عينيه نحو الأفق أحيانًا أخرى. ودومًا كان مهمهم بكلمات غامضة، وهو يُخَبِّث أشياء لا يراها غيره. ظل هذا حاله لا يشعر بأحد ممن حوله حتى أتى عماد. هنا صار عماد قبلته التي يتبعها، تبحث عنه عيناها ولا تستقران حتى تعثران عليه، فتظلان معلقتان به بلا سأم أو ملل. حاول عماد مرارًا أن يُخَبِّث الرجل ليعرف لماذا يتبعه هكذا وماذا يريد منه. لكن بدوى لم يترك له الفرصة، فكان دومًا يلوذ بالفرار من أمامه كأنما يهرب من شياطين الجحيم نفسها، فيظل مختفيًا لبرهة ولا يعود لمكانه إلا حين يطمئن أن عماد لم يعد يبحث عنه.

جربَ عماد أن يسأل حكيم عنه يومًا، لكن الأخير اكتفى بابتسامته الباردة الساخرة قبل أن يقول باقتضاب:

-لا حكاية غريبة هنالك..أنه مجنون آخر ممن يصح بهم المكان، يخلق عشرات الهالوس والخزعبلات في كل لحظة دون أن يأنه به أحد. دكع من هراء ولا تفكر فيه.

لم تروى تلك الإجابة الساخرة المقتضية ظماً عماد، فجزب أن يسأل الدكتور سحر هذه المرة عنه..كان في جلسة علاجية معها وسالها عنه فرفعت رأسها نحوه بدهشة قبل أن تقول مبتسمة وهي تخلع نظارتها عن أنفها:

-ولماذا تهتم به؟..

-لست أنا من يفعل في الواقع، إنه من يراقبني طوال الوقت منذ البداية.

هنا بدا الإهتمام عليها وقالت:

-وهل هو الوحيد من يراقبك ويتابعك أم تشعر أن الآخرين يفعلون مثله.

أدرك مقصدها على الفور..ربما تخشى أن يكون هذا غرضاً آخر من أعراض مرضه المزعوم، وربما ظنت أنه مريض بجنون الإضطهاد ويعتقد أن الكل يراقبه ويترصده..لذا قال لها محدثاً:

-يا الله. بالله عليك يا دكتورة لا تخبريني هكذا. إنها ليست أوهام أو ضلالات. إنه بالفعل يراقبني.

-ولماذا تعتقد أنه يفعل هذا؟

-وما أدراني؟. ولهذا أسألك عنه كي أعلم لماذا يفعل.

اعتذلت على مقعدها وتركت الملف الذي كانت تطالعه، قبل أن تجيب سؤاله:

-حسنًا، سوف أخبرك. بدوى هو أحد المرضى القدامى هنا. أحد أشجار البلوط العتيقة بالمستشفى كما نسهم. أتى إلى هنا منذ عقود، وزعم أنه يرى الجن والأشباح ويحدثهم. رأى أطباءه أن هذا نوع من ضلالات انفصام الشخصية وتم علاجه بكافة العقاقير الممكنة طبقاً لهذا، بل وخضع كذلك للعديد من جلسات العلاج الكهربائي. لكن الغريب في الأمر أن استجابته للعلاجه كانت غير مرضية طوأل الوقت، فلم تنتهي تلك الأوهام من عقله، ولم نشهد تقدماً، حتى شعرنا باليأس، فتركناه وشأنه.

قلتها قبل أن تتسع 'بسماتها، وهي تميل نحوه، وتكمل بصوت غريب:

-ربما كان صادقاً في ما يدعيه دون أن ندري. من يعلم حقاً ما يدور بعقله، ربما كان يرى حقاً هؤلاء المخلوقات الغريبة، وربما ليس مريضاً بالمرء.

ارتجف جسد عماد وهو يتخيل أن يكون هذا الافتراض صائباً. هل يعنى هذا أنه يرى شيئاً ما لا يراه حوله ولا يشعر به. معادته الغريبة له حين حذره من قبل وأخبره أنهم وصلوا له فارتجف جسده وهمس:

- هل تعتقدين أنه ربما يكون صادقاً في ادعائه هذا وربما يرى أشياء لا نراها؟.

أطلقت ضحكة قصيرة حينها وعادت لتعتدل على المكتب وقالت ببساطة:

-إنني أمزح قطعاً يا عماد. فقط الرجل مصاب بخلل دائم في عقله لا شفاء منه

لم تكن الإجابة كافية له. لكنه قرر حينها أن يتجاهل بدوى وألاً يهتم به. ليراقبه أو ليدور حوله حتى كبندول الساعة. سيتركه وشأنه طالما لا يتعرض له.

لكن ما لا يعلمه الجميع هو حقيقة ما حدث مع بدوى. كان هذا قبل أكثر من أربعين عامًا. كان بدوى قد التحق بكلية الآداب في ذلك الوقت. وكان يهوى القراءة كذئذ زملانه في هذا الوقت. لكنه تعلق بشيء آخر غير القراءات الفلسفية والروايات. وجد نفسه يغرق في كتب الخوارق والجان والشياطين وعوالمهم الغامضة المستترة. حدث هذا بفضل الشيخ حنفي الذي كان يقطن بالطابق السفلي من العمارة الذي كان يعيش فيها. لازم الرجل وحضر معه الكثير من جلسات إخراج الجان، وهام بهذا العلم عشقًا، فصار يبحث عن الكتب القديمة التي تُخفى به. قرأ العديد من الكتب الثمينة مثل اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان. وإغاثة المظلوم في كشف خفايا العلوم. والجفر الجامع والنور اللاحق. وصادفه الحظ فأهداه الشيخ حنفي مخطوطة أصلية لكتاب شمس المعارف الكبرى لأحمد بن علي البونى. أخبره الشيخ أن ما بيده نسخة أصلية وكاملة للكتاب لم تنلها يد التحريف والحذف التي امتدت للكتاب عبر قرون من التداول.

قرأ بدوى الكتاب والتمعت في رأسه فكرة لم يدرك عواقبها الوخيمة في ذلك الوقت. فكر في أن يجرب إحدى التعاويذ التي بالكتاب، واختار أن يقوم بتنفيذ طقس يتيح له رؤية الموتى والجان. قام بتنفيذ التعاويذ ببراعة يحسده عليها أمهر السحرة، لينجلى أمام عينيه عالم من الفرع رأى فيه المردة والجان والشياطين وأرواح الموتى فذهب عقله، وأتى به أمله إلى 'استشفى ليخالج.. لكن العُطْبُ بعقله كان دائنًا، فلم يبرء منه وزن احتفظ بقدرته على رؤية هذا العالم الخفى حتى الآن..

تجاهله عماد لفترة من الزمن، لكنه وفي أحد الأيام وقد كان يجلس على مقعد رخامي بحديقة المستشفى، وجده يرمقه بذهول ودهشة. شعر عماد حينها بالغضب وقد سئم تلك الملاحظات الغير مفهومة، ووجد نفسه يندفع

نحوه ليرى ما هناك. لن يتركه هذه المرة ولو حاول الفرار كما يفعل كل مرة فسوف يتبعه ولو ذهب للجحيم. لكن بدوى خالف ما توقعه هذه المرة في أمرين. لم يفر من أمامه كما اعتاد أن يفعل من قبل. والأمر الغريب الآخر أنه بادره بالحديث فور أن اقترب عماد منه وعيناه تتحركان وتنظران للفراغ نظرات غريبة مريبة:

-إنهم يحيطون بك. إننى أراهم. انظر! ألا تشعر بهم؟!!

تبدد الغضب في نفس عماد وعاوده الذهول والرهبة. فقال بصوت مخنوق وهو يتلفت حوله بصورة تلقائية متوترة كأنما يبه - بعينيه عنهم: -من هم الذين تراهم وماذا يريدون؟.

زاغت عينا بدوى وراحتا تتحركان في كل مكان بجنون قبل أن يجيب هامسًا وهو يميل نحوه:

-هناك امرأة عجوز ميتة. لكنها تكركك كثيرًا. أستطيع أن أرى هذا في عينها. هناك أيضًا الكثير من الشياطين. إنهم غاضبون جميعًا. إنهم يريدونك، ويحدثونك طوال الوقت. ألا تسمعهم؟!

كانت كلماته مخيفة يخالطها الجنون، وفكر عماد بهلع. هل تكون تلك المرأة العجوز هي أمه. سيكون الرجل على حق في مزاعمه تلك، أم أنها هلوسات مجنونة يتوهمها عقلٌ تائف... شعر بالإعياء فقال بضغف:

-أنا لا أسمع شيئًا. أخبرنى لو كنت تسمعهم ماذا يقولون؟..

وجاءت إجابة الرجل سريعة على الفور حملت الفرع إلى قلبه. وراح يردد بصوت غريب مألوف:

وحوله العديد من الأشخاص الذين يتحدثون بسرعة وعصبية. كان أحدهم هتف قليلاً:

-ألا يجب أن ننتظر حتى يأتي طبيب التخدير

لكنّ أخراً أجابه على الفور:

-لا ضرورة لهذا أنه فاقد لوعيه ولن يشعر بشيء. دعونا نبدأ.

هنا اشتعلت النيران بجسده وهو ينتفض مع الدفقة الأولى من التيار الكهربائي بل لقد اشتعلت روحه نفسها. من ذلك الأحرق الذي زعم أنه لا يشعر بشيء؟. ومع الصدمة الكهربائية الثانية ماتت حنجرتة فلم يقو على إصدار أي صوت منها احتجاجاً أو ألماً. وجاءت الدفقة الثالثة لتطوِّح أمه خارج عقله. رآها ترحل عنه مبتسمة في تشبُّه وكأنما تهرب من تلك الآلام الرهيبة تاركة إياه لعذابه يقاسيه وحده. وجاءت الدفقة الأخيرة من التيار الكهربائي لتنتزع المارد الأسود نفسه من عقله. فراه يفر مذعوراً كأنما تطرده الكهرباء. رأى الأنوار البيضاء الساطعة تظهر من بعيد. وتعالَت عشرات الهمسات المربحة وهي تطالبه أن يلحق بها. أيكون هذا الموت؟!

لكن عقله غاب حينها في غيبوبة عميقة قبل أن يحصل على الإجابة. غيبوبة استمرت أياماً راح يخرج منها للحظات ليعود إليها ثانية كأنما يلوذ عقله بها من الألم والرعب. وبعد أسبوع كان قد تحسَّن كثيراً وزال الكثير من التشوش عن عقله وإن ظل جسده يعاني من الآلام مُبرَّحة.

وهنا علم ماحدث لبدوى. أخبره جمال بكل شيء حدث في تلك الأيام التي قضائها في غيبوبته حين جلب له الدواء. وكان ما حدث لذلك المسكين غربياً مُخيفاً.

"redire magister dryadalum vel peribis.. redire magister dryadalum vel peribis"

وقعت الكلمات على أذني عماد كالصاعقة وقد تعرفها على الفور. إنها نفس الكلمات الغامضة التي كانت ترددها الأصوات الهامسة على أذنيه..

redire magister dryadalum vel peribis.. redire magister dryadalum vel peribis

راح بدوى يرددها بلا توقف بصوتٍ رتيبٍ مخيف وقد تجمدت عيناه. ومن بعيد أتت الهمسات فجأة تُرْزِد مع بدوى الترانيم المخيفة. رأى أمه حينها تطوف حول الشجرة الواقف أسفلها. رأى الكثير من الكائنات الغريبة التي ظهرت من العدم وهي تحيط ببدوى وترتل معه التراتيل الشيطانية ككورال من الجحيم. ورغم أن تلك الكائنات الشيطانية كانت بلا وجه أو ملامح تميزها، لكنها كانت مفزعة.

ومن قلب الشجرة أتى. كان عملاق أسود اشتعلت عيناه وتوهجتا غضباً وعلى جانبي رأسه انحنى قرناه. رمقه للحظة ثم مدَّ ذراعيه نحوه وهو يقترب منه.

كان هذا فوق احتمالاه فراح يصرخ، ثم سقط جسده على الأرض وراح يتلوى قيل أن تأتيه التشنجات. كانت عنيفة هذه المرة كما لم يحدث من قبل. وكانت "تربلة" حتى أن كل الأطباء الذين هرعوا لنجدته قد أدركوها قبل أن تنتهي. راحت عشرات العيون ترافق جسده المنتفض بجيزة من يرى مثل هذه الانتفاضات العنيفة للمرة الأولى. وانتظر الجميع طويلاً حتى هدأ جسده وهمدت حركته فتعاونوا على حمله. أمرهم الدكتور أحمد أن يذهبوا به إلى حجرة العلاج بالصددمات الكهربائية. كان يشعر بالإعياء الرهيب فلم يترك كثيراً مما يحدث، لكنه شعر بنفسه مُقَيِّداً على فراش ما

مرعبة ذُكرته بنا رأد من قبل فارتجف. لكن ما جُمَدَ الدماء في عروقه كانت الكلمات المنقوشة أسفل تلك الرسومات البسيطة. كانت مكتوبة بخط صغير وواضح..

أبحث عنه أو اهرب منه!! لكن إياك أن يصل إليك. إنه هنا من أجلك! احتشد على جبهته حينها عرق كثير رغم برودة الطقس. وبدأ قلبه يدق بعنف نُوتراً وحيزاً. أتكون تلك الرسالة موجهة إليه كان يعلم الإجابة المخيفة. وظلت عيناه معلقةً -ساقوش- الكلمات لفترة طويلة.

(11)

هل هو مريض حقاً وهل يكون كل ما يحدث له وبراء هو جنون عقل مريض؟!

إنه يسأل الذي لا يفارقه ولا يعثر أبداً على جواب له. كل أطباء المصحة يؤكدون أنه مريض ويحاولون أن يقنعوه بهذا. الأم التي شانت من مس شيطاني له تكن كذلك. لكنك أنت يا عماد من كان مريضاً بضلالات أوحيت لك ذلك. ولدينا شهادة الدكتور محمد شاهين التي تدعم ذلك. ومن قتل الأم؟..

أنت من فعلتها. كل شيء يوحى بذلك. لقد كنت بمفردك معها في الشقة حينها ولا أحد غيرك بجوارها. كما أن التفسير الذي قدمته لموتها غير مقنع أو مقبول. كما أن التسكين قد اخترق عتقب من الخلف. في موضع من

بدأ الأمر مع نوبته التي أصابته. حينها راح بدوى يعدو في كل مكان كأنما يهرب من عَذْوٍ خَفٍ. كان يصرخ بفزع مطالباً الجميع بالنجدة من عدو خفى. لاحقه الكثيرون ويجهد هائل استطاعوا تقييده. كان مدعوراً ثائراً كما لم يحدث له من قبل. فطلب الدكتور أحمد منهم أن يذهبوا به إلى حجرة الملاحظة وأن يحققوه بالفايم لهذا. ففعلوا ما طلبه منهم واستمروا بجواره في حجرة الملاحظة حتى نام. حينها قِيدُوهُ في الفراش كي لا يؤذي نفسه لو أفاق فجأة ثم تركوه. لكن الصباح حَمَلَ لهم حَدَثاً مُفْزَعاً. دخل عليه أحد الممرضين، فوجده مُعَلَّقاً من رقبته في حلقة معدنية بالسقف مُجَرَّداً من ملابسه كلها وقد تحولت تلك الملابس إلى أنشودة شتى بها نفسه. كان الأمر غامضاً عجيباً يحمل معه الكثير من الألغاز المُهمّة.

أولها كيف تخلص من قيوده وقد كان مربوطاً بها بإحكام، وكيف استطاع أن يصل إلى السقف المرتفع الذي يناهز الأمتار الأربعة ارتفاعاً، ولماذا كان جسده كله موسوماً بعلامات دائمية محترقة كأنما وصمه أحد ما بالنار. ولماذا رُسم ذلك الرمز الغريب على صدره. ثعبان يلتف حول نفسه في دائرة يتوسطها جمجمة بقرنين..

تذكر عماد ذلك الرمز الذي رآه من قبل على الجدار في حجرة أمه قبل أن تموت. كان نفس الرمز الذي وصفه جمال له. ودار بعقله تساؤل مفزع. هل قتلت بدوى نفس الشياطين التي قتلت أمه؟..

بعدها وحين وجد نفسه قادراً على الحركة ثانية ذهب للشجرة التي عاش بدوى طوال عمره قابلاً أسفلها. لا يدري ما الذي دعاه إلى ذلك لكنه وجد نفسه يفعل. وهناك راح يفحص الشجرة فوقعت عيناه على النقوش المنحوتة على جذعها. كانت هناك امرأة طويلة الشعر وقد رسمها بدوى بعينين واسعتين تلهمان أغلب وجهها.. كان هناك الكثر من الكائنات الضليلة حولها وكان هناك المارد الطويل العينين المخيفتين. نقوش

المستحيل أن تكون هي من قتل نفسها، إذا لا يتبقى أمامنا إلا الاحتمال الوحيد المقبول والمعقول. أنت من فعلت هذا.

-وإذا كان هذا صحيحًا، فكيف لا أتذكر هذا؟!

- لا غرابة عندنا أن تقوم ببعض الأمور، دون أن تذكر أنك فعلتها. إنه الإنقسام وضلالاته اللعينة، ولست أول واحد يحدث له هذا. انظر حولك وسترى أن جميع المرضى قد فعلوا أشياء كثيرة لا يتذكرون أو يصدقون أنهم قد فعلوها. إن الأعيب العقل لا تنتهي، وحين يصير العقل مريضًا، يصبح أكثر جنونًا في العابه. وهذا ليس كل شيء. فلدينا التفسير المقتنع لما حدث. الذُهان اللحظي! فحين تتعرض لمؤثر ما، قد تفعل أشياء يُسقطها العقل من الذاكرة على الفور. ويصير من العسير استعادة تلك الذكريات ثانية، لذا قد يلجأ العقل الباطن إلى اختلاق قصة أخرى كي تملأ الفراغ الذي حدث بالذاكرة في تلك الفترة التي لا تتذكرها.

-إذا هذا يعني أنني مريض نفسي حقًا؟.

-هذا ليس عيبًا ولا يدعو للخجل..كلنا قد يحدث له ذلك..انظر حولك في المصححة وستجد المرضى من كل الفئات.. هناك الأطباء، وهناك أساتذة الجامعة وهناك المهندسين والمعلمين وغيرهم.. بل ولدينا في هذه المستشفى طيبين نفسيين فقدوا عقليهما وكانا من قبيل طبيبين هاهنا..كلنا يا صديقي قد يمرض ولا حرج في هذا أبدًا.

-وهل يعني هذا أنني سوف أشفى في يوم ما؟..

- هذا ما سوف يحدث حتمًا، مادمت تدرك طبيعة مرضك وتتعاوى العقاقير المناسبة، وتطرح عنك أوهامك جانبًا، فحتمًا سوف تُشفى..إنها مسألة وقت لا أكثر فلا تقلق.

-وهل قد أخرج من تلك المصححة يومًا ما؟..

-لو وجدنا أنك قد شُفيت تمامًا فسوف نخرجك على الفور.. صدقني إننا لا نرغب في إبقاءك هنا للأبد.

دار هذا الحديث بينه وبين الكثير من الأطباء عشرات المرات طوال الأعوام، التي تقترب من السبع، التي قضاهما في المصححة النفسية. كلهم كان يؤكد له أنه مريض وأن السبيل الوحيد لشفائه أن يقتنع بمرضه كي يبدأ عقله في تميز الضلالات من الحقائق.

ومع هذا الكم من الآراء المتشابهة لم يعد أمام عماد إلا أن يتقبل ما يؤكدونه. إنه مريض بالقسام بالفعل. وكل الذكريات التي بناها عقله حول أمه وحول موتها كان من اختلاق عقله الباطن حتمًا. بل وحتى تلك الحادثة المزعومة لـ "بدوى"، ذلك المريض النفسي الذي شهد نوبته الأعنف هنا في المستشفى والذي مات بعدها تاركًا آثارًا لا تمحى على جذع الشجرة التي ظل عمرًا يقبع أسفلها، ربما تكون هذان جماعيًا لعقليهما. هذا ما أكتنه له الدكتور سحر مرزا حين ترى تشككه في عينيهِ. إنهما مريضان بالضلالات ويران ما لا يراه غيرهما ويرقب كل منهما الآخر، وربما تُخذلًا سويًا من قبل عن أوهامها فغرسا تلك الأوهام في عقليهما وصارت ضلالات مشتركة بينهما..

لكن ماذا عن موته الذي ما زال لغزًا؟. هنا راح الدكتور خالد يؤكد له أن هناك تفسيرًا ماديًا لما حدث. ربما فعلها أحد المرضى الآخرين في غفلة من المرضى والأمن..

إذا هو في دائرة تبدأ وتنتهي عند نقطة واحدة. إنه مريض نفسي، وعليه أن يقتنع بهذا ليبراً من مرضه..

لم تغادره الهمسات تمامًا، ومن حين لآخر كان يرى شيخ أمه حوله. حينها كان يصاب بالهياج ويأتي الصداع العنيف الذي قد يصل للتشنجات.. لكن العقاقير القوية التي كان يتناولها حدث كثيرًا من تلك النوبات فصارت تاتيهِ في أوقات متباعدة، قد يفصلها عن بعضها البعض شهرًا طويلاً..

مضت الأيام عليه طويلة رتيبة متشابهة.. وكان أكثر ما يزعجه في المستشفى هو حكيم. ذلك الممرض البارد الذي يثلثذ بالتحكم في المرضى وإيذائهم. ومع الوقت عُرفَ عنه الكثير. إن المستشفى مجتمع صغير في النهاية ولا شيء يمكن إخفاء فيه للأبد. علم أن هناك من المرضى الأثرياء من يدفعون له الرشاوى والهدايا كي يَکفَ عنهم ويتركهم وشأنهم. وعلم كذلك أنه يتاجر مع باقي المرضى في الكثير من المنوعات. كان يبيع السجائر بأضعاف ثمنها، وكان يبيع الأقراص المخيّرة لمن يدفع، وسمع عماد بعض الإشاعات التي تتحدث عن أنه يجلب المخدرات كالهروين للبعث مادام يدفع. هذه الإشاعة البشعة ردها البعض وأكّدها له عم مدبولي، لكنه لم يتيقن منها أبدًا.

كان يرى ما كان يفعله مع باقي المرضى الذين لا يمكنهم إعطاءه ما يرغب فيه من مال أو هؤلاء الذين لا يحتاجون ما يقدمه للآخرين من منوعات. هنا جعلهم يقومون بكل شيء، من تنظيف العنابر وغسيل الملابس وتنظيف الحديقة، وغيرها. لم يشعر يومًا عماد أن رجلًا كهذا يمتلك قلبًا في جوفه، كان يرى أنه قد جُرّدَ من مشاعر الشفقة كلها. وكيف لا يشعر عماد بهذا نحوه وهو يرى كيف يسيء معاملة الكثير من المرضى وخاصة كبار السن والذي تجاوز بعضهم العُقد السادس أو السابع من عمره. كان من المعتاد أن يصفعهم على وجوههم أو يركبهم بقدمه على بطونهم ومؤخراتهم دون مراعاة لمرضهم أو سنهم وشيخوختهم لو أخطأوا أقل خطأ.

بالطبع لم يكن يفعل كل هذا بمفرده، فهناك جمال وباقي الممرضين الذين يأمرون بأمره ولا يعصون له أمرًا. إنه هنا كبيرهم الذي يدينون له بالولاء والطاعة. شعر عماد أن هؤلاء يَكُونُون عصابة أو مافيا بالمستشفى وراح يتعجب كيف يتركهم الأطباء هكذا دون ردع.. طرح يومًا حيرته وتساؤلاته تلك على الدكتورة سحر التي أجابته بما أدهشه:

-لا أخفي عليك سرًا لو أخبرتك أننا نعلم بالكثير من تلك التجاوزات.. لكن لا حيلة لنا في الأمر، حتى لو جاء إلينا مريض ما وشكى أحد الممرضين. إنهم حينها يَنجُدُون سويًا لِيُنْكِرُوا التهمة عن زميلهم، ودومًا هناك الحجة الجاهزة المُعَدَّة سابقًا. إنه مريض ويخلق تلك الشكوى. وحتى لو صدّقنا المريض وعاقبنا الممرض عقابًا ما، فلن يردعه هذا كما تظن. إن خصم يوم أو يومين أو حتى ثلاثة أيام من راتبهم لا قيمة له عندهم.

شعر بالعجز من كلماتها، هل هذا يعني أن تترك المرضى هؤلاء فريسة لتحكمات هؤلاء الممرضون.. إن الصمت على جريمة كهذه هو مشاركة في اقترافها. ووجد نفسه يطرح تساؤلًا آخرًا عليها:

-وماذا عن حكيم.. إنه من يُخَرِّك باقي الممرضين ها هنا، يمكنكم التخلص منه ونقله لمكانٍ آخر، وحتماً سيُضعِف هذا الآخرين.

هنا ابتسمت في وجهه مشفقة من تفكيره وأجابه:

-ليس الأمر بهذه البساطة التي تعتقد، فحتى لو ذهب حكيم فسيكون هناك ألف حكيم غيره.. إنه سلوك وتعود يمارسه الكل. إن حكيم هنا لا يُمَثِّل إلا قمة الهرم الفاسد. الحائط الذي يتلقى الطعنات والضربات عن الآخرين. لكن الفساد في نفوس الباقين هو الشيء العسير على الإقتراع.. هل تظن أن تلك التصرفات كان حكيم من ابتدعها.. مُخَلِّئُ أنت لو اعتقدت هذا.. من قبل كان هناك سلامة، وقبله كان هناك رفاة

وغيرهم.. كل هؤلاء دولة واحدة للفساد تتغير أسماءهم لكن عقولهم ونفوسهم الفاسدة لا تتغير.

كلماتها تعني أنه لا أمل، فصمت قهراً وغيظاً. من حسن حظه أن حكيم أو أي ممرض آخر لم يضايقه بصورة مباشرة. كان يرى في أعينهم خوفاً ما مَنَّهُم منه.. هل رعاية الدكتوراة سحر له هي السبب. كان هذا احتمالاً بعيداً. ربما ما حدث مع بدوى من قبل هو السبب. إن قتله كان بشعاً غربياً، فهل تراهم ربطوا ما حدث لبدوى به. كان هذا الاحتمال هو الأقرب لقبوله.. في الواقع كان هذا من حسن حظه.

لكن المعاناة مع الآخرين لم تنقطع. ووصل الأمر الى التسبب في مقتل أحدهم، وكان هذا عم مدبولي. صديقه العجوز الذي يؤنس وحدته في المكان.. كان يطيع جميع الممرضين، وينفذ ما يطلبونه منه، رغم وهنه وشيخوخته وضعفه، ظناً منه أن هذا ما يجعلهم يبقونه بالمستشفى ولا يطردونه للخارج.. لكنه في النهاية سقط فريسة للمرض بغتة فارتفعت حرارة جسده وراح يسعل بعنف فرقد بالفراش. لكن حكيم لم يرحمه، وما أن لاحظ تحسن حالته قليلاً حتى طالبه بالقيام بما اعتاد عليه من تنظيف العنابر. لم يقوَ الرجل رغم مرضه على الرفض فنهض بوهن وراح يفعل ما أمر به، وهو لا يقوى على رفع رأسه. سقط في المياه التي كان يُنظَّف بها بلاط العنابر مراً، فراح جسده ينتفض مرضاً.

وحين انتهى من تنظيف العنبر كان جسده هو الآخر قد انتهى.. فَقَدْ وُعِيَ فتعاون المرضى الآخرين على إرقاده على فراشه وكان عماد أحدهم.. وقاموا بتغيير ملابسه وهم يلعنون حكيم الذي فعل به هذا في أعماقهم.. في المساء راح الجسد الضعيف الواهن ينتفض من الحرارة المرتفعة للغاية والتي تجاوزت الأربعين درجة حتماً. وأتى الصباح حاملاً النهاية لرجل عاش عمره بالمستشفى ومات بسببه. ومات عم مدبولي.

جُنْ جنون عماد حينها وقد رأى أن حكيم هو من تسبب في موته.. وما أن رآه قادمًا حينها ليرى ما حدث حتى وثب عليه مُخَاوِلًا تمزيقه. لكن حكيم لم يكن ضعيفاً وفوجئ عماد بالضربات تأتيه من كل مكان، نحو كل جزء من جسده بيد حكيم وغيره من الممرضين الذين تألبوا ضده. شعر بالدماء الحارة اللاذعة في فمه وأحس بالضربات التي تُرْزَلُ روحه. في النهاية فقد وعيه وحين أفاق علم أنهم قد حبسوه في غرفة منفردة لخطورة حالته كما ادَّعَوْا. وكان آخر ما سمعه هو صوت حكيم يهمس في أذنه في قسوة:

- أنت رجل ميت يا أحمق. لا تنتظر أن تحيا طويلاً بعد الآن. لقد انتهى أمرك. هذا وعد مني!.

(12)

أفاق فتمنى لو أنه لم يفعل. ليته ظل في غفوته للأبد. كان الألم لا يُحْتَمَلُ وكل ذرة من جسده تئن وتصرخ. شعر أن جفنيه يَزْنَانِ أطناً فلم يقدر على فتحهما، واحتاج لساعات أخرى كي يكتشف أن العين اليمنى يمكنها أن ترى بعض الضوء لكن اليسرى لم تفعل. كانت ذراعيه تؤلمانه بشدة وقد تحول قفصه الصدري لأسياخ من اللهب تكويه. هل هَسَمَ الأوغاد ضلوعه حين ضربوه؟

شعر بالعجز، وهو يشعر بكرامته التي أهذرت ورجولته التي استُئِخِخت. تمنى لو كان ضَرَبَهُم هذا أقصى لموته. ربما لم يكن حينها ليشعر بالمرارة التي تلتصق بحلقه الآن. لكنه عاش. عاش لترتفع مرارة العجز والهزيمة في نفسه، ولتنبو بذور الكراهية والإنشقاق في نفسه.

لقد صار بينه وبين هؤلاء ثأر لن ينساه أبدًا. ويومًا ما سوف يحصل على ثأره.

بعد ساعات من الألم والانتظار دخل عليه أحد ما. آزاد أن يتكلم فأعجزه الإعياء فلا بصمته. لكن ذلك الشرير لم يتركه فراح يضغط بإصابعه على عظامه ربما ليزيد من ألمه، فأفلتت صرخة ألم من فمه لم يقدر على كبثها. لحظات بعدها وأحس بطعم أقراص الدواء المرة في فمه فأراد أن يلفظها، لكن من دفع تلك الأقراص في فمه لم يدعه يفعل، وضغط على صدره فصرخ ثانية، وسمع ذلك الغريب يهمس في أذنه:

-ابتلع دوائك أو احتمل هذا الألم للأبد.

كان الألم وحشًا شرسًا، لا قبَل له به فابتلع الأقراص المرة مُجبرًا ومرة أخرى تحدّث إليه الغريب الذي لم يتبينه قبل أن يتركه:

- حكيم يُبلغك تحياته.

تمنى لو كان عقله صافيًا ليعلم من كان هذا، ولماذا هدده بحكيم.. لكن لحظات من الدوار العنيف اكتنفته فجأة، بعدها زال الألم تمامًا، وذهب ثم لم يشعر بشيء..

في اليوم التالي تكرر الأمر نفسه. يستيقظ من نومه ليصطدم بالألم التي لا تُطاق وتمر ساعات بطنية من الانتظار قبل أن يأتي أحد ما ليعبث بعظامه فيطلق في جسده ألسنة من لهب الألم. وبعدها ومع اللهاث والعرق يدفع ذلك الغريب الحبوب المرة نحو فمه مُرغمًا إياه على تناولها ليخفت الألم بعد حين ويفقد وعيه.

وفي اليوم الثالث تحسنت قدرته على الرؤية بعينه اليمنى قليلًا، لكن الألم لم يخفت.. ورأى من دخل عليه هذه المرة.. دارت عينه نصف المفتوحة معه فلاحظ الأخير ذلك وقال ساخرًا:

-أرى أن إحدى عينيك قد عادت لتعمل. عليك أن تستمتع بهذا الآن يارجل. فكل يدوم هذا طويلًا.

كان حكيم هو من يحدثه هذه المرة. حاول أن يدفعه ويبعد يده الممتدة بالدواء نحو فمه فلم يقدر، وبلا مبالاة دفع حكيم يده الممتدة، فجاء الألم رهيبًا. وابتلع الأقراص المرة رغبة عنه وسمع حكيم يقول:

-لقد انتهيت أيها الأحمق. كان عليك أن تفكر جيدًا قبل أن تفكر في الإعتداء على.

خفت الألم وعاد الظلام ثانية. ثم تكرر الأمر لأيام طويلة. خفت الألم لكن ذهنه عاد مُشوَّشًا ولم يعد بقادر على التفكير في أي أمر. وفي اليوم الذي استطاع فيه ثانية الجلوس بمفرده على حافة الفراش عاودته الهمسات والرؤى المخيفة. عشرات العفاريت التي تحيط به ومئات الوحوش التي تبغى الفتك به والهمسات المخيفة التي تطارده. راح يصرخ في جنون. وجاءه ممرض ما وحقنه بشيء ما ذهب بوعيه، لكنه ما أن أفاق حتى عاودته الرؤى الرهيبة. راح يصرخ طلبًا للنجدة لهرع إليه أحد الأطباء هذه المرة وطلب من الممرض الذي برفقته حقنه بمهدئ ما.. ثم يفقد وعيه ليقيق بعد ساعات إلى أوهامه التي خيّرتة وحيرت أطبائه..

أعطوه المهدنات والمنوّمات لتصبح حياته رتيبة، يقيق ليرى تلك الهالوس فيتناول دوائه ليفقد وعيه لساعات ثم يتكرر الأمر.

لم تشعر الدكتوراة سحر بالراحة مما يحدث.. هناك أمر ما لا تفسير له في حالة عماد. لماذا تدهورت حالته هكذا ولماذا لم يجد يستجيب لعلاج

كالسابق. لاح لعقلها حاجسي ما فذهبت إليه. كان في غيبوبته حينها فدفعت مَحَقَّنًا جلبته معها في وريده وسحبت بعض دمانه ثم ذهبت للمعمل. طالبهم هناك بفحص نسبة العقاقير في تلك الدماء، وحين ظهرت نتيجة الفحص، علمت الحقيقة المريبة. كان دمانه مشبعة عن آخرها بالعقاقير المخدرة التي تسببت هلوسات. كان هذا يعنى أن المرضى يتعمدون إعطائه تلك الأدوية لدفعه للجنون..

أخبرت الجميع وتم التحقيق مع جميع المرضى والأطباء المسؤولين عن عماد وانتهى الأمر إلى تغيير المرضى المسؤولين عن عماد بأخرين أكثر ثقة.. كان مؤسفًا أن التحقيق لم ينجح في ضبط الفاعل الحقيقي بين المرضى وإن كان الجميع علم من يكون.

تحسن عماد هذه المرة.. وحين عاد لصحته ثانية وعلم ما حدث له.. علم ما فعله حكيم معه وكيف كاد يدفعه لجنون لا شفاء منه.. وكأنَّ ثأرًا آخر نما بينهما فَعَلِمَ انه لن يتركه وشأنه أبدًا بعد كل ما فعله.. مضت أيامه بعدها هادئة كمستنقع يحوى ماءً راكدًا.

لم ينسى ولن ينسى أبدًا ما حدث له من حكيم وما فعله مع عم مدبولي.. يومًا ما سيخرج من المستشفى وسوف يبحث عنه لينتقم..

يومًا ما سيفعل..

كان متأكدًا من هذا..

الفصل الثالث

الشيخ الأسود

(قبل 100 عام)

Looloo

www.looloolibrary.com

ازدحم بهو القصر الفخم بالحضور. ارتفعت الضحكات وانتشر المرح. وُقِرعت الكؤوس في بعضها أملاً في صحة تدوم، وتبادلوا الإحناءات في تحيات حارة أو باردة. تنحى البعض ليتحدثوا حديثاً سرياً، يدرك الكل أنه لن يخرج عن توقع الخطوة التالية للإنجليز بعد أن أصدر الخديوى عباس حلمى الثانى، عفوه عن 9 من المتهمين في حادثة دنشواى الشهيرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة. لن يُرضى الأمر الإنجليز وكل الإحتمالات بعد ما فعله صارت ممكنة..

إنه بداية العام 1908..

وكان الحدث حفلة صاحبة أخرى في قصر إسماعيل باشا مراد عبدالشكور! كان إسماعيل باشا رجلاً مختلفاً عن أهل زمانه. كان رجلاً عصريّ الثقافة، أوروبى النشأة والتفكير، كما كان بهوى الغموض والمفاجآت ويتقن تنفيذها. وكانت حفلة اليوم مختلفة. فالיום هناك المغنى الشهير الذى ستنهى به السهرة "عبده الحامولى"، وهناك أيضاً الفاتنة الشامية التى سترقص بين الحضور في هذا الحفل لتسلب لُهم بحلاوتها ورساقتها. وفي النهاية هناك مفاجأة أعدها لضيوفه ولم يُفصح عنها.

مالَت على أذنه إحدى الفاتنات المتبرّجات، وقد ارتدت فستاناً لينياً طويلاً بلا أكمام وهمست بدلال:

-ألم يحن الوقت لُفصيح لى عن مفاجأة الليلة يا إسماعيل باشا، أم مازال الأمر سراً؟

لكنه رد عليها برقة وغموض دون أن تفارق ابتسامته شفتيه:

-لا أسرار حتماً بين الأصدقاء يا جولنار هانم.. لكن المفاجأة تفسد حتماً لو كُشِفَت قبل حينها، ألا توافقينى على ذلك؟...

ثم تحرك نحو ضيف جديد وهو يهز رأسه وعينيه بتحيات مقتضية للحضور من حوله وعيناه تنتقل للساعة الضخمة في صدر البهو.. بعد خمس عشرة دقيقة سينتصف الليل ليلقى على الحضور مفاجاته التى يعلم أنها ستهمهم كثيراً! وستصير حديث المجالس طويلاً..

الموسيقى العذبة الهادئة تصدح في المكان وبعض الحضور من الأزواج والعشاق كانوا قد ذابوا في رقصات حاملة هامسة، وفي ركن قصي من الصالة توقف شاب وسيم يُحدِث زميلاً آخر وعيناه مُغلقةً بالفاتنات، يرمقهن بعينين جائعتين، وحتى اقترب منه أحد الخدم بلباسه الطويل المخطط الشهير، وهمس في أذنه بكلمات زادت وجهه احتقاناً فوق احتقان الخمر الذى احتسى الكثير منه، وهو يُسلِّمُه فصاصة صغيرة، طالع الشاب ما بها على عجل، ثم التفت الى إحداهن وكانت ترمقه بإعجاب، فحياها بهزة رقيقة من رأسه قبل أن يستأذن صاحبه، ويسبقها إلى الشرفة تسبقه أمنيات غير برينة.

لكن كل هذا توقف فجأة حين أعلنت الساعة الضخمة في منتصف بهو القصر منتصف الليل بدقات قوية. هنا تحولت العيون كلها لإسماعيل باشا. عدَّل الرجل من بذلته ال(سموكينج) السوداء، ورسم على شفتيه أكبر ابتسامة ممكنة، وتحرك نحو منتصف البهو تماماً حيث قبعت الفرقة الموسيقية خلفه وقد توقفت عن عزفها، واستعد لأن يتحدث إلى ضيوفه حين لَوْح أحدهم نحوه بذراع مُترنَّج تحمل كأس خمر فارغ:

-إذاً فهذا وقت مفاجاتك يا باشا؟!

-إننى هنا لأقدمها لكم جميعاً يا فوزى بك..

وصمت للحظة ليجذب انتباه الجميع قبل أن يعاود حديثه.

-أعلم أن الكل يترقب هذه المفاجأة التي أعلنت عنها في دعوات حفل الليلة، ووصلني أن البعض يهمس أنها فرقة بيلشوى روسية، واعتقد البعض الآخر أنها تلك الراقصة الشامية الصغيرة التي لا أذكر اسمها الآن.. في الواقع يؤسفي للغاية أن أختب ظن من اعتقد كل هذا.. فالمفاجأة هذه الليلة مختلفة تمامًا. وأعتقد جازمًا أنها ستروق للكثيرين منكم..

قاطعته هذه المرة امرأة مُتصَابِية في العُقد الخامس من عمرها ترتدي فستانًا بلا أكمام قصير كشف عن الكثير من جسدها، وقد لَطُخَتْ وجهها بأصباغ ثقيلة رمت ملاحظة قديمة في وجهها، وبدت مُترَبِّحة للغاية من سُكرها، وهي تهتف بنزق:

-ربما حضرت ملكة بريطانيا لتشاركنا الحفلة، دعونا نشرب نخب الملكة يارفاق.

ضجَّ الحضور بالضحك، وانتظر الرجل لحظات حتى يبدأ الحضور قبل أن يكمل بصوتٍ ينضح إثارة وتشويقًا:

-ما رأيكم أيها السيدات والسادة في السحر والسحرة. هل يؤمن أحدكم بتلك الأمور، وهل تعتقدون في وجود سحرة حقيقيين؟..

أجابه أحد الوزراء في تلك اللحظة مُحَاوِلًا أن يبدوردهً خفيف الظل:

-إنها ألعاب حواء يا إسماعيل باشا. خداع وخفة يد لا أكثر.

-هذا حق يا دولة الباشا، لو كنا نتكلم عن حواء في السيرك. لكني اتحدث عن السحر الحقيقي. أتحدث عن أناس قادرين على فعل الخوارق وتغيير طبائع الأشياء. يؤسفي مما أراه على وجوهكم أن أعتقد أنني الوحيد هنا من الذي يعتقد في وجودهم.

تعالَت الهمهمات المرتفعة المتداخلة للحظات، قبل أن يقول من بين الجمع أحدهم:

-وهل للسحر والسحرة صلة ما بمفاجأة الليلة؟..

-صلة وثيقة للغاية، لكن في البداية هل سمع أحدكم عن "الليستر كروالي" من قبل؟..

تبادل الحضور النظرات والهمهمات ثانية. بدا البعض وكأنهم لم يسمعوا بهذا الاسم من قبل وبدأ على وجه البعض الآخر أنه يعلمه وقال أحد هؤلاء له:

-أعتقد أنك تتحدث عن الساحر الإنجليزي العظيم. إنه أشهر السحرة في هذا العصر يا إسماعيل باشا.

-رائع أن يعلمه البعض، ولكن دعوني أخبر الآخرين الذين لم يسمعوا أي شيء عنه.

قالها وتحرك حركات مسرحية اعتادها وقال بصوتٍ خفيض مؤثّر:

-إن الجزء الأول من مفاجأتي أيها السيدات والسادة هو هذا الساحر العظيم الذي لُيَّ دعوتي الليلة وحضر إلى قصرى المتواضع كي يُبهر الحضور بما يقدمه. إنه أشهر السحرة الحقيقيين. إنني أحذركم أن تبخسوا حقه، فما يقوم به ليس أبدًا ألعاب هواة وليس خُفّة يد وخداع. إن الأمور التي يقوم بها حقيقية تمامًا. لقد أبهر العالم كله بسحره وحن الوقت ليُبهرنا بما يقوم به السيدات والسادة، دعوني أخبركم أن هذا ليس كل شيء هذه الليلة. لقد وصلني خبر شيخ أزهرى محترم سمعت أنه يقوم بالأعاجيب هو الآخر. ولقد قبل هذا الشيخ الفاضل أن يأتي الليلة ليتحدى أشهر السحرة في العالم في قصرى المتواضع، ولهذا أتوقع أن

نشهد الليلة صراعًا فريد لم يره أحد من قبل. الساحر الإنجليزي العظيم في مواجهه عجائب الشيخ الأزهرى، فلمن الغلبة؟ هذا ما سنتعلمه جميعًا في نهاية هذه الليلة المشهودة.

وصمت وقد ارتفع الصخب والجدال بين ضيوفه، وجالت عيناه بينهم، وبعد دقيقة عاد ليتحدث بلهجة مسرحية:

-السيدات والسادة، دعونى فى البداية أقَدِّمَ لكم ساحرنا العظيم، اليستر كراولى.

ومن أحد الرذفات الجانبية خرج الرجل. شقَّ طريقه بين الحضور وابتسامة ثقة تزين وجهه. أفسح الجميع له وهم يرقبون ملامحه الحادة وشاربهِ الطويل الغريب، ورأسه الحليق تمامًا ونظراته الشيطانية الحادة. كان يرتدى خُلَّةً أنيقة ذات لون رمادى وقد ارتدى في يديه قفازًا أسودًا طويلًا. تحرك نحو منتصف الهو الضخم حيث إسماعيل باشا الذى صافحه بحرارة قبل أن يتوقف إلى جواره للحظة وعيناه تتحرك بين الحشد ثم انحنى لهم انحناء خفيفة مُخَبِّيًا. ران الصمت والترقب على المكان للحظة وشعر الكثيرون بعدم الراحة. كانوا محقين تمامًا فالرجل يبعث بوجوده إحساسًا خفيًا بعدم الراحة. وبعد لحظات عاد إسماعيل باشا ليتحدث :

-والآن دعونى أقدم لكم الشيخ عبدالله المنيأوى ضيفنا الآخر فى هذه الليلة.

تحولت العيون إلى الناحية الأخرى حيث خرج من الممر المقابل شيخ أزهرى يرتدى الكولة والعمامة الأزهرية التقليدية. تحرك هو الآخر بهدوء بين الحشود وقد خفض رأسه قليلًا حتى تتوقف بجوار إسماعيل باشا الذى حيَّاه هو الآخر بحرارة وتسَمَّرَت أعين الحضور جميعًا بين الرجلين.

كانت ابتسامة استخفاف تُفصِّح عن نفسها بقوة على وجه كروالى وكأنما لا يبال بِمُتَحَدِّيه. وفى المقابل بدا وجه الرجل هادئًا بلا أى انفعال عليه، قبل أن يفاجئهم الشيخ متحدًا بإنجليزية سليمة أدهشتهم:

-اسمحوا لى أن أتحدث بالإنجليزية كى يعى السيد كروالى كلمائى وقد علمت أنه لا يفهم العربية. إننى أريد أن أخبره أن مايقوم به هو درب من دروب السحر الأسود اعتدنا هنا أن نحاربه، لقد سمعت كثيرًا عما يقوم به، ولهذا أتيت اليوم إلى هنا لأدحض ما يقوم به.

لم يصبر كروالى على ما قاله فأجاب من فوره بحدة:

-أتمنى أن يحتفظ الشيخ بأرائه حتى نهاية اليوم، اعتقد أنه سيكون أكثركم انهازًا حين يرى ما يمكننى أن أفعله.

عادت المهمات ثانية والعيون تنتقل بين الرجلين وبدأت المراهنات السرية بين الحضور، وبعد لحظات انتهت المراهنات وقد صُبَّتْ أغلبها فى ناحية كروالى. أفسح بعدها إسماعيل باشا المكان للإثنين قبل أن يشير الشيخ عبدالله لكراولى وهو يلتنى هو الآخر جانبًا أن يبدأ..

توقف كروالى فى منتصف المكان وأشار لبعض معاونيه الذين ظهروا من بين الحضور. أطفأ أحدهم أضواء القصر جميعًا إلا من كشافٍ وحيدٍ أضاء منتصف الهو حيث وقف كروالى. وقال الرجل وهو يُلَوِّحُ بيديه فى الهواء بحركاتٍ غريبة:

هل تعلمون أن أجدادكم كانوا دومًا أعظم السحرة فى التاريخ. لقد امتلك كهنة أمون ورع وتحتوت حكمة القدماء وورثوا فنونهم المذهلة وقواهم السحرية الغامضة وسادوا بها العالم أجمع.. إن تاريخ الفراعنة فى الحقيقة هو تاريخ السحر. أقول هذا قبل أن أقَدِّمَ لكم فى البداية أمرًا بسيطًا، اتقنه كهنة أمون فى القَدِّم..تحدى الجاذبية والارتفاع فى الهواء.

وأغمض عينيه وبدأ يتمتم بصوت خافت كلمات غامضة. واحتقن وجهه بشدة قبل أن يبدأ جسده في الإرتفاع عن الأرض. شق البعض دهشة، وحبس البعض أنفاسه من الإثارة، وقالت أنسة جميلة وهي تخفى فيها بكف يدها الصغير:

-رباه. إنه يطير.

ظل الرجل على وضعه هذا لدقيقة قبل أن يهبط ثانية نحو الأرض على قدميه، ثم يفتح عينيه وقد امتلات جهمته بالعرق، وقال بثقة:

-كما ترون لا خدعة هناك في مافعلته، لقد طرت في الهواء كما شاهدتم جميعاً، فما رأى شيخنا في هذا؟

لم يُجِبْهُ الشيخ عبدالله، واكتفى بالتقدم نحو منتصف القاعة وقال بهدوء:

-أضيئوا الأنوار.

عادت الأضواء لتضيء المكان ثانية، وجلس الشيخ على الأرض مُتَرَبِّحاً ثم صاح بقوة:

-بسم الله القوى القادر صاحب الهبات السخية والمنح الجليلة والقدرات الخفية الالهية. بسم الله

ثم خفض من صوته وهمهم بعدها بكلمات مهمة، قبل أن يرتفع جسده عن الأرض. لم يرتفع ارتفاعاً قليلاً كما فعل كروال. بل ارتفع لمتراً كاملاً وهو في كامل وعيه، ودون أن يبدو على وجهه أثر للمجهود ما، ظل هكذا لدقيقتين والعيون مُعَلِّقَةً به بإثارة، وهو يدور برأسه بينهم قبل أن ينخفض ثانية.

صَنَجَتِ القاعة بالتصفيق وهي لا تُصَدِّق ما فعله الشيخ، واتسعت ابتسامة إسماعيل باشا إعجاباً بالشيخ الهادئ، وبدأ التوتر على وجه كروال الذي قال بعد أن توقف التصفيق:

-أعترف أن الشيخ عبدالله قد قَدَّمَ عرضاً مُهِمّاً لم أره من قبل.. لكنني لم أخرج إلا القليل من جُعبتي المليئة بالكثير.

وتأخر الشيخ ثانية ليُفسح له المكان فأشار كروال لمساعدة فهرع إليه أحدهم حاملاً سيفاً طويلاً وتعاون آخرون على جلب منضدة خشبية ووضعها أمامه.. عاد كروال ليبتسم وقال:

-والآن أخبروني.. هل يعتقد أحدكم أنني لو قمت ببيتْر مَعْصِيَتِي هذا سيعود ثانية إلى مكانه.

صرخت إحدى الحضور فزعاً وهي لا تتخيل ما هو مُقَدِّم عليه، فنظر نحوها وابتسم مُطمَئِناً، ثم وضع يده اليسرى فوق المنضدة الخشبية وأشار لمساعدة الذي يحمل السيف فتقدم نحوه بلا تردد وفوجئ الجميع بالسيف يهوى على كفه فيبتره:

تعالَتِ الشهقات والصرخات، وفقدت إحدى السيدات وعيها من هول ما تراه.. وبينما انحنى نحوها البعض ليرعاها، راح الآخرون ينظرون بتوتر لليد التي بَيَّرَ كَفُّهَا وراح الدم ينهمر منها بغزارة، والرجل مازال في مكانه منسحباً باسماً لا يبدو عليه أثر ألم أو تأثر بما حدث لِيَدِهِ، بل راح يُخَرِّكُهَا أمامهم كأنما يُرَبِّهِم أن الأمر حقيقي بلا خداع..

بعد لحظات انحنى مساعده والنقط اليد المبتورة ووضعها على المنضدة التي اقترَب منها كروال وقَرَّبَ ذراعه المصابة من الكف وضع المساعد ملاء سوداء عليها وغطَّاهُما.. وسمع الجميع كروال يقول:

والآن دعونا نرى ما الذى يحدث.. هل تعود اليد المبتورة لمكانها؟.. هل تنتظرون أن يحدث هذا؟..

وبدت حركات عنيفة من أسفل الملاءة السوداء ومضت لحظات من الترقب قبل أن يُخرج كروالى يده ببطء من أسفل الملاءة.. كانت سليمة تمامًا من غير سوء..

كان هذا مُهراً كأقصى ما يكون، وضُجَّت القاعة بالتصفيق الذى استمر لدقائق طويلة وكروالى يتابعها بثقة ومن حين لآخر ينظر باستخفاف نحو الشيخ عبدالله الذى تابع ما جرى محتفظاً بهدوءه، وحين كُفَّت الأيدي عن التصفيق تحرك مرة أخرى نحو منتصف القاعة فأفسح كروالى له المكان.. لم يتحدث الشيخ، بل اعتلى الطاولة الخشبية التى أحضرها مساعدي كروالى والى عادت نظيفة بلا دماء بصورة عجيبة، فجلس فوقها ومدد قدميه قبل أن يشير لمساعد كروالى الذى يحمل السيف أن يهوى به على قدميه..

توتر الرجل وزاغت عيناه للحظة وهو لا يدرى ما عليه أن يفعله.. لكن كروالى هز رأسه له أن يفعل.. فتحرك بتردد نحو الطاولة ورفع سيفه عالياً ورمق الشيخ نظرة أخيرة كأنما يستيقن منه، إن كان يرغب فى الإستمرار أم لا، لكن الشيخ ابتسم فى وجهه مُطمئناً فهوى السيف الحاد على القدمين فبترهما..

هوت القدمين على الأرض ومعهما هوت المزيد من الأجساد المُغشى عليها من الفزع، وتابع الباكون ما يجرى بذعر حقيقى.. هذه المرة لم يكن هناك نقطة دم واحدة.. لم يكن هناك انتفاضات عنيفة للقدمين المبتورتين، واحتفظ الشيخ عبدالله بابتسامته على وجهه كأنما لم يقم بأمرٍ مخيف..

ترك الجميع لذولهم وحيزتهم وأعينهم تنتقل بين القدمين المبتورتين الملقاة على الأرض، وبين الرجل الجالس على الطاولة بهدوء. وبعد دقيقة أشار للقدمين بسبابتهم.. هنا دبّت فهما الحياة فتحركتا زحفاً نحوه ثم ارتفعتا من فوق الأرض وذهبت كل قدم مبتورة نحو منشأها.. أحاط الرجل كل قدم بكفه للحظة وحين رفع كفيه كانت كل قدم قد عادت لمكانها كما كانت من قبل..

لم يصدق الحضور مايروونه والشيخ يهبط الطاولة ليقف على قدميه سليماً مُعافٍ. رمقوه بجيزة وخوف ودهشة وإعجاب.. وكان كروالى أول من تحدث مُعترفاً بهزيمته أمام الرجل:

-من أنت أنها الرجل.. أخبرنى أنك لست الشيطان نفسه

فأجابه الشيخ ببساطة:

-إننى الشيخ عبدالله المنيأوى.. ظننتك تعلم هذا من قبل.. إننى لست الشيطان بالتأكيد.. فأنت أدري متى من يكون الشيطان.

(2)

عاد إلى بيته قرب الفجر، لم يجد الفخر مدخلاً لفؤاده ولا تسرب الغرور إلى نفسه. ما قام به كان بعون الله وحده وفضله، ومنذ آتاه الله هذه النعمة وقد داوم على إفادة خلق الله منها ومعاربة حبال الشياطين وأتباعهم بها.. طالما حارب الدجالين والأفاقين، ومُدعى العلم، والسحرة والمشعوذين. حارب كل هؤلاء ودحضهم جميعاً، وما هو اليوم قد غلب أحدهم مرة أخرى..

نعم كان كروالى ساحر قوى، وقد تأكد اليوم أنه يمارس أقوى فنون السحر الأسود، لكنه لم يبال. فما بجعيته لا يعلمه أحد غيره، وقواه التى منحه الله إياها، بمعرفته سر الكلمات وطرق الإتصال بالجان، قد مهّدت له طريق القوة التى لا يدرك مداها إلا القليل. أهر الحضور بما فعله، لكن تلك لم تكن غايته أبدًا حين أتى. لقد أتى من أجل كروالى. من أجل معرفة مقدار ما وصل إليه الرجل من علم وقوة واتصال بالشياطين، وبالرغم من أنه قد فاقه اليوم إلا أن القلق لم يُغادره. الرجل بالفعل على اتصال بشياطين الظلام، ومازال صغيّرًا، لم يتعد الثلاثين من عمره، ولو استمر في سعيه الحثيث لاكتساب المزيد من القوة فسوف يصل حتمًا إلى ما يصبو إليه، وربما صار يومًا أقوى رجل في العالم. وهذا ما يجب على من على شاكلته أن يمنعوا حدوثه.

وأمام باب شقته رأى الجسد الراقد في الظلام، انقبضت عضلات عينيه محاولة تبيّنه فلم يُفلح، فتحرك رأسه لليسار حيث همس بعديث خفى لمخلوق خفى يلزمه كظله، ولا يفارقه أبدًا:

-من هذا؟..

-إنه بشرى يا مولانا.

شعر بالحيرة، فتقدم نحو الجسد الراقد أمامه نائمًا، وانحنى نحوه متفحصًا.. لم يتعرفه، فهزه برفق فنذت عن الجسد النحيل هممة خفيفة قبل أن ينتبه الرجل. فتح عينيه فلمّا اصطدمت بوجه الشيخ الهادئ اتسعتا عن آخرهما، وبحث مُتَعَجِّلًا عن كف الشيخ، وبلهفة أمسكها وقبّلها وهو هتف:

-مولانا الشيخ عبد الله المنياوى.. إننى هنا منذ الصباح أنتظرك..

-من أنت يا بنى.. ولماذا تنتظر؟..

أنا عبدالقواب المنياوى، ابن الحاج عبدالقوى المنياوى.. أحد أقربائك في كوم الدكة. بلدتك يا مولانا.

مضت لحظات قيل أن يتذكر الأب، فترحم عليه بصوت مرتفع، وفتح باب شقته وتوقف عند الباب وعيناه تخترقان ظلام الشقة كأنما تبحثن عن عدو خفى وهو يتمتم بكلمات خفية ولم يتقدم إلا حين سمع صوت الجنى الذى يرافقه وهو يقول مُطْمَئِنًا:

-لا أحد هنالك يا مولانا. المكان آمن.

هنا تقدم لداخل بيته وأضاء مصباحًا زيتيًا وهو يقول لضيفه:

-ادخل يا بنى واجلس في مكان ما.. أخبرنى هل أنت جائع؟.

-جائع للقائك وعلمك يا مولانا

وعلى ضوء المكان تأمله. كان شابًا ضئيل الجسد. رث الثياب بادی الضعف والوهن. كان شعره طويلًا مُبَغَّرًا، وكانت رانحته غير طيبة. كان كل شئ فيه يصرخ بفقره وضعفه، فشر الشيخ بالشفقة نحوه. لكن رفيقه الجنى همس في أذنه:

-سله يا مولانا عن حاجته. هناك ما يخفيه.

فقال الشيخ الكهل بتؤدة له:

-وما هى حاجتك التى تنتظرى من أجلها منذ الصباح؟.

خفض الرجل من صوته ورأسه وهو يجيب:

-علمك يا مولانا وقدراتك. اسقنى من نهلك يا مولانا وعلمنى، كما علّم الغضر موسى.

أئ علم تطلبه يا بنى. هل تسألنى العلوم الشرعية.

قالها الشيخ بحذر والجنى لا يكف عن الهمس في أذنه مخبرًا.. لكن الشاب أجاب وعينينه ترقان للمرة الأولى:

بل علم الغيب والكلمات يا شيخنا.. لاحديث بالبلدة إلا عن كراماتك ومعجزاتك فجنتك طالبًا بعضًا من فيضك هذا.

صمت الشيخ ولم يُعقب. وبالرغم من هيئة الرجل الفقيرة وضعفة لكن عينيه حملتا في لحظة ما قوة لا حدود لها. وشعر أن ذلك الشاب يُخفى تحت رداء ضعفه وعجزه هذا مخلوقًا آخرًا. مخلوق يبحث عن منفذ يتغلب به على ضعفه وقلة حيلته. وبعد لحظات تكلم ثانية:

وماذا ستفعل بعلمى لو خزنته يا بنى.. هل فكرت بالأمر؟

أجابهُ عبد القوى على الفور:

سأساعد الضعيف والمحتاج وأشد من أزر الفقير. أريد القوة لأكون ذراع من لا ذراع له، ورفيق من لا رفيق له. أريدها لأنجذ بها غيرى مثلما تفعل يا مولانا.

لا يدري الشيخ عبدالله لماذا شعر بأن تلك الاجابة ليست وليدة اللحظة. لقد تمرن ذلك الشاب عليها مرارًا حتى حفظها وأجادها. كان هذا يؤرقه ولا يريحه. هل يبحث الشاب عن القوة ويخفى مطلبه هذا خلف كلمات مطمئنة عن مساعدة الملهوف المحتاج؟ وعاد الجنى ليصرخ في أذنه :

أبعده يا مولانا. إنه يريد الشر. أبعده عنك. إنه يكذب.

لكن الشيخ لم يفعل. لم يكن ليطرد أحدًا من أقاربه من بيته ولم يكن ليُرَدُّ طالبًا للعلم مهما حدث. لن يصدر حكمه الآن على الفتى وسينتظر ريثما يرى ما يريه منه، وحينها سيفعل. وقال للشاب مهدوء:

ألك أعداء يا بنى؟..

الكتيرون يا مولانا؟.. إن الضعاف أمثالى، يعج طريقهم دومًا بمن يستهين بهم، ويؤذيهم لقلة حيلتهم.

ألك أبناء وأهل؟..

زوجة أكلها الفقر وأبناء نهش المرض والحاجة أبدانهم وصحتهم.

وهل تبغى المعرفة كي تغنى وتنتقم

تردد الشاب لكن عيني الشيخ النافذتين لم تتركاه ليفكر، فقال:

ومن يبغى الفقر يا مولانا ويرفض الغنى، أما عن الانتقام فلن أؤذى أحدًا إلا لو فعلها معى.

يا بنى القوة التى تبغها خطيرة، والقوة قد تدفع من لا يقدر على مغالبتها نحو طرق ومزالق لا يتخيلها ولا يبغى ولوجها. أخشى أنك تبحث عما لا طاقة لك به. غد يا بنى لبلدك واعمل فى أرضك خيرًا لك مما تبحث عنه.

اختلج قلب الشاب وارتعش بدنه وهو يخشى أن ينهار حلمه الآن ويلفظه الشيخ فقال متوسلاً:

يا مولانا، لاترُدِّنى ولا تصرفنى عنك. لقد انتويت ملازمتك لأنهل من علمك ولن أتركك حتى لو شئت إبعادى. سألزم باب دارك حتى تقبلنى.

أخشى عليك ضعفك. أخشى أن تحوز القوة فتغلبك وتأسرك بشهوتها.

-لست ضعيف النفس لأفعل يا مولانا.عَلِمَني ولن أخذلك.

-القوة ضعف يا بني..القوة بلا استعداد دمار وهلكه.

-القوة مهابة يا مولانا وإحقاق للحق ونصرة للمظلوم..

-إذا ما زلت مُصِبرًا..

- لا طريق آخر أمامي؟..

-إذا ليفعل الله أمرًا كان مقدورًا. استرح الآن يا بني في تلك الغرفة وفي الغد نعاود حديثنا..

وهَمَّ الشاب بتقبيل يد الشيخ مرة أخرى وقلبه يتقاذف في جوفه بسعادة لا توصف، لكن الشيخ منعه، ودخل حجرته وقلبه يرقص بها طربًا..أما الشيخ فقد لزم مَقْعَدَهُ بضيق وقد شعر بأنه أخطأ، وراح الجَيِّى يوسوس له:

-لقد جانبك الصواب يا مولانا..إنه يبغى القوة فقط ولايبغى الحق كما يقول.

-لن أمنحه الكثير إلا بعد أن أطمئن له، فلا تقلق. ما زال أماننا وقت لنعرف مقصده وغايته.

لكن الشيخ كان يدرك كم هو مخطئ في ما يقوله.. يطالب الجَيِّى بالإطمئنان، رَجَو نفسه لم يكن مطمئنًا.

(3)

لاحظ الشيخ عبدالله المنياوى أن عبدالتواب لا يأكل كثيرًا. في الإفطار لم يفعل وفي الغداء اكتفى بكسرة خبز وجبن، فسُرَّ الشيخ. كان لا يحب

النهمين الشرهين للطعام. إن شهوة الطعام هي أم الشرور لا يغلبها إلا قُوَى، وحين أتى المساء واكتفى الشاب بلقيمات صغيرة من الخبز الجاف قرر أن يبدأ معه. افترش الأرض المكسوة بحصيرة من الخوص، وجلس الشاب قبالة وبينهما استوى منعدى معدنى مُشْتَعِل بالجمر والبخور، وهمس الجَيِّى في أذن شيخه بالحاح

- مولانا..بالله عليك لا تفعل هذا.. تمهل بعض الوقت قبل أن تبدأ

تجاهله الشيخ وخَذَّت الشاب:

-في البداية تعلم ألا تخاف..سوف ترى الكثير من الأشياء المُفْزَعَة التي لم تعتدها، سترأها وحدك ولن يراها أحد غيرك، فإياك أن تضطرب أو تخشأها. واعلم أن من تراه مهمًا بدا لك هَوَلاً مُخِيفًا، هو مخلوق من مخلوقات الله مثلك تمامًا، ولا يملك مهمًا أوتى من القوة أن يَضْرُكَ أو ينفعك إلا بإذن الله.

ابتلع الشاب ريقه بصعوبة من الإثارة ورمى الشيخ بفرح وقال بصوت مبحوح:

-وما الذى سآراه يا مولانا

-سترى الجان والعفاريت والمُرْدَة والشياطين والأطياف الخفية، سترى كل هؤلاء.. بل وستراهم الآن. وبعد حين ستتعلم كيف تتصل بهم ونحادثهم.

ارتجف جسده إثارة وسأل:

-وهل سيروني كذلك؟

يبتسم الشيخ بإشفاق وجيب:

-إنهم يرونك بالفعل في كل حين.. أنت هنا من يراهم للمرة الأولى.

وهل هذا يُغضبهم أو يُضايقهم؟

هذا يؤثر جنونهم وحنقهم بصورة لا تتخيلها. لقد كشفت سترهم وغطائهم. لقد صار بإمكانك أن تتبعهم وتعرف أسرارهم وتشاركهم حياتهم. هذا أمر لا يحبونه، لأنهم لم يعتادوه، هنا ستصير مقصد شهرهم وايدائهم. سيتوقفون دوماً لتدميرك وتحطيمك.

وهل يفعلون هذا معك؟

دوماً يحاولون منذ اتصلت بهم.

وكيف تحتمي منهم إذا، وتدفع شرهم عنك؟

لولا حظت لا يكفُ لساني في أي لحظة عن ترديد شيء ما.. سوف تتعلم أن تحتمي من شرهم بالأوراد التي سوف ألقنك إياها، وبعض الطلاسم والأوشام التي تطبعها على جسدك وكذلك العزائم التي لا تتوقف عن القسم بها.

وصمت للحظة ليرى تأثير كلماته على نفس الشاب الصغير.. اعتاد أن يخبر من يطلب منه تعليمه السحر والإتصال بعالم الجان بمخاطر الأمر.. في الكثير من الأحيان يكتفى طالب العلم منه بما يقوله هذا وينصرف عن الأمر. بعضهم يكمل حتى يرى الجان بأمر عينيه، وحينها يُدبُّ الهلع في نفسه فينصرف عنه هو الآخر، والقليل هو من يكمل. القليل للغاية. وعاد ليتحدث وهو يميل بجسده عبر النار والبخار المُشتعل نحو عبدالتواب:

يا بني الإتصال بعوالم الجان والشياطين هو لعب بالنار لا بد أن يكتوى بها يوماً ما من يمارسه.. كل من فعل عانى يوماً ما نهاية سوداء

مُريعة.. البعض انتحر.. البعض احترق.. البعض جُنَّ وذهب عقله.. وآخرين ماتوا ميتة شنعاء لا تتخيل قسوتها.. إنه الثمن المُرعب للمعرفة.

يضطرب قلب الشاب فهمس وشحوب وجهه يزداد:

-الكل يا شيخنا؟.. حتى أنت قد يحدث معك هذا؟..

-الكل يا بني.. لا أحد ينجو من لعنة كهذه.. إنني أنتظر هذا المصير كل يوم، وحتماً لم يحدث لي شيء من هذا فقط، لأن ساعتى لم تُجِنْ بعد..

وخفض عبدالتواب رأسه مُتَوَتِّراً خائفاً.. لم يطلب أن يتعلم السحر كي يهلك.. تعلمه لأنه يبغى القوة.. يبغى المال.. يبغى السلطة.. لكن ما فائدة كل هذا لو كان الهلاك مصيره في النهاية.. لكن عناده عاد يهمس إليه.. ربما تُعَمِّد الشيخ إفزاعه ليتراجع عن مطلبه؟.. كان أمراً مُحتملاً.. فيها هو الشيخ نفسه أمامه قد تجاوز الستين من عمره ومازال بصحته لم يُصبه سوء، أليس مُحتملاً أن يعيش هو الآخر مثله متمتعاً بصحته وقوته حتى يصل لعمره هذا؟..

وقال للشيخ بإصرار:

-الأمل يستحق المخاطرة يا مولانا.. كما أنك أخبرتني أنك ستعلمنى كيف يمكننى أن أقى نفسى من شرهم.

-بالطبع يا بني سأفعل.. كما أطلبك ألا تنسى هذا عني.. إياك أن تقوم يوماً بتحضير جان أو شيطان دون أن تكون مؤهلاً لصرفه. لقد هلك الكثيرون من قبل بسبب هذا.

هَرَّ عبدالتواب رأسه مُتَفَقِّهاً، فابتسم الشيخ عبدالله بإشفاق وعاد لتمتاته الغامضة لبعض الوقت، وراح الجَنَى الذى يُلَازِم الشيخ يصرخ فيه مُعْتَرِضاً بصوتٍ لم يسمعه عبدالتواب:

يا مولانا ستندم. الشاب لا يبغى العلم والمعرفة. الشاب يبغى القوة. ألا ترى الشبق في عيبيه؟..

لكن الشيخ عاد ليتجاهله، وتحدث إلى عبدالتواب ثانية:

-سترى الآن شيئاً لم تراه من قبل.. سوف أستحضر بعضاً من الجان المؤمنين لتراهم.. إياك أن تفرغ منهم.. إياك أن تُطيل النظر إليهم.. إياك أن تنظر إلى عيونهم.. وإياك أن تحاول التحدث إليهم. ستري خلقاً مختليفاً فحاول أن تعتاد مشاهدتهم.

وارتفع بعدها البخور في المكان، وتعالى صوت الشيخ مُرَدِّداً أوراذاً وعزانماً مُهِمَّةً لم يفهمها عبدالتواب. وبعد وقت قصير شعر بأنهم صاروا حوله. اضطرب قلبه وارتجف بدنه، لكنه نذّر تحذير شيخه فحاول أن يتمالك رباطة جأشه. رأى عشرات الظلال تتحرك في ظلام الغرفة حوله.. رفع رأسه ببطء للأعلى فرأى قِزْماً يلتصق بسقف الحجرة ويرمقه بعيون سوداء مُخيفة وفم ملء بالأسنان الحادة، أحنى رأسه لأسفل على الفور بتوتر فرأى تلك الفاتنة الطويلة التي تُولِّيهِ ظهرها.. كانت أنثى طويلة الشعر، وقد هبط شعرها الحريري الأسود حتى قدميها.. تابعتها ببصره حتى التفتت إليه بوجهها.. كان وجهها طويلاً ذا لون أزرق وكانت عيناها حمراوان كالدُمج وكانت ترمقه بغضب. تواب قلبه فرغاً وكاد أن يصرخ لكن عينا الشيخ المُخَيَّرَة واجهته فكتمت صرخته وسرف بصره عنها.

رأى عشرات الظلال الغريبة التي تبدو كالضباب والدخان في كل مكانٍ حوله وسمع همسات خافتة تثير الجنون. لكن إصراره على مواصلة الأمر لهائته تَغَلَّبَ على فُرْعَتِهِ، فقبض ساكناً مُنْكِمِشاً في مكانه، في انتظار أن يصرفهم الشيخ من أمامه. كان خائفاً كما لم يُخَفْ من قبل، أهذا ما عليه أن يعتاده دوماً؟ من العسير أن يتخيل أن تعتاد عينيهِ على شيءٍ

كهذا.. لكن الشيخ الرابض في مكانه بطمأنينة وسكينة، وهو يرى ما يراه قد فعل ذلك، واعتاد رؤيتهم، ولم يعد يشعر بالفزع منهم، فهل يصير يوماً مثله؟..

راقبه الشيخ مُتَجَاهِلاً ما يدور حوله، منتها لما يُبْديه الشاب من مشاعر.. وظلَّ الشاب رابط الجأش حقاً بصورة أثارت إعجابه.. لم يتحمل الكثيرون جلسة كهذا، وكاد أحدهم يوماً ما وقد كان أحد أبناء الباشوات الذين تَلَفُّوا تعليمهم بالخارج، أن يفقد عقله ويُجَنَّ حين رأى تلك الكائنات. لكن ما هو الشاب أمامه لم يصرخ ولم يُبَالِغ في انفعاله ولم يبحث عن مهرب. سوف يتعلم هذا الشاب وسوف يتقن الأمر في وقتٍ وجيز. لكن عينا الشاب اتسعت فجأة بفزع وهو يرمق شيئاً ما خلف ظهره..

والتفت للخلف على الفور فهاله ما شاهده..

كان هناك مارداً ضَخْماً مُخَيِّفاً برأس به قرنين مُغَوَّجَيْن وأنف أفتس وأطراف تنتهي بمخالب ضخمة.. كان ينظر للشباب بثبات وكان فمه يهمس بكلمات لم تصل لأذني الشيخ عبدالله.. توتر الشيخ عبدالله وتوتر الجان الحضور وساد الفزع.. لم يكن هذا المارد ممن استدعاهم الشيخ فكيف أتى وظهر؟!.. لم يكن هذا وقت التفكير وعلى الفور شرع في صرف كل الجان من حوله فألقى العزائم اللازمة لذلك.. ومضت لحظات قبل أن يخفى الجميع من حوله وكان المارد الشيطاني آخرهم..

ظل قلبه ينبض بعنف. هذا أمر لم يحدث من قبل. وحين التفت إلى عبدالتواب وجده مُنْكِمِشاً حول نفسه في رُعب وجسده يرتجف بفزع لا مثيل له وقد غمر العرق وجهه وبدنه.. نهض إليه وهزَّه في قوة وهو يقول له:

-ماذا بك ياب نى..هل أصابك مكروه ما؟.. أخبرنى بما تشعر به.
-أريد أن أنام..

قالها عبدالنواب بوهن وصوت مرتجف مماثل لبدنه. وأمام فزعه لم يشأ
الشيخ عبدالله أن يرهقه بتساؤلاته، فذهب به إلى فراشه.. ثم راح يربت
على رأسه وهو يتلو على أذنه آيات من القرآن الكريم..
تركه بعد ذلك، وعاد لصلاة البيت وألقى بجسده على الأريكة الكبيرة
بالصالة وقال بقلق مُحَدِّثًا الجَنِّي الذى يلازمه:

-من كان هذا؟

-أحد خدام بعليزبول..ظننتك تعرَّفْتَهُ يا مولانا.. إنه يُدعى "طميش"

-وما الذى أتى بهذا الشيطان إلى هنا، بل وكيف أتى دون أن أَسْتدعيه؟

-لا أدرى..لكن كل الجان الذين أحضرتهم فَرَّغُوا منه كثيرًا..كان قويًا وكان
قادرًا على إيذاء الجميع لو أراد.

ازداد الشيخ توترًا وقال وقد تذكر فم المارد الذى كان يتكلم بصوت خفى :

-لقد كان يتحدث بشيء لا أعلمه..هل سمعته وعلمت ما كان يقوله.

-لا أحد منا سمعه يا مولانا..لكن الشاب قد فعل..لقد كان يُحَدِّثُهُ.

شعر الشيخ بالدهشة فقال مُرَدِّدًا:

-حَدَّثَ الشاب؟!..ولماذا يفعل..وما الذى يبغيه منه؟..

هنا قال الجَنِّي باقتضاب:

-سل الشاب..إنه من يعلم..لكنى لا أعتقد أنه سيخبرك بشيء..

وجم الشيخ فى حيرة وعقله يُقَلِّب عشرات الإحتمالات لما حدث.. بينما ظل
عبدالنواب يرتجف فى فراشه، رغم الغطاء الثقيل الذى يلتحف به. كانت
كلمات المارد تتردد فى أذنه بلا توقف وهيبته المُخيفَة لا تُفَارِق مُحَدِّثَتِهِ.

كان يطالبه بالحصول على كتاب الدم. أحد كتب السحر العظمى. أخبره
أن الشيخ يخفيه فى حجرته وأنه سيعاونه فى الحصول عليه لو شاء.. وفى
النهاية طالبه ألا يخبر الشيخ بهديهما هذا.

كان أمرًا مُفْزَعًا لم يتخيل يومًا أن يواجهه. ظل جسده ينتفض، ولم ينم
تلك الليلة أبدًا..

(4)

فى فجر اليوم التالى خرج عبدالنواب من حجرته شاحب الوجه متوَعك
البدن، وتكاثفت الهالات السوداء حول عينيه منبئة عن ليلة لازمه الأرق
بها. كان الشيخ عبدالله المنيأوى فى مكانه على أريكته بالصالة بانتظاره،
مُحَمَّلًا بهواجسه التى لم تفارقه لحظة واحدة منذ الأمس. ابتسم فى وجهه،
وأفسح له مكانًا بجواره وقال مُحَبِّبًا وهو يشير له بالجلوس:

-هل تشعر أنك أفضل الآن، وهل نمت بالأمس جيدًا؟..

-الحمد لله يا سيدى. إننى بخير مادمت مُلازمًا لك.

-الحمد لله على كل شيء. والان أخبرنى يا بنى ليطمئن قلبى. هل حَدَّثَكَ
ذلك المارد الذى رأيته بالأمس بحديث ما؟

ارتعشت يديه للحظة و أبعد عينيه عن عيني الشيخ. فعلم الشيخ أنه
سيكذب :

-إنني لم أسمع شيئاً يا مولانا غير تلك الهمسات المخيفة التي ملأت أذني.
كانت مخيفة وأصابني بالرعب، لكن أخبرني يا مولانا. من كان ذلك المارد
المخيف. وهل كان أحد الجان الذين استدعيتهم
-بل كان مارداً رجيماً. كان شيطاناً يُدعى طميش.
-شيطان؟!.

ولم يُعَقِّب الشيخ. كان يُحَنِّقُهُ أن يكذب عبدالتواب ويُخفي ما حَدَّثَهُ به
ذلك المارد. فَكَّرَ في طرده من بيته وقد حَدَّثَهُ الشياطين التي لن تحضر
مُحَمَّلَةً بالخبر أبداً، فهل يخططون لأمٍ ما يستعينون فيه بهذا الشاب.
أفكرون في قتله بمساعدة هذا الشاب. ليت هذا ما يكون.
وعاد عقله لحديث الجَنِّي له، فمنذ رأى عبدالتواب وهو يُلَجَّج عليه في إبعاد
الفتى عنه وطرده. كل ما يحدث الآن يدفعه لإبعاد الشاب عنه، لكن
فضوله راح يقتله لمعرفة ما يُخفيه الشاب عنه. سوف يُبقِيه بجواره ولن
يطمنن إليه لحظة ولن يمنحه أي من علمه الآن ولن يُسْعِرَهُ بما يُضْمِرُهُ له
من مراقبة. وأفاق من هواجسه وعبدالتواب يسأله:
-هل تعني أنه كان الشيطان نفسه؟..

- كلاً يا عبدالتواب. إنه أحد أتباع بعزبول. أحد الشياطين القدماء لو
كنت لم تسمع عنه من قبل. لست من استقدمته بالطبع. ولم أكن لأحضر
لك شيطاناً أو احد أعوانه أبداً. أنا حتى الآن لا أعلم كيف أتى هذا
الشيطان؟..
-وهل حضر من أجل إيدائي؟.

سأله عبدالتواب، فأجاب الشيخ بعد أن رمقه بنظرة ذات معنى وقال
ببطء:

-بالطبع لن أتركه يفعل طالما لَزِمْتَنِي ولم تُخَف عني شيئاً.
اضطربت صفحة وجه عبدالتواب للحظة، لكنه تمالك نفسه ببراعة وهو
يقول:

-بالطبع لن أفعل يا شيخ عبدالله.. وهل يمكنني أن أخفي عنك شيئاً؟
رمقه الشيخ صامتاً، ثم غادر المنزل بعد أن أخبره أنه سيتأخر اليوم
بالخارج. ولن يعود للبيت قبل فجر الغد، كان هذا يعني أنه لن يراه ثانية
هذا اليوم..

وانتصف النهار وهو في البيت بمفرده. وبدأت الهمسات تتردد في أذنه. راح
يتلفت حول نفسه في رعب باحثاً عن مصدرها، هل يكون أحد الجان
الذين خَصَرَهُمُ الشيخ بالأمس هو من يُحَدِّثُهُ وقد نسي الشيخ أن يصرفه.
ضاق صدره، ووجد نفسه يردد آية الكرسي برعب. توقفت الهمسات على
الفور وحين هدأ روعه كَفَّ عن قراءة القرآن، وشعر بالإعياء وبرغبة مُلِحَّة
في النوم تكتنف عقله. فاتجه إلى الحجرة التي خَصَّصَهَا له الشيخ عبدالله
ورقد على فراشه الصغير ونام من فوره. وهناك في الحلم رأى المارد مرة
أخرى. بدا وكأنه في الجحيم والسنة اللهب تراقص من حوله، وعيناه
تنوهجان كاتون مشتعل. وبصوت مُفزع راح يحدثه:

-ابحث عن كتاب الدم أها البشرى الفاني. إنه وحده من سيمنحك القوة
التي تفتش عنها. فتش عنه، واهرب به.
هنا تَغَلَّبَ شَبَقُهُ للقوة على خوفه فيصيح :
-لكني لا أعلم أين هو، ولا كيف يبدو.

-الشيخ اللعين يُخْفِيهِ عنك وعن الجميع لأنه يدرك ما يحويه من قوة. إنه
يحفظ به لينتفع به وحده، إنه من يخفيه.



تأجج لهفته للقوة، صار الكيان صديقاً ولا يعود يخشاه. ويقول بلهفة:

-وأين يخفيه الشيخ؟..

-سوف أخبرك. لكن عليك أن تقوم بأمور قبلها. الكتاب مرصود وله حراسه من الجان يحومونه.

ويغبره المارد الشيطاني بما عليه أن يفعله، ثم يفيق من نومه. الحماس يرتع في عروقه وشبوهه للقوة في عنفوانها الآن وعيناه مُصَوَّتان نحو حجرة الشيخ المُغلقة. ويستعيد عقله ما عليه أن يقوم به. يدخل المطبخ ويبعث عماً يحتاجه. يعود بالمنقد وقد اشتعل الفحم بداخله والبخور والطباشير. يغلّق النوافذ كلها فتظلم الشقة. يرسم النجمة الخماسية في منتصف الصالة وهو يردد كلمات لا يعيها لَقْنُهُ إياها المارد في حلمه. يُلقى البخور على النار خلالها فيتزنج الدخان في رقصات شيطانية، كأنما تتلاعب به الشياطين. يرتفع صوته بالتعاونيد الشيطانية، فيزدحم المكان بالمردة والشياطين.

لم يكونوا كالجان الذين رآهم بالأمس.. كانوا أكثر شناعة وإفراغاً.. كان ليموت من قبل لو رأى شيئاً مثل هذا.. لكنه الآن لا يخشاهم.. شعر أنهم أتوا من أجله ولمساعدته.. وحين انتهى من تعويذته ظهر في منتصف الدائرة المارد طميش الذي زاره بالأمس. وبأصبع مخلي يُشير المارد نحو الباب فتحرك نحوه وفتحه.

ورأى الدُعر في عيون العشرات من الجان الذين يحرسون الحجرة وكتاب الدم وقد ظهروا جميعاً أمام بصره. وحين تحرك للدخل دخل معه الشياطين التي أحضرها. اندفع نحو الفراش دون أن يُبالي بالهمسات والصرخات التي تحدث حوله من قتال غير متكافئ بين جان وشياطين.

رفع خَشْوة الفراش ووجد الخزانة الخشبية التي أخبره المارد عنها في العلم. فتحتها فوجد الكتاب. أسوداً كالليل، ذو ملمس مُقَرَّر ورائحة نفاذة لا تُطاق. لا يدري هل يتوهم ما حدث أم أنه بالفعل شعر بالقوة حين أمسكه. وتراجع خارجاً من الحجرة.. وقد اثبتت المعركة البائسة والتي خسرها حراس الكتاب. انصرف الشياطين الذين حضروهم. واختفى المارد طميش. هنا وضع الكتاب بين طيات ملابسه، وهرع نحو باب الشقة وفتحه ليندفع هارباً. كان عليه أن يختفي عن أعين الشيخ عبدالله وأعوانه من الجان، حتى يعي كيف يستفيد من الكتاب

وبعد أقل من الساعة حضر الشيخ عبدالله لاهئاً مدعوراً ليستطلع النبا وقد أعلمه بعض الجان الذين يعملون معه بالخبر.. رأى آثار الجان الموتى في كل مكان بالحجرة.. رأى الخزانة الخاوية على عروشها.. ووجد نفسه يسقط على الأرض بإعياء وهو لا يُصَدِّق ما جرى.. ولم يرحمه الجَنِّي الذي بالزمة وراح يصرخ في أذنه مُوتِخاً:

-لقد خانك البشري كما خَدَرْتُكَ يا مولانا.. أخبرتك أنه يبغى القوة السوداء فلم تصدق.. لقد خدلتنا حين رفضت الإستماع إلينا.. لقد ضَيَّعْنَا.. ابعث عنه وأخبرني أين ذهب؟..

بشولها ورغبة الإنتقام تَلْبُجُ جوفه، لكن الجَنِّي لا يجيب سؤاله ويستمر في اعنيفه:

أضعت كتاب الدم يا مولانا. لقد فقدت كل شيء يا مولانا وكل هذا لأنك لم تستمع إلي..

ويصرخ في خشونة وصرامة:

سألتك أين هو الآن؟. أخبرني لو تعلم أو أصرفك على..

-لست أدري..لا أراه ولا أرى الكتاب. لقد مات كل حراس الكتاب الذين كانوا يرشدوننا لمكانه. لا أحد منا يمكنه تعقبه بعد الآن. لقد صار الكتاب خُرًا وقد استحضر حُرَّاسه من الشياطين.

لكنه لم يقبل هزيمته وقال في إصرار:

-سوف نبحث عنه وسوف نجده وسوف ننقم..أقسم أنا الشيخ عبدالله المنياوى على هذا.

(5)

رافقته مخاوفه في رحلة هربه. تركته الشياطين فلم تعاود زيارته ومؤازرته، ورؤعته الهواجس فصار يتلفت حوله كل حين كالمنجذب بحثًا عن عدو خفى قد يتبعه. يخشى أن يرسل خلفه الشيخ عبدالله من الجان من يفتش عنه ويتعقبه. لقد خانته وسرقه بل وتسبب كذلك في موت بعض حراسه من الجان. حتمًا سيبحث عنه كي يسترد ما فقده، ينقم. ليس أمامه غير أن يختفى بغنيمته كي يرى على مهل كيف يمكنه أن يفيد منها..

وجلس في القطار المتجه الى بلدته بقلب يرتجف، وعينين متشككتين في كل من حوله. كان كلما شعر بالخوف والريبة تحسس الكتاب المخفى بين طيات ملائسة ليستقى منه قوى خفية تشيع بها روحه، فتنتشع عن قلبه الوسواس وتزول المخاوف. هذا الكتاب بلا شك يحوى القوة كما أخبره ذلك المارد في الحلم، إنه حتمًا كذلك وإلا ما سر إحساسه بالقوة هذا كلما لامسه؟!

ما لا يعلمه الشيخ عبدالله المنياوى أنقن تمثيل دور الفقير البائس كي يرقى له قلب الشيخ ويعلمه. كان مؤلفًا بالقوة منذ صغره، وطالما تفكر في

المجهول والعوالم الخفية الى نعيش فيها ولا نحس بها. قرأ المخطوطات القديمة عن السحر والخيمياء فلم تروى ظمأه..حاول عن طريق كتب الجان تحضيرهم غير مرة فلم يُفلح..وحين ينس من محاولاته فكر أن يبحث عن أحدهم كي يعلمه ما خفى عنه. خاض رحلة بحث طويلة انتهت الى الشيخ عبدالله بعدما رأى من الأفاقيين والدجالين ما لا يُحصى..وهكذا كان عليه أن يحتال عليه كي يعلمه فنون السحر والاتصال بالجان..

كان قد سمع عن الكنوز القديمة التى تحفظها طلاسـم يحرسها الجان والمردة. وتغيب ما يمكنه أن يحصل عليه لو عثر عليها وفك طلاسهما وتغلب على حراسها..قرأ عن قوى الظلام التى تمنح صاحبها البأس، وقرأ عن الإتصال بالشياطين وكيف يمنحون القوة لمن يعاونهم ويعاهدهم. قرر أن يصل إليهم مهما حدث وأن يطاوعهم مهما طلبوا، فالعطايا التى تنتظره حينها تستحق المشقة والمخاطرة.

رأى في البداية أن يزور زوجته ويرى ابنه الصغير. سيطمن عليهما وسيبعدهم عن البيت كي لا يطولهم غضب الشيخ عبدالله وأعوانه. وصل الى داره الكبيرة بقرية وأمر زوجته بجمع أغراضها وأغراض ابنها ذو الأعوام الثلاث، ثم ذهب بهم الى بيت أهلها بالقرية المجاورة لقرينته. أمرها أن تلزم هي والطفل بيت أبيها ولا ترحله أبدًا..حذرًا من الغرباء، وفي النهاية أخبرها ألا تقلق عليه لو طال غيابها وتأخر عليها. إنه في رحلة قد تطول.

وفي قلب الجبل وفي إحدى المغارات البعيدة المهجورة، استقر.. جَهَّز المكان بما يجعله صالِحًا للجد الأدنى للسكنى. طرد منه زواحفه السيارة والقوارض والخفافيش، وجلب إليه الكثير من أدوات السحر وكتبه وعظام الموتى، وشحوم المقتولين كما تقتضى الطقوس. ثم أخرج الكتاب من مكانه للميرة الأولى وراح يتأمله. الجلد سميك للغاية مصنوع من جلد

عجيب مدبوغ بائقان، وقد نحتت في قلبه الرموز الغربية والطلاسم وفي منتصف الغلاف الجلدى تحسست كفه دائرة مُجَوِّفة فارغة. فتح الكتاب وطالعت عيناه بين دفتيه عشرات الرسوم والرموز والطلاسم..

ولم يفهم شيئاً من المِسطور. الكتاب بحروف عربية لكنها غير مفهومة. حاول فكّ الطلاسم ومعرفة معاني الرموز ففشل حتى طال الأمد دون أن يكتشف أسرارهِ، فشعر بالعجز واليأس وخشى أن يكون قد تسرع في سرقة الكتاب ومفارقة الشيخ. هل خدعه ذلك المارد ودفعه لفعلة الحمقاء تلك كي يبعده عن الشيخ؟. لكن لو فعل فما هدفه من ذلك؟.

ولو كان يبغى مساعدته كما أخبره فلماذا يتركه هائماً تائهاً في حيرته هكذا؟.

وتمضى الأيام عليه بطيئة كسولة. وهو حبيس مغارته يؤرقه، ولا يرحمه الكتاب فيكشف له أسرارهِ. يرقد على ظهره على الحصى خارج الكهف يرقب النجوم والكواكب فيتناهى إلى أذنه صوت ياتيه من داخل الكهف. يفتش الكهف خائفاً. فلا يجد أحد ويرى لعجبه أن الكتاب مصدر الهمهمات الخفية. يقترب منه فتتعالى الأصوات والهمهمات الغربية وما أن يلმسه حتى تختفى الأصوات مرة واحدة ليغرق الصمت والرهبية المكان. يُخَرِّكُهُ بين أنامله ويتحسس ورقه الغرب الذى هو حتماً من جلد الموتى ويصرخ حائفاً

"ألم يحن الوقت بعد لتُظهر عجايبك .."

لكن الكتاب كما هو لا يجيبه ولا يبرحه

ويأتى النعاس فينام بعد أيام من الأرق يائساً عاجزاً. وفي الحلم كان هناك المارد. لم يخشاه هذه المرة بل شعر بالغضب منه ووجد نفسه يصرخ في وجهه:

لقد خدعتنى أيها الشيطان. الكتاب أكنوبة لا جدوى منه..

وتتوهج عينا المارد النارتين، ويجيب بصوتٍ مخيف:

بل أنت من يجهل كيف يعمل. تملك القوة أيها البشرى ولا تدرى كيف تستعملها.

إذا كيف أجعله يعمل؟.

هنا تتصاعد النيران واللهب من حول المارد لتبتلعه ويقول قبل أن يتلاشى معها.

الدم أيها البشرى هو ما يجلو الأسرار. قدم له القرايين.

ويصحو من حلمه وقد صفا عقله مرة واحدة وقد أدرك طريقة وما عليه أن يفعله. وتحرك في الصحراء فوق حماره الذى أتى به.

ورأى مُسَافِراً فوق حمار آخر يبغى عبور الصحراء. اندفع بلهفة نحوه وحياه وأقسم عليه أن يبني ليلته بجواره ليُطعمه ويسقيه. كان المسافر قاطع طريق بانس يبغى ضحية ما. وحين تأمل هيئة الشاب الواهنة أدرك أنه لا خوف منه. لم يكن القدر قد ساق أمام قاطع الطريق ضحية ما منذ أيام فارتضى بهذا الشاب الذى يدعوه، وأمل أن يجِدَ في مسكنه ما يستحق أن يسليه إياه.

أطعمه عبدالنواب في كهفه لحم غزال اجتهد قبلها في اصطياده.. وسقاه بعدها خمراً ملئاً بالأعشاب المخدرة بعد أن أوهمه أنه شراب متعش من جذور الأعشاب. شرب اللص بهم ثم رقد على ظهره. وتعالى شجره وقد فقد وعيه. هنا جذب عبدالنواب جذبه وأرقده في قلب نجمة خماسية صنعها في أعماق الكهف. ثم رفع خنجره عاليًا وهوى به على رقبتة

ففصلها عن منبتها. انبثق الدم غزيرًا كالفيضان، وبنشوة شيطانية، ملا كفيه منه وفي الفجوة الدائرة على غلاف الكتاب سكب بعض القطرات..

والمسحر استعجب الكتاب في يده، اهتز بعنف وقد تشرب القطرات كلها كرمال عطشى للماء. فكر أنه يبغى المزيد فوضع قطرات أخرى وأخرى حتى استقر الكتاب في يده، وحين فتح صفحته الأولى، وجد الطلاسم قد انجلت والألغاز قد حُلّت. قرأ التعويذة الأولى فأدرك سرها. قبض على حجر ضخّم يتوسط أرض المغارة فتحول الحجر لشاشة بلورية يرى على سطحها من يحب. رأى زوجته وابنه فرّق قلبه واطمئن. إذا فهذه التعويذة الأولى قد كشفت له الحجب فصار قادرًا على رؤية من يحب. أراد أن يرى الشيخ عبدالله المنياوى فرأه للحظة على سطح الحجر قبل أن يتعكر السطح البلورى ويختفى الشيخ. هل شعر به الشيخ؟ ربما. هنا خشى أن يدرك الشيخ بوسيلة ما مكنه فقرر ألا يراه عبر الحجر البلورى ثانية وأن يكتفى بالإطمئنان على زوجته وابنه.

وأدرك الآن لماذا نعته المارد بكتاب القوة. عاد ليفتحه ليرى التعويذة التالية فقلب الصفحة الأولى. ولدهشته عادت تعاويذه مهمة كما كانت. رمق الكتاب بدهشة وظن أنه بحاجة للمزيد من الدماء. اعتصر من العنق المتبور بعض الدماء وسكبها على الكتاب. فلم يتسربها أو يتقبلها كما حدث في المرة الأولى. جلب المزيد فسال الدماء عن سطح الكتاب دون أن يتسربه.

هل يرغب الكتاب في قربان وأضحية أخرى ليبوح بالمزيد من أسرارهِ وهل عليه أن يقتل كل مرة كي يفك طلاسم تعويذة أخرى. كان مأزقًا بالفعل.

(6)

عاد لبحث عن قربان بشرى جديد. وهذه المرة كان رجلًا بدويًا يرى غنمه. راوغه حتى أتى معه للمغارة ثم قتله. سكب الدماء على الكتاب فلم يتبدل شيء. زاد من الدماء فانسابت من على غلافه نحو الأرض الرملية التي امتصتها على الفور بهم.. فتح الكتاب وقد كاد أن يُجنّ فلم يرى إلا طلاسمه المهمة. مالذي تبدل؟، ولماذا لم يتقبل الكتاب هذا القربان كما حدث في المرة الأولى. هل فقد الكتاب سحره أم أن هناك أمرًا آخرًا يبيغيه الكتاب هذه المرة. وثارت نفسه وهو يحمل في الروح البرينة التي أزهقها بلا جدوى. ويجسد مثقل بالحيرة والهموم حمل الجنة حيث واراها الثرى.

جرب أن يقرأ في كتب السحر القديمة التي بحوزته عسى أن يجد بين أحشائها ما يساعده في فهم الكتاب فلم يجد للكتاب بها ذكرًا. حاول أن يتلو عليه تعاويذ وعزائم تجلو السحر وتزيل الطلاسم فلم يُجدي. بحث في أحلامه وقد راح ينام كثيرًا عن المارد كي يهديه السبيل فلم يصل إليه. راحت الأيام تمر عليه بطينة رتيبة بلا جديد حتى اعتراه اليأس وأيقن أنه قد فشل. وراحت رغبة مُلحة توسوس في نفسه أن يعود أدراجه إلى بيته. وقد طمأنه قليلًا أن أسرته لم يلحقها أحد حتى الآن كما كان يخشى، ربما نسيه الشيخ عبدالله، وربما فشل في الوصول إليه.

وفي هذا اليوم كان القبط ثقيلًا كالهموم، وراحت زمال الصحراء تتوهج أمام بصره في مدخل المغارة لامعة ملتهبة. ولدهشته رآه قادمًا نحوه من بعيد غير عابئ بالحر ولا الرمال المشتعلة أسفل قدمه. فكر برعب أن الشيخ عبدالله قد وصل إليه عبر أعوانه من الجان بلا شك، فلا بشرى قادر أبدًا على عبور الصحراء في مثل هذا القبط بمثل هذه الطمأنينة كما يفعل هذا الشيخ، لكنه لم يكن الشيخ.

أَيكون هذا القادم نحوه الآن عَفَرِيَّتًا أم جَانًا أم مارِدًا شِيْطَانًا. وهل ينتظره داخل المغارة. أم يهرب منه. لكن إلى أين؟

أين يذهب في تلك الصحراء. لم يكن يملك غير سكين حاد فأمسكه بترقب وقد قرر أن يدافع عن نفسه لو أضرهم القادم الأذى له.

مضت اللحظات ثقيلة حتى صار الغريب أمام باب الكهف. توقف ليلتقط أنفاسه وهو يضع كفه فوق بصره محاولاً تهديد ظلام المغارة والنظر إلى من بها. وراح عبدالتواب يراقبه بأنفاس محبوسة وقلب لا يعرف السكينة. بدا الرجل عجوزًا هَرَمًا من التجاعيد الكثيفة التي نحتها الزمن على وجهه. وكان يرتدى جلبابًا أبيضًا واسعًا وخُفًا جلدِيًّا كما يعتمر عمامة بيضاء فوق رأسه وقد اتكأ على عصا خشبية سوداء في كفه الأيسر. من يكون وكيف وصل إلى هنا ولماذا أتى؟. تنهش الأسنلة عقله دلف العجوز فتحة المغارة فتلاشى الضوء من حوله، وتهد قبل أن يتحدث..

-أما من مقيم هنا يأوى الغريب؟.

أجاب بصوتٍ مضطرب:

-من أنت أيها الغريب؟. وماذا تريد؟

- غريب آخر ضَيَّعَتْهُ أحلام كأحلامك!

كلمات عجيبة وشعور غريب بالإنقباض يخفق عبدالتواب والغريب يدخل أمامه يصحبه تيار بارد من الهواء من المستحيل أن يأتي من أى مكان في هذا القبط. لم يشعر بالراحة أبدًا أمام الغريب الذي توقف أمامه يتفقدته مبتسمًا، ولما طال الصمت قطعه الغريب قائلًا:

-أهارب أنت الآخر تبحث عن مأوى..أم شَقِيَّ معلول النفس تبحث عن نفسك؟

-من أنت ؟..وماذا تبغى منى؟..

قالها عبدالتواب متجاهلاً أسئلة الشيخ وقد منع نفسه بصعوبة من أن يقول له "وما شأنك أنت بي". لكن الشيخ هو الآخر تجاهل أسئلته وهو يجلس في أحد الأركان ويقول مُتَأَوِّفًا:

-ياالقيظ الصحارى. كم الرحلة شاقة كما كل مرة. وكم صار المرء ضعيفًا فلا يقدر عليها كالسابق.

-من أنت، وماذا تبغى منى ؟.

يبتسم الشيخ ويقول ببساطة :

-بل أنت الذى يريد..لكن لا بأس ببعض الماء البارد لو كنت مُصِرًّا على معرفة ما اطلب.

وجد نفسه يحمل اليه قنينة ماء، تناولها الغريب بيد معروقة طويلة الأظفار وشرب منها بهم قبل أن يعيدها إليه فارغة ويتهد بارتياح قائلًا:

-حلو هو الماء البارد. لا أمل لى به فى أسفارى الطويلة.

-من أنت؟

-ألا يحمل لسانك سؤالاً غيره يا فتى؟..

-سأسألك غيره حين أحصل على إجابته. من أنت؟.

-ادعونى بما شئت من الأسماء وامنعنى ما أحببت من الألقاب..أنا أى شئى تتخيله أى شئى تحبه أو تخافه. أنت تدعى عبدالتواب، أليس كذلك؟..

هنا يرتج عبدالتواب. كيف عرف اسمه، إنه ليس بشراً حتماً.. ويزداد رعباً حين يصل تفكيره لتلك النقطة فتتسع ابتسامة الرجل وهو يهز رأسه موافقاً كأنما يجيب على أفكاره التي تدور بخلفه "نعم.. أنا لست بشري".

هل هرب؟.. لكن إلى أين؟.. ونبهض الشيخ ثانية متكئاً على عصاه وبغمغم:-
-تبحث عني وحين أتيك ترغب في أن تهرب مني.. عجيب حالكم أيها البشر..

يتراجع عبدالتواب للخلف ويقول مرتجفاً :

-من أنت؟.. هل أنت الشيطان؟..

ويضحك الغريب ضحكة صاخبة تظهر أسنانه البيضاء النضيدة، ثم يقول:

-وماذا لو كنت هو.. أليس الشيطان هو من سوف يهيك القوة والغنى للذين تبحث عنهم؟..

يراقبه بحذر ويتحرك الغريب للداخل.. وتتصاعد في أنف عبدالتواب رائحة كريهة عنيفة يُصبرها الرجل.. يرى الغريب النجمة الخماسية الكبيرة المطلسة والتي ما زالت تحوى دمماً جافاً للقتيلين اللذين قتلها منذ أيام فهز رأسه برضا، وابتفت إليه باسمًا ويقول بجذل:

-أرى أنك مُخلصٌ في عملك أيها البشري.. يمكنك أن تحوز على ما تصبو إليه، لكنك تطرق الدرب الخاطئ..

نجح الغريب في إشعال الإثارة في جوفه. تجاهل خوفه ورهبته وتابعه وهو يتفقد جدران الكهف وأرضيته. انحنى الغريب نحو الجراب الجلدي الذي يحوى كتاب الدم. ففكر عبدالتواب أن يمنعه لكن قوى مجهولة منعه.

أمسك الغريب بالكتاب ونظر إليه بشوقٍ غريب وقد توهجت عيناه. وكأنما لا يصدق أنه يحمله. وبعد حين رفعه أمام أنفه وتشممه بقوة، وقال بنشوة:

-كم أوحشتني يا صغيري. يوماً ما ستعود إلى موطنك.. يوماً ما ستعود إلى أبائك ليرعوك ثانية. لكن هذا ليس الآن. لم يحن الوقت بعد. مازال على كلينا أن ينتظر!.

ثم التفت نحو عبدالتواب الذي يرمقه بحيرة، وقال له:

-تملك القوة يا فتى ولا تدري ماذا تفعل بها. كم أنت شقيُّ أيها البشري

-وماذا أفعل به. إنه يرفض أن يبوح بمكنونه.

-الدماء وحدها ليست مفتاحه. ربما تصلح للبداية لكن هناك أمور أخرى يحتاجها ليتكلم.

-لقد قدمت أضحيتين له لكنه لم يبح إلا بالقليل.

-فثَّن عن الشيخ الأسود. ابحث عنه تظفر بالإجابات. إنه بغيتك أيها البشري.

"الشيخ الأسود؟" ردد بحيرة.. من هذا الشيخ الأسود وأين يجده.. ومرة أخرى أجاب الغريب عن تساؤلاته دون أن ينطق بها قائلاً:

-عليك أن تبحث يا فتى. كفى كسلاً ودع كهفك وتحرك. ابحث عنه لتحظى بأحلامك.

قالها وناوله الكتاب.. شعر عبدالتواب باليد المرتعشة التي تسلمه الكتاب كأنما تفعل هذا رغماً عنها.. ثم وجد الشيخ يتجه للخارج مُزمعاً الخروج وعصاة تطرق الأرض الصخرية، قائلاً:

-والآن أعود للصحراء والرمال ثانية. أما للغريب من راحة؟!

وغادر الكهف وراح يبتعد ببطء أمام عيني عبدالنواب الذاهلتين حتى اختفى..العجيب أن الرائحة الكبريتية العنيفة ظلت بالكهف لفترة طويلة دون أن تختفى وظل سؤال عبدالنواب مُعلّقًا في جدار الزمن بلا إجابة -من كان هذا؟..

(7)

طلالت الرحلة دون أن يدرك مقصده، وتعاظمت الحيرة والقلق والتهية والغربة والتعب. جاب عبدالنواب البلاد من أقصاها إلى أدناها. لم يَكْفَ لسانه لحظة واحدة عن التساؤل. هل يعرف أحدكم الشيخ الأسود؟..

كان البعض ينظر إليه حينها بريبة وشك وتعجب قبل أن يرد عليه أنه لا يعرف شيئًا كهذا. وكان البعض الآخر يرشده إلى أقرب شيخ أسود البشرية يعرفونه. لكن أيًا منهم لم يكن هدفه. رأى في قرية بالبحيرة شيخًا ضريبًا أسودًا. كان قمنيًا قبيحًا فلم يحبه، وكان يعمل بالدجل والسحر.. ومنذ اللحظة الأولى كشف زيفه وادعائه، وقد رأى الكثيرين من أمثاله. سأله الرجل عن حاجته فأجابه باقتضاب أنه يبحث عن الشيخ الأسود. هنا ضحك الرجل كاشفًا عن أسنان سوداء قدرة نخرة وقال متهكمًا:

-وما هو الشيخ الأسود أمامك بكل جوارحه إلا بصره. هل أتيتني لأعد لك عملاً يذهب بأعدائك للجحيم نفسه، أم تراك ترغب في التخلص من زوجتك. يمكنني أن أساعدك في هذا ولا تقلق، فلست وحدك من يرغب في هذا، هناك الكثيرون غيرك، أم تُراك تفكر في...!

هناك لم يحتمل عبدالنواب كل هذا الهراء الذي يسمعه فقاطعه قائلاً:

-هل سمعت عن كتاب الدم؟..

-ولا كتاب الماء!..

-إذا فلا حاجة بي لك..

لم يكف الكتاب حينها عن إصدار همساته الخفية التي يصدرها من حين لآخر. اعتاد تلك الأصوات المخيفة فلم تعد تدهشه..ومن حين لآخر كان يخرج قطعة الحجر التي اقتطعها من المغارة ويلمسها بكفه لتصير مرآة يرى خلالها زوجته وابنه، فيتخلج قلبه شوقًا. ويتمنى لو أمكنه العودة، لكن رحلة البحث لم تتم ولن يعود إليهما قبل أن ينهيا.

وفي أسيوط وفي إحدى المغارات في قلب الجبل ذهب للقاء شيخ أسود يحكون عن كراماته وقدراته. فوجده أنثى. عجوز شمطاء سوداء، كريمة الشكل والرائحة. لم يحبها، لكنه ومنذ الوهلة الأولى أدرك أنها ساحرة بحق وليست مُدْعِيَةً أو دُجَالَةً كغيرها. دخل عليها مغاربتها ارتجف من نظراتها التي تفحصته وقد شعر أن تلك النظرات تنفذ إلى أعماقه فَتَعَرَّجَهَا. أراد أن يخفي عنها غرضه الحقيقي من الزيارة لكنها كانت هي من تكلم:

-لديك من الأسرار الكثير أيها الشاب، وقلبك مثقل بالحيرة.

انعقد لسانه فلم يدرى بما يجيبها. وواصلت الحديث:

-لست الشيخ الأسود، ولا أدري حتى كيف يكون. لا أحد منا رآه ولا أحد يدرى كيف يكون. إنه أسطورتنا الحية التي لا نعلم أرضها. إنه سيدنا جميعًا الذي لا نعرفه. البعض يدعوني بالشيخ الأسود ربما لخوفهم مني أو ربما لأنني زنجية. لكنني لست الشيخ الأسود. أنا جواهر العرافة. لا تنس هذا الاسم أيها الشاب. تعلم أن تذكرني.

كيف عرفت كل هذا دون أن يتحدث.. هل هناك من يخبرها بما حدث معه أم أن عقله صار كالكتاب المفتوح يقرأه من يشاء. المارد قد فعل من قبل والرجل الغريب فعل وما هي تفعل. لاذ بصمته وانتظر أن تكمل..

-أرني الكتاب الذي لم يره أحد منذ أجيال.

هنا تردد. مادامت ليست هي الشيخ الأسود فلماذا إذا تبغى رؤية الكتاب. وجد نفسه يتراجع للخلف أمام أناملها السوداء الغليظة الشبيهة بالمخالب والتي امتدت نحوه. ظل يرمى اليد الممدودة دون أن يجيب طلبها فسحبها ثانية وابتسمت قبل أن تطلق ضحكة كحشجرة الموت وتقول :

-لا أحقد عليك أيها الشاب لامتناعك عن إعطائي الكتاب. لو كنت مكانك لفعلت. الكتاب أيها الشاب خطير ومن يعرف كم يمنع لا يتمنى غيره. إياك أن تأمن أحد يعرف عنه شيئاً. إياك أن تُفَرِّط فيه. إياك أن تخبر عنه أحدًا غير الشيخ الأسود.

وتكلم للمرة الأولى:

-لكنى لا أجده.. شهور طويلة مضت وأنا أبحث عنه ولا أعرثر عليه.

-ابحث عنه وستجده. إن الكتاب معك وحتماً ستجده. كلاكما يبحث عن الآخر فاصبر.

أراد أن ينصرف وقد انتعش ببعض الأمل حين عرفت ما بجعبته وحين أكدت له أن الشيخ الأسود ليس خرافة وأنه حتماً سيجده، لكنها استوقفته قائلة:

-بومًا ما ستحوز القوة فاذكرني. سيكون لي طلبًا تنفذه من أجلي حينها، لكى لن أخبرك به الآن. فقط عدنى أن تحقق طلبى حينها.

لم يرغب في التورط في وعد لا يدرى كنهه فتردد. ابتسمت عن فم ملء بالفجوات وقد خلا من الأسنان إلا من سن نخرة، وقالت:

-سأعطيك في المقابل شيء ينفعك للغاية. خذ هذه ولا تفتحها الآن.

قالها ووضعت في كفه لفافة صغيرة من الصوف مربوطة بخيط رفيع.. تأملها بجيزة وحذر فقالت :

-الشيخ عبدالله وأعوانه يتبعونك يا فتى وبومًا ما قد يصل أحدهم إليك قبل أن تصل لسر الكتاب وقيل أن تصير قوياً لتحمل نفسك.. لو حدث هذا ووصلوا إليك فَكَّ الخيط وألق تلك اللفافة في وجوههم وسوف تقبك شرهم..

نظر لللفافة مرة أخرى وأدرك أنها لا تخدعه وقد علمت بمن يطارده بل ومدته بالقوة التي قد تحميه منهم. وضع اللفافة بجيبه ورفع رأسه بعدها نحوها وقال:

-أعدك يا جواهر أن ألبى طلبك حينها..

-لا تنسى أيها الشاب. لا تنسى كفيترك.

وطاف بعدها بكل مكان. زار الأقصر وأسوان ووصل إلى الواحات البعيدة في الصحراء بلا جدوى، حتى ينس من العثور عليه فقرّر العودة إلى القاهرة خائفاً. سيعود لعائلته وسيكشف عن البحث عن هذا الشيخ اللعين وبلى وسيعيد الكتاب للشيخ عبدالله في مقابل أن يكف عن مطاردته وتعبه

ركب القطار من أسوان واختار مقعدًا بجوار النافذة ونام.. وحين استيقظ بعد ساعات أدرك أن القطار صار قريباً من قنا. نظر حوله فوجد شاب أبيض كالثلج في مثل عمره يجلس بجواره، ويرتدى بذلة سوداء وطربوشاً أحمرًا طويلاً. بدا كأحد الموظفين الكبار أو أحد طلاب الجامعات. كان يرمقه بسكينة فشعر عبدالنواب بالريبة. انكمش في مقعده فابتسم الشاب وقال :

-يبدو عليك التعب والإعياء. ظللت نائمًا لخمس ساعات وقد ارتفع غطيطك عاليًا. أنت تجهيد النوم يا هذا.

شعر ببعض الخجل فحكَّ عينيه بظهر كفيه وقال:

-بالفعل إنني متعب للغاية. لكنني الآن أفضل..

-أرى هذا.. وأرى أنك في طريقك لبلوغ راحتك.. رحلة طويلة تلك التي خضتها يا عبدالنواب بالفعل.. رحلة طويلة مُرهقة لكنها تستحق.

اتسعت عيناه في ريبة.. كيف عرف هذا الشاب هو الآخر سره؟ هل صار العالم كله يعلم ما الذي يبحث عنه. لكن حيرته هذه المرة لم تَطُل. إذ قال الشاب له باسمًا:

-أه.. إنني أعتذر حين فاجأتك بمعرفتي أحوالك واسمك دون أن تعلم من أنا. لقد نسيت أن أقَدِّم نفسي لك في البداية

وصمت للحظة وأكمل:

-أنا الشيخ الأسود..!

الفصل الرابع

لعنة الثانية والثلاثين

(قبل أعوام سبع)

بالخارج للممت الشمس بقاياها واختفت بتودة خلف خط الأفق مُخَلِّفةً بعض أشعتها الواهنة في قلب الأفق، ومن المئذنة التي تبعد عن البيت عشرون مترًا، ارتفع أذان المغرب مخترقًا غياهب الفضاء داعيًا الخلق للصلاة.

وفي داخل المنزل كانت أم عماد قد انتهت من إعداد الطعام، ثم اتجهت لـحجرتها لتمارس هوايتها الوحيدة التي تجيدها دومًا.. الإنتظار..

اتصل عماد بها منذ ساعات وأخبرها أنه سيتأخر في عمله قليلًا.. كان يكذب وكانت تعلم ذلك. لابد أنه الآن مع منى، حبيبته. كان يكذب عليها كي لا يضايقها، وهو يعلم أنها لا تتناول طعامها من غيره. لكن ما لا يعلمه أنها سمعت همساته بالأمس، وهو يحدث منى ويخبرها بموعدهما اليوم. لم تخبره بما سمعته، واكتفت بالدعاء له ورجته ألا يتأخر، فوعدها ألا يفعل.. لكنه دومًا يفعل. سيتأخر ككل مرة، ولن يأتي قبل الثامنة أو التاسعة، وككل مرة ليس أمامها غير انتظاره.

لقد كبر الفتى وصار عاشقًا، وبعد حين لن يطول، ستكون له حياته المستقلة مع حبيبته التي اختارها قلبه. سيُنسَلُ من بين يديها هو الآخر، كما حدث لأخته، حين تزوجت قبل عامين، ورحلت مع زوجها للخليج حيث يعمل. سيتزوج عماد هو الآخر، وقد يذهب مع زوجته بعيدًا، وستبقى هي بمفردها في البيت تجتر ذكرياتها وحياتها بملل الشيخوخة وضجر العجز، في انتظار موت يخفف عنها وطنة الحياة..

تحركت بثناقل وجرت قدمين منتفختين بالماء لتسير نحو حجرتها. صار قلبها ضعيفًا، ولهذا صارت قدميها متورمتين بالماء، كان عليها أن تتناول

الكثير من الأقراص كل صباح ومساء. في الواقع لم تجدى العقاقير كثيرًا، بل جعلتها تشعر بالإعياء طوال الوقت.

جلست على طرف فراشها للحظة قبل أن تخرج البوم صور عتيق كان أسفل الوسادة. فتحتة وتأمّلت الصور حبيسة الأغلفة البلاستيكية المتناكلة، قبل أن تنهد وتخرجها كلها من محبسها، وتنثرها على الفراش لتتأملها. رفعت إحداها وقربتها من بصرها، كانت صورة غير ملونة تجمعها بسالم. زوجها الراحل ووالد أبنائها.

كان يرتدى فيها قميصًا مقلّمًا، وينطال ضاق عند الفخذ واتسع في نهايته.. كان يحيط كتفها بذارعه وينتسم للكاميرا، وقد استكان رأسها إلى صدره باطمئنان من لا يخشى الغد. ابتسمت بمرارة وتذكرت كم كان الغد قاسي بعدها. وانتقلت بعينها إلى صورة أخرى.. كانت لابتسام وهي في الخامسة، وقد راحت تلتصق بساق أبيها الذي كان يرفع رضيعه في ذلك الحين عماد وهو يضحك.. كانت الصورة في القناطر الخيرية، وكانت هي من صورهم بالكاميرا العتيقة التي ما زالت تحتفظ بها في دولابها. كانت تلك الصورة هي الأخيرة لزوجها قبل أن تحل الفاجعة التي أودت به. قبّلت الصورة بشفتين يابستين وازدادت دموعها انهمازًا، وهمست كأنما تحدث زوجها:

- كم أفتقدك يا حبيبي.

ظلت الصورة بقبضتها ورددت برأسها على الفراش وأغمضت عينها الدامعتين وراحت تتذكر..

تذكرت الفتى الذي طرق قلبها قبل أن يطرق باب بيتها ليتزوجها. كان وحيدًا كزهرة برية في قلب الصحراء. أخبر أباه أنه بلا أب، أو أم، أو أهل

يعرفهم. لكنه راق أباهما فقبله، وتزوجا. دام زواجهما أعوامًا سبَّ فقط، لكن ذكرياتها معه في تلك السنوات كانت كعمره بأكمله.

مات سالم في يوم ميلاده، حين بلغ الثانية والثلاثين من عمره. مات بعد أحداث غريبة بدأت فجأة، ذهبت بعقله قبل أن تذهب بعمره. مات في الثانية والثلاثين من عمره وقد أخبرها قبل ذلك أن من المصادفات في عائلته أن والده قد مات في الثانية والثلاثين من عمره فجأة، وكذلك فعل جده. يومها كان يضحك وهو يخبرها أنه يسماها لعنة الثانية والثلاثين، وأنه يخشى أن يكون هو الآخر فريسة لها يومًا ما.

يومها احتضنته بجزع وهي تطالبه أن يكف عن قائله المشنوم هذا، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة لا أكثر. لكن الأمر لم يكن مصادفة، ومات هو الآخر في الثانية والثلاثين من عمره تمامًا..

وطوال أعوامها التالية عاشت في رعب لا ينتهى وهي ترى ابنها عماد ينمو أمام بصرها يومًا بعد يوم والحيرة تنهشها، هل تدركه هو الآخر لعنة الثانية والثلاثين كما لحقت بأبيه وأجداده. لم يكن هناك من سبيل لتدرك الحقيقة، وظلت أسيرة للحيرة والقلق حتى اعتل جسدها وحاصرتها الأمراض التي هدمته..

لكنها لم تخبر عماد عن تلك اللعنة الغامضة التي تجرى في دماء عائلته. لو كان مقدراً له أن يكون ضحيتها يومًا ما، فلتحدث فجأة دون أن يؤرقه انتظارها. ليعيش حياته الطبيعية كأقرانه دون أن يذوب احتراقًا وخوفًا في انتظارها، فكم كان الجهل رحمة وكم حملت المعرفة في جوفها الشقاء.

فتحت عينها وإعتمدت ورفعت رأسها للسماء ببطء تنأجى الخالق وتدعو من أعماقها أن يجعل موتها قبل يوم ابنها.

هَمَّت بالهوض لكن الدُؤَابَ فاجأها، فعدت لتجلس على الفراش.. شعرت بروحها تغادر جوفها، وأنبها قلبها المرتجف والعرق البارد الذي تفسد من جبهتها أن مستوى السكر في دمها قد انخفض حتمًا كثيرًا. لقد تأخرت في تناول الطعام والسكر وحش لا يرحم أخطاء كهذه. تعاملت على نفسها لتنهض كي تتناول بعض الحلوى التي تحتفظ بها في الكمود. نهضت بالفعل لكن الدوار عاد بتوحش في هذا الحين فمادت الأرض أسفل منها وترنحت، أمسكت بالقائمة النحاسي للسريز لتستند عليه، لكن جسدها أبى أن يطاوعها ويستقر، فهوت أرضًا رغم تشبها بالقائمة الذي هوى معها.. راحت تلهث والدوار يكتنفها ويكاد أن يُغَيِّبها عن وعيها.. كانت تعلم أن السكر لو واصل انخفاضه أكثر من هذا فقد تفقد وعيها للأبد، ولهذا راحت تجاهد غيبوبتها وتزحف نحو الكمود..

بلغته فالتقطت منه قطعة من الحلوى ألقها في فمها ثم أغمضت عينها وهي تمتص حلاوتها ببطء. مرت دقائق من الإعياء والقلب يخفق بسُغَارٍ، قيل أن ينحسر الدوار ففتحت عينها. رأت القائمة النحاسي الذي انهار معها فزحفت نحوه. أمسكته بيدها ورفعته فسقط من جوفه مفتاح نحاسي غريب تردد دوى اصطدامه بالبلاط صاخبًا، ثم سقط من القائمة ورقة مطوية حال لونها واصفر. رمقت المفتاح والورقة بحيرة وهي تفكر إن كانت هي من خبأهم في هذا القائمة أم لا. اعتصرت ذاكرتها لكنها لم تذكر أنها قد فعلت هذا يومًا ما. إذن من فعل؟. بالتأكيد ليس عماد أو ابتسام، هل يكون زوجها الذي رحل عنها قبل 25 عامًا هو من فعل.

عاد قلبها ليدق بقوة وهي تدرك أن شيئًا ينتمى لزوجها ظهر الآن.. تحسست المفتاح وتأملته.. كان ممثلًا بالنقوش الغربية المنمنمة. لم تستطع تمييزها. التفتت الورقة المطوية وقلَّبتُها بين أصابعها.. كانت صفراء مهترئة متأكلة الحواف. فتحتها لترى ما بها فشعرت بشيء حاد كالذبوس

يخترق جلد إبهامها.. كان الألم حادًا فصرخت.. وانفجرت من سبابتها دماء كثيرة، تشربتها الورقة الصفراء على الفور بنهم شيطاني. أَلقت الورقة بحقن لتتفقد إصابتها.

كانت عينها تتأمل الإصبع الدامى فلم تلاحظ الخيوط السوداء المظلمة التي راحت تنبثق من العدم على الجدار خلف الفراش.. لم ترى الثعبان المشتعل الذي ظهر فجأة في قلب الجدار حول جمجمة مشتعلة بعيون نارية مخيفة وقرنين ملتويين. لم ترى هؤلاء الأشباح الذين خرجوا فجأة من الفراغ من خلفها، وهم يرمقونها بقسوة بوجوه مسطحة لاتحمل إلا قُمًا مظلِّمًا مفتوحًا عن آخره..

ثم هتفوا فجأة بترانيم مخيفة فانتبهت. وحين استدارات برأسها للخلف والفزع يقتلها لترى ما يدور صرخت صرخة واحدة. كان هذا هو كل ما فعلته قبل أن تفقد وعيها.

ولم ترى أبدًا كل تلك الأجساد الدخانية التي راحت تغوص في بدنها وتختفي فيه.

(2)

أدرك عماد وهو يفكر في أمه أنه تأخر كثيرًا. كانت عقارب الساعة تعدو سريعًا نحو العاشرة مساء وقد خلت الشوارع الباردة من المارة. سقطت فوق رأسه قطرة من مطر، فرفع رأسه نحو السماء المظلمة الملبَّدة بالغيوم والسحب. كان يحب المطر ويهوى السير فيه، لكن ليس في وقت كهذا. كان في مزاج أبعد ما يكون عن الرغبة في الإستمتاع بأى شيء. كان في مزاج لا يشتهي البهجة..

كانت هناك مئى، وكانت هناك مشاكلها مع أمها التي ترغب في تزويجها بابن أختها الطبيب الثرى الذى يعمل في دبي والذى يتقاضى في شهر واحد ما يتقاضاه أباهما في عامين، أخبرته مئى أنها ملت كل ما يحدث. وفي النهاية أخبرته أن عليه أن يفعل شيئًا ما ليصمت الجميع، كان يعنى ما تطلبه منه.. تعال وتقدم لخطبتي.. اذهب إلى أهلى وأخبرهم أنك تريد أن تتزوجنى.. افعل شيئًا ما يُغلق هذا الباب المفتوح الذى يتسرب منه كل يوم ألف عريس وخاطب..

ابتسم لها مشجعًا وهو يحتضن أناملها الطويلة الرفيعة بين أصابعه، ويقبلها. وهمس لها مطمئنًا:

-لا تقلقى يا حبيبتي. سوف أطرق بابكم قريبًا. ولن يكون هناك المزيد من الخُطَّاب.

استسلمت يديها الباردتين لأحضان كفيه، لكن عينها ظلتا جامدتين وقالت:

-إذن أخبرنى متى تنوى أن تفعل؟..

يُقرَّب أناملها من شفتيه وينفخ فيهما بعض الهواء الدافئ من صدره قبل أن يجيبها:

-أريدها أن تكون مفاجأة.

-تعلم أنى لا أحب المفاجآت. أخبرنى الآن بموعد أخبر به أمى كي تكف عنى.

-أخبرى أمك أنها لو لم تكف عن إلحاحها وملاحقتها لك، فسوف أقتلها..

وتسحب يديها من بين كفيه، بغضب وتصيح اعتراضًا:

-أنا لا أمزح يا عماد.. يبدو أنك لا تفهم ولا تدرك كم أعانى..

كان قد قرر أن يتقدم وقد حاز على بعض النقود، تكفيه لخطوبة محدودة.. لكن كان عليهما أن ينتظرا عامين آخرين قبل أن يكون مستعدا للزواج.. أخبرها بما انتواه فارتسمت البسمة على شفتها لأول مرة مُزِنخةً توترها وهمست بعيون استعادت بريقها:

-لتكن أعوامًا ثلاث أو أربع، هذا لا يهمني.. اخطبني الآن، وبعدها تزوجني متى شئت.. فقط أحرص كل هؤلاء الخطاب وامنع أُمى عني.

وصل إلى عمارته التي يقطن فيها فوجد المدخل مُظلمًا.. دلفه شاعرًا بالدفء، وصعد لشفقته.. كانت مظلمة هي الأخرى.. هل نامت أمه كل هذا الوقت فلم تلحظ الظلام؟.. تحسست يده العائط بحثًا عن مفتاح الإضاءة.. أضاء المكان، فوجد أمه جالسة في الصالة على الكنبه المواجهة لباب الشقة.. كانت ترمقه بعيون جامدة ثابتة وأجفان لا ترمش. ارتجف حين رآها هكذا، لكنه سرعان ما ابتسم وهو يغلق باب الشقة، ويغمغم بإجراج:

-مساء الخير يا أُمى.. لماذا تجلسين في الظلام هكذا؟..

جاوبه الصمت، فشعر بالقلق وظلت على جلستها ساكنة جامدة.. اقترب منها وهو يقول لها معتذرا :

-أعلم أنك غاضبة منى لكننى لم...

وقطع كلماته حين أمسك كفها ليقبلها.. كان بارداً كالثلج، فرمقها بقلق قائلاً وهو يتحسس جبهتها التي كانت باردة كذلك:

-يا إلهي ! ماهذا؟.. أنت باردة للغاية. هل تشكين من مرضى ما؟

مرة أخرى لم ترد عليه وظلت على صمتها ومجمودها. تفقدتها ببصره بقلق دون أن يترك يدها الباردة.. هزها برفق وهتف بها:

-أُمى تحدثي إلى وأخبريني هل أنت بخير؟.. هل تشعرين بشيء ما.. تحدثي إلى أرجوك.

هنا تحركت مقلتها المتحجرتين نحوه، وفتحت فمها وتحدثت، لكن ما خرج من فمها لم يكن صوتها أبداً.. كان صوتاً آخرًا غير صوتها.. صوت غليظ غريب جعله يثب للخلف في هلع..

-لقد رحلت أمك أيها الأحمق.. رحلت للأبد وصارت ملكاً لنا الآن. إياك أن نتعنتها بأمك بعد الآن. إنها لم تعد أمك.

رمقها بعيون مذعورة، وقد عادت أمه لصمتها وهي ترمقه بعيون جامدة لا حياة فيها. ظل متمسراً في مكانه يرققها بخوف وحيرة للحظات قبل أن يتمالك نفسه ثانية ويحدثها هامساً بصوت مرتجف:

-ماذا هناك يا أُمى. ولماذا تتحدثين هكذا؟.. ما الذى يحدث؟!

ظلت على جمودها للحظات قبل أن تعاود الحديث بنفس الصوت الغريب:

-ألم أخبرك أن هذا الجسد لم يعد ينتمى لأُمك؟.. لقد رحلت أمك كما سترحل أنت الآخر.. كلكم ترحلون طوال الوقت ونبقى نحن. سوف نكون نحن فقط في النهاية.

وأطلقت ضحكة مخيفة رددتها الجدران بصدى مرعب.. أحس عماد بذعر لا حدود له في تلك اللحظة، وشعر أن تلك التي تحدثه ليست أمه حقاً. لا يدري لماذا خشى من أمه هكذا في تلك اللحظة. فكر أن يفر من أمامها لكنه أحجم وقد شعر بالخجل من نفسه لأنه فكر في تركها وهي هكذا. لأهمه ما أَلَمَّ بها أو ما تعانیه، في النهاية هي أمه وعليه حمايتها ومساعدتها..

واندفع الأدرينالين في دمانه بجرجعات كبيرة أزارته على مخاوفه، تقدم نحوها وأراد أن يحتضنها.. لكنه ما أن لمسها حتى امتدت يدها نحوه فأطبقت على كتفه بقوة رهيبة ألمته كثيراً، قبل أن تدفعه بعيداً.. وجد جسده يطير فجأة في الهواء لمسافة كبيرة قبل أن يصطدم بالعناط المقابل فيتكوم أسفله في ألم ورعب.. شعر بهشم عظامه كلها، وراح قلبه يتواثب في صدره وهو يرى أمه تتحرك نحوه وابتهامة مخيفة ترسم على شفتها وما زال الصوت المخيف هو ما ينبعث من حنجرتها:

-أحمق أنت الآخر كابانك.. لماذا ترفض أن تصدق أن أمك قد رحلت، ولم تعد تنتمي لعالمك الفاني.. لقد ذهبت أمك ولن تعود.. حان الوقت لتعود هذا.

وامتدت يدها نحوه ثانية، فحاول أن يفر، لكنه لم يقدر، رفعته من قميصه بقوة هائلة، فوجد جسده يرتفع في الهواء ثانية، قبل أن تلقيه نحو جدار آخر.. هذه المرة ألمته ساقه اليمنى وقد شعر أنها قد تهمشت بلا شك.. لكن خوفه سحق ألمه وهو يفكر في الهرب. راحت أمه تضحك وهو تنظر إليه بشماتة، وجسده يئن ألماً وفزعاً.. وأحس بهواء ساخن يصفع وجهه دون أن يدري مصدره.

ومرة واحدة قفز جسده واندفع نحو الباب وهو يصرخ.. حاولت أمه اللحاق به لكنّه هذه المرة نجح في أن يسبقها.. وفتح الباب بسرعة. وخرج إلى السلم المظلم وهو يطلق صرخاته ومن خلفه ترددت صرخة ساخطة من فم أمه.. فُتح باب الأستاذ محروس في الطابق الذي يعلوه وهربت نحوه جارتهم أم محسن، وبعد حين لحقه الحاج رضا الذي يسكن أسفله.

كان يرتجف وعشرات الأسئلة الحائرة تلقى على مسامعه.. لكنه اكتفى بأن أشار نحو شقيقته. وغمغم بصوت أقرب للبكاء:

-أمي! لا أدري ماذا حل بها.. لقد هاجمتني.

اتسعت أعينهم بدهشة، ثم اندفعوا للداخل.. كانت أم عماد تجلس على الكنبة مهدوء باردة، وبدت الشقة في فوضى عارمة، وقالت لها أم محسن بحذر وعيناها تتحركان في محجرتها بقلق:

-ماذا بك يا أم عماد.. ولماذا تضربين عماد؟.

لم تجهيها. فذنت منها أم محسن بحذر، والحاج رضا والأستاذ محروس يراقبهما بحذر.. وما أن لمستها أم محسن، حتى رفعت أم عماد رأسها نحوها، وأطلقت صرخة كالفتح في وجهها، وقد بدت ملامحها شرسة للغاية، وهتفت بها محذرة:

-إياك أن تلمسين أيها البشرية اللعينة.

نبض قلب أم محسن هللاً، وتراجعت بظهرها للخلف، قبل أن تتعثر في السجادة فتسقط عليها وهي تصرخ وكذلك فعلت أم عماد. وراح كل شيء في الشقة يرتجف ويهتز كأنما تحركه أياد خفية.. فكر الحاج رضا في أن يفر من هذا الجحيم لكنه خشى أن يُهم بالجن، بينما راح الأستاذ محروس يقرأ بصوت مرتفع الآيات الأولى من سورة البقرة..

ظلت أم عماد تصرخ للحظات، قبل أن تطلق ضحكات ساخرة زادتهم رعباً.. هنا استجمع عماد شجاعته فاندفع نحوها ليسكتها.. قاومته لكن الحاج رضا والأستاذ محروس أدركاه ليساعدها.. راحت تصرخ بين أيديهم احتجاجاً وهي تضربهم، وصاح الأستاذ محروس فيهم وهو يقاوم كفها الذي يبغي غنقه:

-أدخلوها حجرتها بسرعة.. علينا أن نقيدها إلى الفراش..

تعاونوا بجهد على إرقادها بالفراش وظلت تصرخ وتدفعهم بذراعيها بقوة وعنف وتغمشهم بأظفارها متى استطاعت أن تصل إلى شيء منهم.. وصرخ الحاج رضا في عماد وهو يشعر بالدم يسيل من ذراعة بعد أن جرحته:

-أحضر أئ شيء نُقِيدُهَا به يا عماد..أسرع يا رجل

تركهم عماد واندفع نحو المطبخ وبعد لحظة عاد بحبلٍ غليظ.. نجحوا في النهاية أن يقيدوها رغم مقاومتها الهائلة التي لا يعرفون من أين أتت بها.. لكنهم ما أن انتهوا حتى فوجئوا بها تصرخ بنفس الصوت الغليظ المخيف..

-لن يفيد هذا أيها الحمقى، ولن تقيدوننا للأبد.. سوف نتخلص من هذا القيد في وقتٍ ما، وحينها سوف تدفعون الثمن.. سوف نمرح جميعًا حينها. وترددت من فمها ضحكة ساخرة أخرى، فارتجفوا وهم يرمقونها بوجوم..

(3)

-لا حل إلا الشيخ كريم..دعوا إلى الأمر وانظروا كيف سينتهي كل هذا السخف.. أنتم لا تعلمون كم هو الرجل مبارك وكيف هو "سره البائع"

هكذا هتفت أم محسن وهي تمد عنقها من حينٍ لآخر عبر الصالة، لتنظر إلى جسد أم عماد المسجى على الفراش. رمقها عماد بحيرة وهو لا يعلم من هو الشيخ كريم هذا الذي تتحدث عنه وما هو الشيء الخارق الذي يبشر به..لكنه أحجم عن الحديث وعقله يشتعل تفكيرًا في ما جرى منذ قليل من أمه..

وقال الحاج رضا وقد راح طوال الوقت يستعيز بالله من الشيطان الرجيم:

-هذا الأمر يتعلق بالجان. هذا واضح لا التباس فيه..هناك جان يتلبسها وهو حتمًا من فعل كل ما قامت به. ألم تروا كيف كانت تتحدث، وكيف تبدل صوته..هل رأيتم كيف قاومتنا. صدقوني إنه جان وليس أمرًا آخر.

وابتلع عماد ريقه بصعوبة وقلبه يرتجف في صدره..أئ جانٍ هذا الذي يتحدث عنه الحاج رضا..الأمر لا يحتمل كل تلك التعقيدات..ربما كان هناك تفسير لما حدث وربما كان هذا التفسير أبسط بكثير مما يسمعه. راح عقله يفكش عن هذا التفسير لكنه عجز، ووجد الأستاذ منصور يقول هو الآخر:

-أخشى أنني أوافق الحاج رضا في كل ما ذكره..لقد شهدت شيئًا كهذا من قبل..كان ابن أختي ملبوسًا بأحد الجان، وقد قام حينها بأشياء مريبة تشبه كثيرًا تلك التي حدثت الآن.

وافقت أم محسن كذلك، وهي تهز رأسها وهتفت:

-ومن أين جاء هذا الجان..إنها "تعيش في حالها" ولا تؤذي أحدًا

أجابها الحاج رضا :

-من يدري يا أم محسن..ربما سكبت ماءً مغلياً في المرحاض أو حوض الغسيل، ربما سقطت في الحمام وربما غُتت أو صرخت فيه..أعتقد أنهم يأتون هكذا.. لقد رأيت شيئًا يتحدث عن هذا في أحد البرامج التلفزيونية. شعر عماد بالحنق من هذا الهراء الذي يدور حوله، وتمنى لو يسألهم لو يتركونه الآن بمفرده ليفكر في مصيبتهم تلك..كان يرغب في الوحدة ليفكر فيما عليه أن يقوم به، لكنه أمسك لسانه ولم يفعل خجلًا.. وسمع الأستاذ محروس يحدثه قائلاً:

-لماذا تصمت يا عماد ولا تتحدث. أخبرنا بما تفكر فيه للمشاركة الرأي

فتح عماد فمه ليتحدث، لكن صرخة مخيفة من أمه أخرسته على الفور وقد ارتجفت أجسادهم جميعاً لها.. هنا نهضت أم محسن وتحركت نحو عماد ثم توقفت أمامه وقالت بحزم:

- اسمعني جيداً يا عماد، هذه أمور لا تعرفها ولا تفهمها، لهذا اترك الأمر لي وسوف أجلب الشيخ كرم.. لو كان هذا جائناً أو شيطاناً رجيماً حتى، فهو خير من يطرده أو يحرقه لو لزم الأمر.. وافقني فيما أريده وسنذهب سوياً له في الصباح لنأتى به لها.

رمقها عماد بجزيرة قبل أن يمز رأسه بيأس بحركة مهمة تعنى الموافقة.. وبعد ساعة تركه الجميع، قضى ليلة ليلاء مع أمه التي لم تكف عن الصراخ والتهديد والوعيد له.. رقد على الكنبه المواجهه لحجرتها ليراقبها وقد قرر ألا ينام، لكن البرد والسكون والملل غلبه فنام بعد ساعات..

وما بين اليقظة والنوم، شعر بحركة ما تدور من حوله. استيقظ عقله مرة واحدة، وفتح عينيه ليصدم بعيني أمه التي مالت نحوه وقد سقط شعرها المبعثر حول وجهها وهي تبتسم كالشياطين. كاد قلبه أن يتوقف فزعاً، وهو يفكر كيف فُكَّت قيودها، وما الذي تنوى فعله به.. وهتفت في وجهه بصوتٍ كالفرح:

- هل ظننت أن تلك الحبال المخيفة ستعوقني وتحملك مني. والآن قد فشلت حيلتك وحان وقت الحساب أيها الطفل الشقي. هيا أخبر أمك كيف تريد أن يكون عقابك؟ هيا أخبرني. إنني انتظرك.

حبس أنفاسه في صدره، وعيناه تدوران في محجريهما برعب. أراد أن يتكلم لكن فمه الجاف كالخشب لم يطاوعه، وواصلت هي حديثها المفزع وهي تتحسس وجهه بأنامل باردة قاسية:

- إننى جائعة للغاية يا عماد.. أشعر أننى لم أكل منذ قرون بعيدة.. إننى أتوق للطعام بشدة.. هل تعلم أى طعام أشتهي الآن؟.. خمن!.

انتزع الكلمات من حنجرتة بصعوبة، وهو ينكمش على نفسه أكثر وهمس بفرع وهو يشير بعينه نحو المطبخ:

- هناك الكثير من الطعام بالمطبخ. تناولى منه ما شئت.

اتسعت عينها بشدة حتى صارتا تملأن وجهها كله وهمست في أذنه:

- وماذا عنك.. ماذا لو كنت أشتهى لحمك؟!.. اتضن بهذا على أمك!.

عينها صارتا بلون الدماء وانتفض جسده هلعاً حين فتحت فمها بعدها باتساعه.. رأى الأسنان التي استطلت وصارت أكثر حدة.. شَمَّ الرائحة العفنة التي انبعثت من فمها والتي ذكرته برائحة القبور، وانحنى على رقبته لتقضمها وقد عجز جسده عن التحرك مدافعاً عن نفسه، أو محاولاً إبعادها عنه.. لم يكن أمامه إلا أن يصرخ.. ونجحت صرخة في الإفلات من فمه في النهاية، وقد لامست أسنانها عنقه..

ثم استيقظ..

هَبَّ من رقدته والعرق يغمره، ورأسه يدور بلا توقف في المكان مُفْتِشاً عن أمه. ما زالت أمه على فراشها تصدر تلك الأصوات الغريبة، وما زالت قيودها كما هي.. كان حُلماً إذن.. جلس على الكنبه ثانية وراح يلتقط أنفاساً عميقة لهدئ من روعه ومضى وقت طويل قبل أن يهدأ قلبه.. ولم ينام ثانية..

وفي اليوم التالي صحبته أم محسن إلى عمارة حديثة بالسيدة زينب. وأمام إحدى شققها الفاخرة توقفوا وقرأ عماد اللافتة التي تعلق الباب:

دخل الشقة الأنيقة فتحركت نحوهما فتاة في مستقبل العمر ترتدي بنطلوناً ضيقاً، وبلوزة قصيرة فجرت الأتونة فيها.. لم يتوقع ما يراه وقد تخيل أن يدخل شقة قديمة بها أرائك خشبية كئيبة وإضاءة خافتة، تستقبلهم فيها امرأة بدينة قدرة، وهي تحدثهم عن كرامات الشيخ، وتخصي لهم فضائله.. كان كل شيء مختلف تماماً عما دار بباله قبل أن يأتي المكان.. تحدثت أم محسن إلى الفتاة ذات الإبتسامة العملية، بينما اتجه هو نحو أحد الأركان وجلس وراح يراقب الآخرين الذين بادلوه النظرات الفضولية.. بدا المكان كعيادة طبيب أكثر مما أوحى بمكان شيخ يعالج من المس الشيطاني وغيره.. احتفظ بصمته، وراحت أم عماد تتحدث إليه بلا توقف عن الرجل وما يقدر على فعله.

مضت الساعة قبل أن تشير إليهم الفتاة الجميلة بإصبع ملطخ بالأصباغ أن دورهم قد حان، فتحركوا نحو حجرة الرجل. وكما توقع عماد كان الشيخ مختلفاً عما يظنه. كان في قد تجاوز الخمسين من عمره ذو شعر ناعم أسود ينسدل على جبهته، ولحية خفيفة سوداء تتخللها خصلات بيضاء، وعيون سوداء واسعة نافذة تثير التوتر، وعلى شفثيه ارتسمت ابتسامة مريحة. كان يرتدي حلة أنيقة سوداء ورباطة عنق رمادية. وقد أسدل فوقها عباءة بنية زادته وقاراً.. جلس خلف مكتب أنيق هو الآخر كالمكان كله، تعلوه مبخرة كهربائية مشتعلة يتصاعد منها البخور. وعلى الحوائط ظهرت بعض الآيات القرآنية ذات الخطوط المتشابكة المتداخلة، وفي ركن آخر كان هناك بعض الأفنعة الغربية المخيفة والغريبة. وقد غرقت الغرفة بأكملها في رائحة البخور العطرية القوية.

ظل الشيخ كريم يتبعهما ببصره وابتسامته لا تفارق وجهه، وحين جلسا قال لهما بصوت رخيم هادئ:

-مرحباً بكما في مكتبي المتواضع. أتمنى لو أمكنني مساعدتكما.

تحدثت أم محسن.. قصبت عليه كل ما حدث والشيخ يتابعها باهتمام دون أن يقاطعاها وحين انتهت النفث إلى عماد وسأله:

-إذن فهي أمك يا أستاذ عماد ؟.. إنه أمر مؤسف بحق، لكن لا تقلق لن يدوم هذا العبث الشيطاني طويلاً وستشفى منه بإذن الله..

-لا أتمنى غير هذا.

غمغم عماد، وعاد الشيخ ليتحدث:

-أخبرني يا أستاذ عماد.. هل ما حدث لها يحدث لأول مرة وهل حدث أمر مماثل لأحد غيرها في العائلة؟.

-إنها المرة الأولى التي يحدث فيها أمر مماثل.

-وهل تشكو أمك من كوابيس سيئة.. قسط سوداء تزورها في أحلامها. حيوانات سوداء كالكلاب مثلاً تطاردها في نومها.. عيون مخيفة ترقبها أو أصوات مخيفة تسمعها وهي بمفردها؟.

-لم تخبرني بشيء من هذا أبداً.. لكن هذا لا يعنى أنه لم يحدث.. ربما حدث معها وأخفته عني.. إنني لا أدري حقاً.

هز الشيخ رأسه متفهماً وهو يلقي ببعض البخور في المبخرة الكهربائية فتصاعدت سحب الدخان وعاد ليسأل:

-وهل تواظب أمك على الصلاة؟.

-الأمل كله بيد الله وحده..إنما نحن أسبابه يا سيدتى.

قال عماد وقد غمره الأمل:

-إذن ماذا علينا أن نفعل الآن؟.

-يجب أن أراها في البداية.. هذه هى الخطوة الأولى.. سيكون هذا بعد صلاة مغرب اليوم لو كان هذا مناسباً.. فقط اتركوا العنوان مُفصَّلاً عند داليا، مساعدتى بالخارج ومعها الأتاعب، وسوف أكون عندكم في الموعد الذى حددته..كونوا بانتظارى ولن أتأخر.

(4)

حضر الشيخ كريم في موعده تماماً بعد صلاة المغرب مباشرة، وطلب على الفور أن يرى أم عماد. كانت أم محسن وعماد والحاج رضا بانتظاره..وتقدمته أم محسن نحو حجرة أم عماد. عبق المكان برائحة عضوية عفنة وشت بأن أم عماد قد أطلقت العنان لفضلاتها. لم يبد على وجه الرجل أى تأفف واتجه نحوها بلا تردد دون أن يولى اهتماماً لأم محسن التى راحت تعتذر عن تلك الرائحة الشنيعة..جذب مقعداً خشبياً من أحد الأركان وجلس أمامها. وبينما راح ينظر إليها متفحصاً راحت أم عماد ترمقه ببرود ولا ميلالة. بعد لحظات أغمض الرجل عينيه، وراح يردد فى سره كلمات مهمة وقد وضع كفه على جبهتها. مضت لحظات من الترقب، وعماد يتابع بعينه ما يفعله الرجل حتى شق الصمت صوت أمه. وخرج من معها نفس الصوت الغليظ المخيف:

-من هذا الأحمق، وما الذى يفعله هنا؟ هل أتيت بهرج ليرى أمك يا عماد؟

-بالطبع تفعل، أمى متدبنة للغاية ولا تترك فرضاً واحداً. إنها أيضاً تصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع.

-وماذا عنك؟.. هل جربت أن تقرأ يوماً عن الجان و طرق تحضيرهم أو محاربتهم.

-لم أهتم يوماً بتلك الأمور، ولم أفكر فيها أبداً.. إنها خارج اهتمامى تماماً.

صمت الشيخ كريم وخفض عينيه للحظات قبل أن يعاود حديثه:

-الأمر كما هو واضح، يحوى روحاً شريرة أو جاناً ما، أو يُنْقَل أنه مَس شيطاني لو تحدثنا على نحو أكثر دقة.. لقد صارت تلك الأمور تتكرر كثيراً هذه الأيام.. إنها نهاية الأيام كما يبدو.

-هل أنت قادر على مساعدتها؟.

اتسعت ابتسامة الرجل وحرك كفيه وهو يعبث بلحيته، وأجاب:

-هذا هو عملى ولهذا جئت.. سوف أعمل على علاجها من كل ما تعانیه.. لا هم في هذا إن كان من يفعل بها هذا عفريناً أو شبحاً أو جناً أزرقاً حتى.. بإذن الله سوف أذهب عنها كل هذا وسأشفي مما بها.

كانت عينا الشيخ كريم واثقتين، وشعر عماد بالراحة من كلماته وثقته. أحس أنه وَفَّق كثيراً في القدوم إلى الرجل الصحيح. ووجد نفسه ينظر إلى أم محسن بامتنان، ويبدو أنها قد أدركت ما يجول بخاطرهم فقالت على الفور وهى تبتسم:

-أملنا في الله وفيك يا شيخ كريم كبير، لقد أخبرت عماد أنك لن تخذلنا.

وخفض الشيخ كريم رأسه بتقوى، وغمغم :

قالتا لعماد وأطلقت ضحكة صاحبة مخيفة، وقبل أن يتحدث عماد أشار إليه الشيخ كريم ألا يفعل.. وبينما استمر الرجل في تراتيله الخافتة دون أن ينصت إليها، واصلت هي في حديثها:

-أنت تمزح أيها المهرج بحق.. ما هذا الهراء الذى تتمتع به.. ارفع صوتك بما تقوله ليسمعوك وليضحكوا معي.. إنه مهرج.. مهرج يا حمقى.

قالتا وعادت لتضحك ثانية.. وبينما توتر عماد، فتح الشيخ كريم عينيه وقال لها بثقة وهو يرسم بكفه في الهواء حول رأسها دوائر وخطوط وهمية متشابكة:

-أشعر بخوفك منى، وأفهم ما الذى تروم إليه بنعتي بالمهرج.. أنت تعلم أننى سوف أخرجك من جسدها، أنت تدرك أننى قادر على فعل ذلك.

لكنها ردت عليه بتحدي، وقالت :

-أنت واهم. وأعدك أن تدفع ثمن تحديك لى.. أنت ترتجف بداخلك وتعلم أنك عاجز أمامى. هيا أخبرهم بهذا ولن أؤذيك كثيرًا.. أفعليها لأصفح عنك.

وجم الشيخ كريم ولم يرد. رمقها للحظة، ثم نهض من مقعدة والتفت نحو عماد وقال وهو يخرج من الحجرة:

-لقد أنهيت.. دعنا نكمل حديثنا بالخارج.

لكنها عادت لتتكلم بمكر:

-تسمى نفسك الشيخ كريم.. ليس كذلك. لديك فتاتين. يمكننى أن أراهما. الكبيرة فاتنة بشعرها الطويل الأحمر، والصغرى تشبه أمها التى طلقها منذ عشرة أعوام..

انفض الشيخ كريم فجأة، وتسمر في مكانه للحظة، وبان على ملامحه الفزع لأول مرة وقد اختفت ثقته بنفسه. رأى عماد كل هذا في وجهه فاضطرب هو الآخر، وانتظر أن يبدأ الشيخ كريم بالحديث ليفسر له ما يجرى، مضت لحظات من الترقب ظل الشيخ كريم خلالها يرمق الحجرة بتوتر قبل أن يشيح وجهه ويقول:

-أغلق الحجرة عليا.. لا أريد أن تزيد من توترنا بحديثها هذا. إن من يستحوذ عليها شرير جدًا وماكر للغاية.

وصلهم صراخها وضحكاتهما المكتومة عبر الباب المغلق، فأكمل بقلق:

-إنه جن قوى كما لم أرى من قبل. أعتقد أنه أحد أمراء الجن الأحمر. إنهم من يمتلكون القوة ليفعلوا شيئًا كهذا.

ارتجف الجميع لوقع كلماته في قلوبهم، وغمغم عماد بصوت مختنق:

-وهل يمكنك التغلب عليه؟

عادت الإبتسامة الواثقة إلى وجه الشيخ كريم واسترد وجهه حمرة، وقال:

-سوف أخرجها منها بالطبع؟. لكن هذا سيتطلب بعض النفقات، والإعدادات والمساعدة من آخرين.

أجابته الحاج رضا وهتف وهو يلوح بكفه:

-افعل أي شيء ولا تُلْقِ بالآ للنقود. اطلب ما شئت ياشيخ كريم وسوف نعطيك، لكن اطردها هذا الملعون من جسد أم عماد..

لم يكن هناك ما يضيفه عماد كان ليدفع عمره نفسه ثمنًا لشفاء أمه.. لذا فقد هز رأسه للشيخ كريم مؤكدًا ما قاله جاره، فقال الشيخ كريم بارتياح:

-على البركة..لكن هناك شيئاً ما يجب علينا أن نقوم به أولاً.

رمقه الجميع بتساؤل، فأخرج من حقيبته الجلدية الصغيرة مِخْفَنًا وأمبولا زجاجيًا كسر عنقه وسحب ما به من سائل وهو يقول:

-سأعطيها مُهَيَّنًا ما..يجب أن نجعلها تنام قليلاً..كما يجب علينا أن نقوم بتنظيفها. لن نتركها لتتعفن في فضلاتها هكذا.

رمى عماد المحقن بتشكك ولاحظ الشيخ كريم هذا فقال له مطمئنا:

-اطمنن أنه مهدي طي يدعى فاليام. إنها بحاجة له كي تهمد ثورتها.

قالها واتجه نحو حجرتها ثانية مُكْمِلًا:

-ليساعدني أحدهم، أحتاج لمن يقيد ذراعها.

(5)

غابت أم عماد عن الوعي تمامًا بعد أقل من نصف الساعة من حقنها بالمهدئ. وتعاون عماد وأم محسن على نقلها للحمام، وتنظيفها، بدلوا ملابسها، بأخرى نظيفة، واقترحت أم محسن أن يلبسوها كاقولة من تلك التي يستعملها كبار السن والمرضى فوافق.. أعادوها بعد ذلك ثانية للفراش لكن دون أن يقيدوها إليه هذه المرة..كانت تغط حينها في نوم عميق، ولم يَبْدُ عليها أنها ستفقد قبل ساعات، لذا قُضِّلَ عماد ألا يقيدها الآن..

غادرت أم محسن وجلس عماد على طرف فراش أمه يتأملها بأسى. تمنى لو يعلم هل تعود كما كانت ثانية، أم تراه قد فقدتها للأبد. تمنى لو استطاع البكاء ليريح لوعته قليلاً..مضى وقت طويل وهو بجوارها سابحًا في أفكاره

السوداء، حتى انقبه إلى صوت تليفونه يتردد رنينه بغرفته، فذهب إليه. كانت مني من يتصل به..تهدد قبل أن يرد، وقد تذكر أنه لم يكلمها طوال الوقت. توقع ثورتها وهو يجيها ولم يكن مخطئًا في هذا. وصرخت في وجهه على الفور فور أن أجاب الإتصال:

-أخبرني أنك تمزح مني. هيا أخبرني أن هذا هو غرضك من تجاهلي طوال اليوم، وتجاهلك إجابة اتصال بك، أم تراك تهرب مني بعد حديث الأمس..هل هذا قصدك يا عماد؟

كان آخر ما يريده الآن هو الشجار، وحاول أن يتمالك أعصابه معها كي لا يثيرها، فيزداد غضبها، وقال بهدوء:

-إنها أمي يا مني. لاتعلمين حتمًا ما أصابها.. لكن هل يمكنك أن تهدأي قليلاً لأخبرك بكل شيء

وصله عبر الهاتف صوت تنفسها البطيء ومرت لحظات من الصمت قبل أن تقول:

-هل هي بخير؟

قَصَّ عليها كل شيء بإيجاز، لاذت بالصمت ولم تعقب، فقال لها بحذر:

-لماذا كل هذا الصمت؟..

-أنت لا تختبر كل هذا كي تهرب مني بعد حديث الأمس بينا؟. أعني أنها ليست حجة لتتفادى التقدم لخطيبي؟!.

كتم أنفاسه غيظًا لحماقة ما تقوله ورد ببطء:

-وهل يمزح المرء في أمور كهذه. هناك أم محسن يمكنك أن تسألها، وهناك الحاج رضا، لقد شهد الأمر هو الآخر.

شعرت أنها قد أذته بشكها، وأن كلامها كان مخيفًا يخلو من اللباقة. كان عليها أن تُشعره بمشاركها له في مصيبتها تلك، لا أن تهمة بإختلاقها. وزفرت نفسًا عميقًا وغمغت:

-وكيف هي الآن.. هل تحسنت؟.

-إنها نائمة. أتمنى أن تظل هكذا طوال الليل، فأنا أتوق أنا الآخر للنوم بشدة.. وبالكاد أمتنع جفناي من السقوط.

-هل يمكنني أن أزورها بالغد لأطمئن عليها. سوف أجلب أمي معي.

-اعترض على اقتراحها على الفور، وقد رفض أن تشهد أمها أمه على هذا الحال.. لذا هتف على الفور:

-لا داعي لهذا أبدًا. الأمر لا يستحق العناء. أعدك أن أخبرك حين تتحسن ويعود لها إدراكها كي تزورها كما تشاءين، لكن ليس الآن.

-كما تريد. لكن عليك أن تحظى ببعض النوم الآن وسوف أطمئن على كليكما بالغد..

أنهى المحادثة وهو يشعر بإرهاق لا حَدَّ له.. خلع حذائه وألقاه بإهمال بجوار الفراش وركد عليه بملايسه دون أن يغيرها.. كان يتوق للنوم جدًا ويشعر أنه على وشك أن يفقد وعيه من الإرهاق.. وبالفعل لم تمض لحظات حتى تعالى صوت شخير..

وفي الثلث الثاني من الليل، بدأت الأحداث الغربية في حجرة أمه.. توهجت الحجرة المظلمة بضوء أحمر دموى رهيب. ضوء شيطاني مفرغ.. وعلى الجدار الخلفي لفراش أم عماد توهج الرسم الشيطاني ثانية.. ثعبان ناري يلتف حول نفسه وقد ارتفع رأسه، وتوسط الفراغ الذي صنعه بجسده جمجمة نارية العينان لها قرنان على جانبيه، وأسفل الرمز الشيطاني

بدأت كف شبحية تنطبع على الجدار وتتنقل من بقعة لأخرى نحو السيدة الراقدة في إغماء عميق حتى وصلت لرأسها. هنا ظهر لها جسد ضبابي ورأس بلا خلجات وعينان حمراوان كالدم.. راقب الجسد الشبحي المرأة الراقدة للحظات قبل أن ينحني نحو أذنها ويحدثها بلغة لا يعرفها البشر.

تململت أم عماد وهممته بكلمات مبهمة لكن علقها الذي كان أسيرًا للمهدئ القوي الذي حقنوها به لم يستجب. بدا وكأنه غير قادر على إجابة ذلك النداء. لكن الشبح المفزع لم يياس، ورمقها بنظرة غاضبة قبل أن يرفع كفيه عاليًا في الفراغ، ويبدأ في ترتيل تعويذة ما. تعويذة مريضة لا يعوزها القوة.

بحق ناسوت، وقدرة أحنوت أمركم أن تخضعوا.. بحق ملياخ وقوة أشطبياخ أفيقوا. أزوث المغلوب يناديكم فلبثوا. هبوكم بالا تاطشوا. كوما تادو آحون، آحون، آحون.

في اللحظة التالية امتلأت الجدران بعشرات الخيالات التي راحت تهمس في إيقاع موحد وهي تردد التعويذة من خلفه، وبعد دقيقة كانت أم عماد قد نهضت من رقدتها بحركة آلية وجلست على طرف الفراش وقد ارتفعت مقلتي عينها لأعلى وعلى شففتها ابتسامة مُخَيِّفة. راحت هي الأخرى تردد التعويذة المخيفة مع الظلال المخيفة، قبل أن ينتهي كل شيء فجأة.. اختفى الشبح.. وابتلع الجدار الظلال التي على سطحه، وتوقفت الهمسات ولم يعد الرمز الشيطاني الذي على الجدار موجودًا..

لقد أفاقت أم عماد وكان هذا كافيًا كي يبدأ المرح ثانية..

غادرت حجرتها، دون أن تبالى بالظلام الحالِك بالصالة، وتحركت مباشرة نحو حجرة عماد. فتحت الباب ودلفت مهدوء قبل أن تتحرك نحو الفراش

الذي رقد عليه عماد في نوم عميق. جلست على طرفه ومالت نحو أذنه ثم بدأت تهمس..

مضت لحظة قبل أن يتحرك عماد من الفراش.. وبينما استمرت هي في همساتها بدأ جسده في الإرتفاع عن الفراش. هنا بدأ عقله الباطن يشعر بالحيرة من هذا الوضع الغريب الذي لم يألّفه، وبحس كالمحموم في ثنايا خبراته المتراكمة عن خبرة كهذه ربما عرفها من قبل، فلم يجد.. وحين شعر أن الأمر يفلت من يده، هرعت رساله نحو وعى عماد النائم لتوقظه ليرى ما عليه أن يفعله..

فتح عماد عينيه ليجد نفسه على ارتفاع مترين كاملين من الفراش ولا يفصله عن مروحة السقف الساكنة إلا متراً واحداً. هُز رأسه للنائحين بجنون وهو لا يصدق ما يحدث له، وهو يصرخ برعب حقيقى:

«ما الذى يحدث ها هنا. أين أنا؟»

رأى أمه التى رمقته ببرود وقد غربت مقلتها قبان بياض عيناها، وهى تردد تعويذتها المربعة. كان هذا أكبر من أن يحتمله فراح يصرخ. راح يصرخ وهو يحاول بكل قوته أن يفلت من قوى خفية ترفعه في الهواء وتمنعه من السقوط.. لكن جسده استمر في الإرتفاع ببطء نحو السقف ورأى في هذه اللحظة كيف بدأت مروحة السقف في الدوران. تضاعف الهلع في نفسه، وارتفع صراخه اليائس، وظلت أمه ترمقه بثبات وفمها لا يتوقف عن المهمة الخفية.. بدت وكأنها تلغنه بتعويذة ما.

ازدادت سرعة المروحة أكثر وأكثر، وبدأ يشعر بهوائها البارد يضرب جسده الذى يقترب منها حثيثاً. فأحس بفزع لم يشعر به من قبل، ووجد نفسه يفكر بجنون كيف يحتمل ما هو مقبل عليه حين تبدأ أذرع المروحة الحادة في تمزيق لحمه وجلده، وتهشيم عظامه..

راح يستجديها أن تتوقف، وقد دنا جسده من الأذرع المعدنية العملاقة، حتى كاد أن يلامسها، ثم أطلق صرخة أخيرة وهو يمتنى، أن ينتهى الأمر بسرعة وألا يطول عذابه.

يقولون أن قطع الرقبه لا ألم فيه، وقرأ من قبل مقالة تؤكد أن ذبح الطيور هو، بطريقة المثلى لقتلها دون ألم حقيقى.. قرأ أن العصب الحائر بالرقبه هو أول ما تلمسه حد الشفرة، وأنه حينها، وفي أقل من جزء من الثانية يرسل رساله لمراكز الألم في المخ أن تكف عن عملها وأن تهدأ. هذا ما يقوله العلماء لكن هل عاد أحد للحياة بعد ذبحة ليؤكد هذا الهراء؟..

في اللحظة التالية كانت النجدة قد وصلته. وظهر الأستاذ محروس وقد جذب صراخه فاندفع إلى شقته لنجدته. لم يفكر في طرق الباب بل راح يضربه بكتفه على الفور حتى انهار الباب. تجمع حوله آخرون من سكان البيت. الحاج رضا وابنه إسماعيل وطه وأم محسن وابنتها وزوجها. وكان الأستاذ محروس أول من وصل الحجرة ورأى الهول..

كان عماد مُعلّقاً في الهواء وجسده يندفع بإصرار نحو المروحة التى راحت تدور بجنون لم تفعله من قبل كأنما تشتتى بجنون تذوق اللحم البشرى والدماء. وشاهد كذلك أم عماد التى تجمدت بمكانها بطريقة غريبة وهى تتابع ما يحدث ببرود وتتمتم كلمات غريبة.. للحظة تسمر في مكانه ذاهلاً.. لكن صرخة من فم عماد أيقظته من سباته فتحرك وفعل الشيء الوحيد الصائب.. ارتمى على جسد أم عماد فسقط بها أرضاً.. وكالسعر هوى جسد عماد هو الآخر نحو الأرض على الفور بعد أن لامست الشفرات الحادة للمروحة شعر رأسه. كان من حسن طالعه أنه سقط على الفراش فلم يتأذى كثيراً. بعدها راحت المروحة تبطن من دوارها ببطء، بينما اشتعل مصباح الإضاءة وتعالص صرخات أم عماد الوحشية وهى تدفع الأستاذ محروس بيدها بعيداً عنها..

ومرة أخرى تكالب الجميع عليها للسيطرة على جنونها. لم يبالوا بجنونها ولا صرخاتها أو احتجاجها، وتعاونوا على تقييدها ثانية، تايحهم عماد بعيون زائفة، دون أن يقدر على فعل أي شيء. ظل يرتجف فزعًا، وأذرع المروحة العادة لا تفارق ذهنه. كان يعيش كابوسًا يأبى أن ينتهى.

(6)

في صباح اليوم التالي جلبت له أم محسن بعض القنابل فتناول منه القليل... فكر في أمه التي لم تتناول الطعام منذ يومين، فدخل عليها حجرتها حاملًا بعض الشطائر، ورفعها أمام بصرها قائلاً:

-هل ترغبين في تناول شيء ما..

رسمت ابتسامتها التي لا تنمى إليها، وقالت وهي تمط رقبتها نحوه:

-ربما أكون جائعة، لكني أتوق إلى شيء آخر غير طعامك السخيف هذا.

-أطلى ما شئت، وسوف أحضره لك.. هل تريدان لحومًا.. جبنًا.. أنتِ تعبين المكرونه، هل تريدان أن أطهو لك بعضها.

-أريدك أنت !.. ظننتك أدركت هذا.

اهتزت الصينية في يده، فراجع في توتر، وعادت لتضعك مرة أخرى ضحكها المجنونة الصاخبة. خرج من حجرتها بعد أن أغلقها خلفها ثانية، وهو يحاول ألا يستمع لصرخاتها أو تهديداتها..

وجاء الشيخ كريم في المساء بعد صلاة العشاء كما وعد. كان أنيقًا كعادته، واثقًا من نفسه بشدة كأنما هو ذاهب في رحلة.. وفوجئ عماد بمن أتى معه.

كانوا عشرة كلهم من الزوج. ثلاث رجال ضخام، وسبع سيدات في منتصف العمر تقريبًا، وكلهن يتسمن بالبدهان. ارتدى الرجال حلة موحدة سوداء، وارتدت السيدات فساتين سوداء طويلة، كشفت عن أذرعهن كاملة رغم الطقس البارد. راحوا يتحركون أمامه في الصالة بسرعة، وهم يدخلون مُعِدَّاتهم وأغراضهم. رمقهم بحيرة وهو لا يدري من هم وما الذي يفعلونه، وتسرب الشك في قلبه حين رأى الدفوف التي حملها أحد الرجال. هنا التفت نحو الشيخ كريم ليفهم منه ما الذي يجري.. لكن الأخير بادره بالإجابة:

-إنهم فرقة إفريقيه من نيجيريا تمتلك موهبة حقيقة في طرد الجان أو الأرواح الشريرة، وكثيرًا ما أستعين بهم في أعمالى. سترى بعد قليل كم هم بارعون في عملهم.

-هل سيقومون بطقوس وثنية مثلًا؟

-ليس وأنا موجود يا رجل. هل تمزح؟ طقوس وثنية في حضرة شيخ يعالج بالقرآن. لقد شططت في تفكيرك حتمًا.

نصبت سيدتان في تلك اللحظة قائمًا خشبيًا في منتصف الصالة وراحت أخرى تثبت عليه بعض الستائر الملونة. وأحس عماد أن الأمر يشبه أمرًا يعلمه. شيء ينتمى للجزعوبات والتخاريف الشعبية، فهتف مستنكرًا:

-هل سيقومون بعمل زار؟..

أسرع الشيخ كريم بالإجابة التي يبدو أنه ذاكرها مرارًا:

-ليس بالصورة التي تتخيلها، إنها طقوس مختلفة تمامًا أبعد ما يكون عن الدجل، إن طقوس طرد الأرواح الشريرة أو الجان أو المس الشيطاني، أو القوى السفلية متنوعة بشدة. والجميع في كل مكان يقوم بها.. هنا يقوم

بها الشيوخ، وبالغرب المسيحي هناك القساوسة تحت إشراف الكنيسة والفاثيكان نفسه، وفي اليهودية هناك الحاخامات، وفي البوذية والكنفوشيسيه يقوم بها الكاهن، وفي المجتمعات البدائية يقوم بها ساحر القبيلة.. كل هؤلاء يمتلكون الطقوس الناجحة للغاية لو شئت رأيي. إن استخدام نصوص ورموز دينية معينة، أو طلاس وكلمات سحرية مناسبة، قد تكون بقدرة على إجبار الكيان الشرير الذي يستحوذ على جسد ضحيته على مغادرة هذا الجسد.. كلٌ يقوم بالأمر بطريقته، وكلٌ قد يكون ناجحاً في عمله هذا. إن ما يعيننا في النهاية أن نبرئ الضحية، وليس نوع الطقوس المستخدمة في هذا.

قالها وأشار نحو أحد السيدات البدينات والتي بدا أنها أكبرهن عمراً. ابتسمت له حينها، وأومات برأسها لهما حين لاحظت الإصبع الذي يشير إليها، بينما استطرد الشيخ كريم وهو يوفئ برأسه لها هو الآخر مُحَيَّيًا :

-هل ترى هذه..إنها (ماتا كولابا كاتو). أدعوها ماتا للتيسير. لقد ظل أجدادها لقرون، هم أشهر سحرة أحراش السافانا. تعلمت فنون السحر منهم، لكننا لم تكتفى بميراثهم. لقد درست الأمر وحصلت على شهادات علمية في محاربة الأرواح الشريرة. الحق يقال أنني وقعت على كثر كما يقولون حين استطعت إقناعها بالعمل معي. إنها بارعة للغاية فيما تقوم به، ولم تفشل مرة واحدة في عملها..

شعر عماد أن عقله يرفض الأمر كله، وتداعت لذاكرته فتاوى قرأها من قبل حول تحريم الزار وكيف يُعَدُّ شركاً بالله.. نظر إليهم وما زالوا في حركتهم الدائبة، لإعداد المكان، وفكر في طردهم، لكنه تذكر كيف صارت أمه، فأحجم.

ظهرت أم محسن وزَّجَّت بالشيخ كريم ونظرت إلى الزوج الذين يدورون حولها دون أن يبالوا بوجودها، وراحت تتابعهم بفضول وحماس.. مضت دقائق من الصخب قبل أن يصير المكان مُهَيَّئاً..

أُطْفِئَتِ الأنوار واشتعلت الشموع وخرجت سحب البخور الكثيفة من معقلها وارتفعت في المكان موسيقى إفريقية مميزة كانت الطبول هي مركزها، ثم صرخت ماتا فجأة، وقد أولت ظهرها للنصب القائم في منتصف المكان والذي علته الكثير من الأفتنة الغربية المخيفة، وقد امتلأ وجهها بالخطوط الطولية الحمراء والبيضاء والزرقاء، وراحت ترقص رقصات مجنونة وهي تدور حول النصب، يتبعها الزوج الآخرون. تراجع عماد، وبسملت أم محسن وحوقلت، وما زال الشيخ كريم في تमतاته المهمة وهو يرقب ما يجري بهدوء.. وبعد دقائق قليلة من الصخب أشارت ماتا إليهم ورأسها لا يكف عن الدوران في الهواء تتبعه جداولها الكثيرة الطويلة، فهتف الشيخ كريم في عماد :

-لقد حان الوقت..دعونا نحضر أملك

دخلوا حجرتها فرمقهم بغواء واستسلمت لأيديهم التي حررتها من قيودها..ثم تعاون كريم وأم محسن وأحد الشباب الزوج على إخراجها للخارج..

تكاثفت سحب البخار وازدادت حدة الطبول، وراحت الفتيات الزنجيات يدرن في هستيريا حول النصب، ثم انضم الشاب الأسود الذي يمسك أم عماد ومعه عماد الذي يسندهما من الناحية الأخرى.. شعر عماد بالغثيان بعد لفتين وهو يسند أمه لكنه استمر..وراحت أغنية بربرية تتردد تجاوبها أصوات تخرج من حناجر بدائية. صار الأمر جنوناً. شعر عماد أن أمه قد

خف ثقلها وأنها صارت لا تحتاج إليه في دوراتها فجرب أن يترك ذراعها، فراحت تدور بمفردها وبسرعة ماثلة للجميع..

كانت تبتسم الآن في نشوة وتصرخ كالآخرين، ولا يدرى هل كان يتخيل ما يراه بفعل الدخان والظلام أم أنها بالفعل تردد مع الآخرين تراتيلهم وأغنيهم البدائية التي لا يفهمها..

تراجع للخلف ووقف بجوار الشيخ كريم الذي راح يقرب ما يجري دون أن يشاركهم أو يتدخل، وكاد أن يبتسم حين رأى أم محسن هي الأخرى وقد اندمجت في الرقص كالآخرين، وراحت تدور هي الأخرى وجسدها البدين للغاية يترجح بلا توقف..

كان الجنود، يضحك منتشياً الآن، وقد فقد المنطق عقله.. وراحت عشرات المطارق تضرب رأسه بلا توقف كأنما ترد على تلك التي الطبول التي تُقرع بالخارج، وبعد نصف الساعة همد كل شيء فجأة، ثم سقط الجميع على الأرض بغتة بما فيهم أمه وأم محسن كأنما فقد الجميع قواهم مرة واحدة..

لكن ماتا لم تفعل وكذلك أحد رجالها الذي اندفع نحو قفص خشبي وفتحه وأخرج منه غراباً أسود راح ينقع بلا توقف. التقطت ماتا الغراب بيد، وبالأخرى رفعت خنجرًا غريبًا ذو حد مسنن ونهاية ملتوية، من حزامها ودون تردد هوى الخنجر على رقبة الغراب فسقط رأسه على الأرض وانطلقت من رقبته نافورة من الدم، فالتقت ماتا الغراب في حجر أم عماد وصرخت وكذلك فعل، الأخريات.

راح الغراب ينتفض في حجر أم عماد التي لم تتحرك حينها، وهي تنظر إليه ببرود..

وصمت الجميع بترقب، وبدأ الصمت مخيفاً على ضوء الشموع ودخان البخور.. وأبطل عماد ريقه وهو يتساءل في سره "ماذا بعد؟"

وفي اللحظة التالية أنت الإجابة على تساؤله الصامت.. نهضت أمه فجأة ورفعت ذراعها لأعلى فسقط الغراب الذبيح على الأرض، وراحت تضحك.. توتر الجميع حين أنطفأت الشموع فجأة وساد ظلام مخيف في المكان كله.. ثم راح صوت أنجحة تخفق في الفراغ. ومن قلب الظلام انبعثت الصرخات الفزعة. كان كل من بالمكان يصرخ برعب لا حدود له

حاول عماد أن يشعل المصباح الكهربائي لكنه لم يستجب لمحاولته، فأخرج من جيبه هاتفه المحمول وأوقد شاشته وعلى ضوء شاشته الخافت رأى الهول.. كان الغراب الذبيح في تلك اللحظة يطير بلا رأس وهو يضرب بجناحيه وجوه الجميع والزنوج يتدافعون ويصطدمون ببعضهم في الظلام بلا هدى، للفرار من عدو وهمي. وجَّه الضوء نحو أمه فرأى ابتسامتها المخيفة. ثم راحت صفعات من أيدي خفية تضرب وجه الشيخ كريم وضيقه، فراح يصرخ هو الآخر وهو يخفى وجهه ليحميه.

وهتفت أمه في اللحظة التالية بصوت مخيف :

-حمقى..كلكم حمقى..

وحين حرك عماد ضوء شاشة محموله نحو الجدار شاهد الرعب، كان الحائط يمتلئ بالظلال المخيفة. ظلال شبحية من الدخان وأياد ومغالب تخرج منها وتضرب الجميع بلا توقف. هنا اصطدم به أحد الزنوج فسقط أرضاً وسقط تليفونه المحمول من يده.. شعر بالرعب وهو يتخيل أن تقتنصه تلك الظلال هو الآخر. ولم تتوقف الصرخات الفزعة لحظة واحدة.. الكل كان يصرخ ويتألم، وتصاعد في الهواء رائحة شيطانية لجلود ولحم بشرى يحترق.

والثانية. لكنها ألحت، واتصلت به مرة أخرى فأجاب. وأتاه صوت مرهقاً متعباً لكنها بأدبته :

-أريد أن أقابلك الآن. الأمر عاجل.

حاول التملص منها وهو في أسوأ حال ممكن، وغمغم:

-ألا يمكننا تأجيل الأمر؟..

صرخت فيه:

-لقد ذكرت أنني أريد أن أراك الآن، سأقابلك الآن وليس في وقت آخر.. يجب أن أراك الآن لننتحدث.

-ألا يمكنك أن تخبريني في الهاتف بما يدور في عقلك؟..

-أريد أن أراك الآن يا عماد.. ولن أتحدث إلا أمامك.. كفى تحطيماً لأعصابي وقابلي الآن.

كانت تصرخ.. وكان صوتها يرتجف وهي تبكي. لكن ماذا عن أمه. لم يكن ممكناً أن يتركها هكذا بمفردها. كانت تجلس في تلك اللحظة على الكنبه المقابلة له متربعة، متجمدة كالتمائيل، ولولا تنفسها البطيء لظن أنها ماتت. لن تقبل حتماً أم محسن أن تعتني بها لو طلب منها هذا بعد ما حدث لها بالأمس في جلسة الزار، ومن العسير أن يتركها الآن.. لذا أجاب متى:

-لا يمكنني يا متى أن أخرج الآن. لا أستطيع أن أترك أمي بمفردها..

-إذن سوف أتيت أنا لننتحدث في بيتك. هذا أفضل. إنني بالفعل أرغب في الإطمئنان على أمك.

ومرة واحدة فُتح باب البيت دون أن يدري من فعلها. وعلى الضوء المتسرب من السلم رأى الأبدان التي تلقى للخارج كأنما تركلها أقدام ضخمة. كانت أجساد الزنوج عارية تماماً وكانت مليئة بالكدمات والحروق والجروح والدماء. لكن أيًا منهم لم يلتفت إلى إصاباته أو عريه وهم يولون الأدبار هاربين، وكان آخرهم الشيخ كريم الذي ما أن لامست قدماه السلم حتى راح يجري عارياً هو الآخر لا يلوى على شيء.. وبعد الدقيقة عاد الصمت، ثم اشتعل المصباح الكهربائي فجأة فأضاء المكان..

صار المكان خالياً إلا منه وأم محسن التي فقدت وعيها، وأمه التي ما زالت منتصبه كما هي وقد عقدت ذراعها أمام صدرها.. كانت ترمقه بسخرية، وابتلع ريقه بصعوبة وتصبب العرق من جبينه وهو ينتظر الخطوة التالية.. هل تؤذيه هو الآخر.. لكنها اكتفت بأن قالت بصوت كالضحك:

-حمقى.. أنتم مجرد حمقى لا أكثر.

قالتها وسارت نحو حجرتها يهدوء كأنما لم تفعل شيئاً. وزفر بيباس وهو ينحن نحو جسد أم محسن ليوقظها.

(7)

انتشرت الأخبار والشائعات في الحى كله، راح الكل يتحدث عن المس الشيطاني المخيف الذي أصاب أم عماد، حتى علمت أم متى هي الأخرى بالخير، فتحدثت إلى ابنتها بظفر. لقد انتهى أمر عماد. راحت به، وة تلقى على مسامعها كلمات كالأحجار تمزق قلبها ومشاعرها. وجدت متى نفسها تتركها وتلوذ بحجرتها لتتصل بعماد. تجاهل اجابة اتصالها في المرة الأولى

كان هذا آخر ما يرغب فيه.. لم يكن ما حدث لأمه عيباً يدعو للخجل، لكنه لا يرغب أن تراها متى هكذا.. خشي أيضاً أن تبادر أمه بتصرفٍ ما من تصرفاتها الشاذة فتفزع منى، أو تثير نفورها منها.. لذا صاح رافضاً الاقتراح:

-هذا غير ممكن الآن يا منى.. أعذك أن نتقابل في الغد.

-كلا لن نفعل.. سوف أتى لمثلك الآن.. يُمكّن أن تطردنى لو شئت، لكنك لن تستطيع أن تمنعنى من القدوم

قالها وأغلقت الهاتف كي لا تستمع لاعتراضه..

ألقي عماد الهاتف من كفه نحو الكنية المقابلة بحنق.. أحنقه إصرار منى على القدوم لبيتها في هذا الوقت العصيب، رفق أمه وهو يفكر ما الذى يمكن أن تفعله مع حبيبته حين أتى رغم أن أمه منذ أمس ظلت هادئة كطفل وديع.. لم تصرخ كعادتها، ولم تطلق الضحكات الساخرة، بل ولم تغادر مكانها من فوق الكنية التى تجلس القرفصاء عليها، جامدة متصلة كتمثال فرعونى قديم. تمنى لو استمرت هكذا حتى تنتهى منى من زيارتها. من السهل أن تتقبل غرابة تصرفاتها، لكن من العسير أن يطالها بتقبل تصرفاتها الشاذة المجنونة لو عادت لثورتها وجنونها. ووجد نفسه يدعو الله في سره أن يتم الأمر على خير..

أنت الطرقات الخفيفة التى تصدرها أنامل رقيقة على خشب الباب، فهض من فوره ليفتح الباب، والقي نظرة سريعة على أمه قبل أن يفعل ليطمئن لهدوئها.. دخلت منى ورأت آثار نحيبها على أهدائها المبتلة وعيونها المحمرة.. دلفت الصالة وابتسمت بشحوب وهى تحيى أمه من بعيد:

-كيف حالك يا ماما؟ لقد أوحشتنى.

ابتلع عماد ريقه بقلق منتظراً ردة فعل أمه.. لكنها لم تتحرك، فأسرع يقول لها وهو يجذبها من ذراعها ليجلس معها في ركنٍ بعيد من الصالة:

-انها لا تجيب أحداً كما ترين. دعينا نجلس هناك ونتحدث..

جلسا على مقعدين خشبيين والتفت إليها عماد بجسده بينما أطرقت هى رأسها للأسفل وهمس:

-والآن ماذا هناك..

لم ترفع رأسها وقالت بشيء من العزم:

-ما الذى تعانیه أمك بالضبط يا عماد.. أخبرنى بالحقيقة من فضلك ولا تخفى شيئاً.

وجم للحظة مفكراً وقد علم لماذا هى ثائرة، ولماذا لم تنتظر للغد. لقد سمعت حتماً بما حدث لأمه. قرر أن يخبرها بالحقيقة، وليترك لها حرية اتخاذ القرار بعدها.

انتهى من قصة فربنت على كفه بتعاطف، ورمقت أمه الساكنة للحظة بإشفاق، وغمغت:

-الليس محتملاً أن تكون مريضة بمرض نفسى ما.. لماذا لم تفكر في أن يراها طبيب ما؟..

كان اقتراحاً فكرياً من قبل.. لكنه استبعده حين تذكر ما جرى من أمه وخاصة بالأمس.. ما زالت صورة الغراب الذبيح الذى عاد يطير ثانية ويضرب بجناحيه الجميع في مُحَلِّمَتِهِ، ولا يُبارحها قَطُّ. المرض النفسى لن يفعل هذا أبداً، المرض النفسى لن يحرك غراباً مذبوخاً.. إن ما يحدث هو شيء شيطانى مخيف..

-لا أعتقد أنها تعاني من مرضي ما.. الأمر مختلف تمامًا.

ران الصمت للحظة، وهي تفكر في كلمات أمها، ثم طرحت عليه الاحتمال المخيف الذي أخبرتها به أمها، قائلة:

-وماذا لو لم تبرا أمك مما بها؟ ما الذي سيحدث حينها؟.

-سأحاول ثانية وثالثة ورابعة حتى أنجح.. لن أتركها بالتأكيد هكذا ولن ألقى بها للشارع

أرادت أن تسأله "وماذا عني؟"، لكن أمه تحدثت حينها للمرة الأولى.. وصرخت فيه بجزع مزيف:

-هل تريد أن تلقى أمك في الشارع أيها العاق.. انظري يا فتاة ما الذي بنويه.. سيلقى بأمه المريضة في الشارع. لكنه لن يفلح. لن يتخلص مني هكذا. إنني معه للأبد، ولن أتركه أبدًا.

ثم ضحككت فرددت الجدران صدى الضحكة المخيفة. وارتجفت من حين سمعت ما قالته، واتسعت عيناها برعب وهي تحبس أنفاسها وتراقبها بجنر.. بينما هتف عماد في قلق وهو لا يفكر إلا في منى في تلك اللحظة:

-اهدأى يا أمي بالله عليك.. إنني لم أقل أبدًا أنني سالفك في الشارع، ولم يروادني تفكير ما في فعل هذا أبدًا.. هنا تحركت أمه نحوه ومالت نحوهما وقالت هامسة:

-لكن هذا لن يرضي خطيبتك أو أمها.. ألم تخبرك أمك بافتاة أنني قد جنت وأنتي لن أشفى.. إن هذا صحيح بالفعل.. لقد جنت وسوف أظل هكذا. سوف ألزم عماد للأبد ولن يتزوجك ما دمت حية. أليس هذا ما جنت من أجله. ها أنا أجيب أسئلتك. عودي لأمك وأخبرها أنك توافقين على العرس الذي جلبته لك. هيا أخبرها يا عماد أنك ستلزم أمك المريضة

ولن تتركها ولن تستطيع أن تزوجها.. أنت تفكر في هذا الآن. أخبرها بالحقيقة ولا تخجل مما تفكر به.

راحت منى تلتعب برعب فاحتضنها عماد، وصرخ في أمه:

-اصمتي بالله عليك.. سوف أتزوجها رغمًا عن الجميع.. لا شيء سوف يمتنعني عن هذا.. سوف أتزوجها مهما حدث.

-هذا لن يكون أيها الأحمق

قالها أمه، فأظلم المكان فجأة. ولم يعد هناك أى ضوء.. حتى الضوء المتسرب من النوافذ تلاشى هو الآخر كأنما حجبته ستار كثيف خفي. وفي اللحظة التالية تعالت الهمهمات الوحشية والزمجرات المخيفة من كل مكان، راحت أمه تهمس بكلمات لها رنين مفرع، فشبهت منى برعب وهي تلتصق به أكثر وصرخت بصوت مخنوق:

-عماد.. ماذا يحدث وأين ذهب الضوء؟.. إنني خائفة. أخرجني من هنا.

شعر بالرعب وقد تذكر ما حدث بالأمس، لو تكرر الأمر مع منى فقد تموت هلعًا. راح يبحث بجنون في جيبه عن تليفونه ليضيء به المكان.. هنا غمر المكان ضوء أحمر مخيف زاد من رعبهم.. لم تكن أمه أمامهم في تلك اللحظة.. كانت قد اختفت من المكان تمامًا.. لكن ما أتى بالهول كان عشرات الظلال لكائنات مخيفة بأذرع طويلة تتمدد كالخطاط، ورؤس طويلة للغاية يتبدل شكلها باستمرار، وهي تزحف بجنون على الجدران. ثم راحت صرخات مفرعة تنبعث من العدم..

كان هذا أكثر مما يحتمل قلبها وشعرت منى أنها ستتموت هلعًا. تمنّت لو يحدث هذا كي لا ترى شيئًا. وفي اللحظة التالية وجدت رأس حماها يتدلى أمام وجهها من أعلى في وضع معكوس، وقد تعلق أرجلها في السقف. رأت

الإبتسامة المخيفة على شفتيها، والشعر المبعثر المتدلى نحو الأرض. وشاهدت الفم الذى فُتِحَ عن آخره وقد انبعثت منه رائحة عفنة قادمة من الجحيم نفسه. ثم سمعت الأم المخيفة وهى تَفُحُّ قائلة:

-والآن ما رأيك. هل يمكنك حقًا احتمال هذا؟..

لم يكن يمكنها أبدًا أن تحتمل كل هذا الرعب. كان الجواب معلومًا وليس بحاجة لكل ما حدث. فقدت وعيها وكذلك فعل عماد بجوارها. وظلت أمه تطلق ضحكاتها المجنونة لوقتٍ طويل

(8)

ابتسم ممدوح دون أن يستطيع أن يمنع نفسه من فعل هذا حين أخبره عماد بما جرى منذ ساعات له ولبنى من أمه. كان قد ترك منزله وجاء إليه ليقتضى ليلته عنده. صار يخشى أمه الآن كالشياطين، ولا يأمن أن ينام فى بيت يضمهما سوياً. وقال ممدوح بإثارة دون أن يمنع ضحكاته:

-هل تعنى أن أمك تسلفت الجدار وزحفت علو. السقف فى وضع مقلوب. ثم رأيتم رأسها فجأة مقلوبًا أمام وجوهكم؟..

-لا أدرى ما المضحك فى هذا غير أنك أحمق

قالها عماد بغضب فأسرع ممدوح يقول معتذراً:

-إننى لا أسخر يا رجل. فقط تخيلت الأمر، فلم أتمالك نفسى..الأمر مفرع لكنه يثير الضحك فى الوقت نفسه.

لا يدرى عماد كيف يكون الفزع طريقًا هكذا ليثير الضحك. يبدو أن ممدوح قد أصابه الخبال..لم يرد عليه وهز كتفيه بضيق لكن ممدوح تكلم:

-والآن ماذا تنوى أن تفعل؟.

كان الكل يسأله هذا السؤال كأنما الإجابة، وتهد بحيرة قبل أن يجيب :
-لا أعلم. كل ما أعلمه أننى بحاجة الآن للنوم لأسبوع كامل. سوف أنام هنا وحين أستيقظ سأفكر فى الأمر ثانية..

رمقه ممدوح للحظة قبل أن تتسع عيناه وتبرق وهى تجاهد أكوام الدهون فى وجنتيه وهتف وفكرة مجنونة تلح على عقا:

-حسنًا..ما رأيك لو تدع الأمر لى هذه المرة..سوف أتصرف أنا.. فقط أعطنى مفتاح الشقة ولا تقلق. أعتقد أننى أعلم ما على أن أفعله.

شعر عماد بالقلق وهو يحاول أن يسير أغوار ممدوح بلا جدوى، وقال بتوتر:

-ما الذى تنوى فعله بالضبط..الأمر لا يحتمل حماقات بالله عليك

-لا تقلق.. ستصحو لتجد أن الأمور كلها قد عادت لنصائها.

-إنها أمى يا ممدوح. رغم كل شئ، هى أمى ولن أقبل أن يصيبها مكروه ما.

لكن ممدوح بدا واثقًا وتحدث بإثارة وحماس:

-وأنا كذلك أعْطُهَا أُمًا لى، وأنت تعلم هذا..فقط ثق بى وأعطنى المفتاح..

تبادلا النظرات للحظة وعماد يفكر فى أن يرفض..كان ممدوح صديقه منذ أعوام طويلة. لكنه لا يثق كثيرًا فى تصرفاته الحمقاء الغبية. كان يشعر

أحياناً أن جبال الدهون التي تحتل جسد ممدوح قد زحفت نحو عقله هو الآخر فأكسبته الغباء، لم يكن ليقف فيه في أمر هام كثيراً. لكن الإرهاق والتوتر والحيرة هو ما دفعه لموافقته، فأخرج من جيبه مفتاح الشقة وناولوه إياه وقال له مهدداً:

-سأسلخك حياً لو أضابها مكروه.

راح عماد في نومه وممدوح غارق في التفكير..كان يفكر بالشيخ ميمي والشيخ وحيد. صديقه بالمسجد. وكانت القصة بسيطة

فالشيخ ميمي وبعد أن حصل على الدبلوم عمل بالتجارة. تاجر في كل شيء من ملابس وأقمشة وأجهزة منزلية وغيرها. وحين راح يتوسع في تجارته دون أن يسعفه رأس مال كاف، خسر الكثير فكف عن التجارة وراح بالكاد يستعيد نقوده التي بالسوق. أطلق لحيته في ذلك الحين وعاد ليتردد على المسجد ثانية، ولازم شيخ سلفي متشدد، فتعلم منه القشور، التي راح يرددها بعد ذلك في حلقات العلم وقد منحه البعض حينها لقب الشيخ ميمي. هنا عاد ليفكر بالتجارة ثانية، دون أن يعلم أحد من أين أتى برأس المال الضخم الذي افتتح به متجرًا ضخمًا للملابس الجاهزة. تحدث البعض عن النقود التي يجمعها من الناس ليستثمرها لهم وقال البعض الآخر إنها أموال الخليج التي توزع على الشيوخ ليزرعونها على الفقراء.

لم يكتفى الشيخ ميمي بحلقات العلم واللقاء خطب الجمعة. بل توغل في أمر آخر. علاج المسوسين وإبطال الأعمال السفلية الشريرة وإخراج الجان. وذاع صيته في تلك الأمور كثيراً ولهذا فكر ممدوح في أن يلجأ له..

أما الشيخ وحيد فلا تختلف حكايته كثيراً عنه. أنهى الدبلوم هو الآخر، وراح يبحث عن عمل ما وقد كره العمل بالزراعة كأبيه، وقد رآها جيد بلا طائل. جرب بعض الوظائف فلم ينتج. أصابه الإكتئاب لشهور قبل أن

يخرج منه وقد أطلق لحيته وارتدى الجلباب القصير وصار يستخدم السواك في كل وقت، ثم صعد المنبر ليخطب في الناس..

كانت خطبه عقيمة لا روح فيها، أخرجها من كتب التراث العتيقة التي هجرها الجميع، وراح يرددها بلا فهم حقيقي أو دراسة. من العسير أن تسأله عن أمر ما في الدين ويعطيك إجابة محددة أو مقنعة..والإجابات السهلة عنده هي التحريم. إن كل ما يجله ولا يعلمه حرام. تحدث البعض عن علاقته بالأمن وكيف لا يتم اعتقاله كالآخرين. قالوا انه مكلف بالإبلاغ عن الشباب المتدين الذي يرتاد المساجد. لكنها في النهاية ظلت ظنون لم يثبتها أحد..

اشتهر هو الآخر بمحاربة الجان كما يزعم..بل وكتب كتباً يدعى (السيف البتار في قتال الجان) وراح يتحدث كثيراً عن بطولاته في مجاله. كانت هناك عشرات الحكايات التي يرددها بفخر دون أن ينسى مهاجمة الجهلة المدعين من شباب الشيوخ الذين يَلْجُؤْنَ هنا أمراً لا يفقهونه..

ذهب ممدوح للقائهما في محل ميمي على ناصية الشارع حيث اعتادا أن يسهرا سوياً. أخبرهما بما حدث لأم عماد فنبذالا النظرات في تفهم قبل أن يخبراه أنهما سوف يساعده. تحركا نحو بيت عماد وسألهما ممدوح بفضول:

-لكن كيف يدخل الجان أجسادنا..وكيف يعيشون بداخلنا..إنني أفكر في هذا الأمر كثيراً ولا أدري كيف يحدث.

أجابه وحيد بثقة:

-الجان قادر على الدخول في الجسد من مواضع شتى..فتحتي الأنف أو الفم أو فتحة الشرج أو الأذنين.. إن أي ثقب في الجسد صالح لولوجهم.

أنهم يعيشون في تجاويف القلب والعقل ويسرون ويتنقلون في مجارى الدم..

-لكن أليس ممكناً أن يخرج الجان من جسدها ليدخل جسداً آخر بجوارها كجسدى مثلاً؟

أجابه الشيخ ميمى هذه المرة :

-هذا محتمل.. لكننا ننتبه لهذا ولا نسمح به..

وصلوا لشقة عماد وفتح ممدوح الباب. كانت الصالة مغلقة ساكنة.. لكن ضوءاً أحمرًا غريباً راح يتسرب من أسفل باب حجرة أم عماد. هنا التفت إلى الشيخين الشابين وقال بخوف:

-ما هذا الضوء؟..

لكن الشيخ وحيد رمقه بغضب وهو يضع إصبعه أمام شفتيه المضمومتين ويصدر هسيساً يأمره بالصمت.. صمت وإن لم تفارق عيناه باب الحجرة التى يتسرب من أسفلها الضوء الأحمر الذى لم يرى مثله من قبل. هل عليه أن يتراجع الآن، عاد ليفكر.

بدأ كلا الشيطانين في ترديد آيات من القرآن التماساً للحفظ. هكذا يعملان دومًا. وشاهد ممدوح الشيخ ميمى وهو يدور في الصالة بشئ من الترنج كأنه سكران، وهو يلمس بكفه الجدران ومن حين لآخر تسمع عيناه كأنها يرى شيئاً خفياً لا يراه غيره.. أراد حينها أن يسأله عما يراه، لكنه تذكر النظرة المعذرة التى رمقه بها وحيد فأمسك لسانه.. ومضى بعض الوقت قبل أن يتحدث الشيخ ميمى:

-البيت يحوى شركبير في كل مكان.. أستطيع أن أشعر به.

نظر اليه الشيخ وحيد ولم يعقب. ثم اشار إلى الحجرة التى ما زالت تومض بذلك الضوء الأحمر الرهيب:

-ما رايك لو ندخل..

هز ميمى رأسه موافقاً فاتجها إليه ومن خلفهما سار ممدوح.. طرق ميمى الحجرة طرقات قوية وصاح بصوت قوى:

-السلام عليكم..

جابه الصمت فكرر تحيته ثانية وفي الثالثة وحين لم يأت الرد همس وهو يفتح الباب :

-توكلنا على الله..

فتح الباب فرأوا ما أثار فزعهم.. كانت أم عماد تجلس على الفراش وقد غمر الحجرة من مصدر خفى ذلك الضوء الأحمر الرهيب. لم تكن بمفردها. فيجوارها كانت هناك نسختان منها متطابقتان تمامًا. كانوا ثلاثة من أم عماد وكانت أعين الثلاثة تشتعل باللهب.

شهق ممدوح فزعًا. وتوتر الشيخ ميمى ووحيد وهما يشهدان أمرًا لم يشهداه من قبل، وقد زاد الضوء الأحمر الشيطاني من توترهما فتبادلا النظرات الخائفة وردد الشيخ ميمى :

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

راح يردددها بخوف حقيقى بينما فكر الشيخ وحيد في أن يهرول هاربًا من المكان كله وقد شعر أن ما يراه ليس ككل مرة.. هذه السيدة بها شئ شيطاني حقًا، وليس ادعاءً كما يحدث كل مرة..

حركت النسخ الثلاث من أم عماد رؤوسهم نحوهم ورمقوهم للحظة
بعيون زجاجية مينة قبل أن يطلقوا ضحكاتهم الساخرة وتصيحون
بصوت واحد كالفتح:

-المزيد من الحمقى..مرحباً بكم في الجحيم.

كانت هذه لحظة الفرار، فترجعوا للخلف والشيخ ميمى يهتف برعب:

-دعونا نغادر هذا المكان الملعون

كان ممدوح أكثرهم رعباً وعلماً وخاصة حين رأى الفزع الذى تجلى على
وجه رفيقيه. لكنه تذكر أنهما هنا لطرد الجان عن جسدها. فلماذا
يهربان إذًا. لذا دفعهما نحو الحجرة بيديه الضخمتين وهو يغالب خوفه
ويقول:

-إلى أين..ألن تخرجوا ذلك الجان منها..ألم تأتوا إلى هنا من أجل ذلك؟..

دفعه وحيد محاولاً التملص من يديه المتشبثة بملابسه وهو يصيح:

- ألا ترى إنها شيطان!!! اتركني يا أحمق. دعني أذهب

لكن ممدوح بالرغم من رعبه أدرك أمراً آخرًا..إنه أكثرهم بدانة وأقلهم
خفة في الحركة. ولو تركهما يهربان ربما تعثر حينها في شيء ما ووجد نفسه
بمفرده معها. كان هذا آخر ما يتمناه لذا تشبث بهما أكثر وهو يصرخ :

-لن تذهبا إلى أي مكان قبل أن تعالجاها..

وتعكرت الكيانات الثلاث التى تحمل شكل أم عماد نحوهم فصرخ ميمى
ووحيد وهما يحاولان التخلص من قبضة ممدوح المتشبثة بهم. لكن فزعا
كان أقوى منهما. فلم يفلتما. وحين تراجعوا للخلف ثانية كى يتعدوا
تعثروا في بعضهم البعض فسقطوا أرضاً. هنا أدركتهم النسخ الثلاث من

أم عماد ووقفت كل واحدة منهم فوق أحدهم وهى ترمقهم بخواء. راحوا
يصرخون في جنون، بينما صاحبت النسخ الثلاث في صوت موحد مخيف:

-إذن فقد أنيتم لإخراجنا من جسدها. الشيخ ميمى الجبان والشيخ وحيد
الأفاق. محاربى الجان الأتقياء الذين يهزمون الجان ويحرقونهم طوال
الوقت. أليس هذا ما تتقناه. لقد جفتمكم اليوم ببعض الجان لأرى كيف
تهزمونهم.

وضحكت بسخرية، وذوّت الصرخات من خلفها. وبرزت الظلال السوداء
على الجدران قبل أن يخرج منها ظلٌ مخيف بأطراف طويلة وانامل دقيقة
ووجه ممسوح لاشئ فيه إلا فجوة الفم والعيون الحمراء.. ثم تبعه آخر
في ركن آخر وثالث ورابع وخامس. اصطفوا أمام الجدار في غضب حقيقى
فانكمش الثلاثة حول أنفسهم رعباً ورددت أم عماد ساخرة:

-هؤلاء بعض الجان. هل حاربتم مثلهم من قبل؟.

كان الثلاثة في فزع لا حدود له الآن. بال وحيد على نفسه، وانتابت ميمى
نوبة صرع عيفة، بينما فقد ممدوح وعيه..

وحين أفاق الثلاثة كانوا ملقيين في أحد الشوارع المظلمة. كانت العلامات
الدائمة والحروق تملأ أجسادهم. وكان وجهى ميمى ووحيد موسومين
بشعار شيطاني مثلث في منتصفه عين محترقة. لكن شيئاً مهماً قد تبدّل
في وحيد وميمى. لقد فقد كليهما عقله. ورأى ممدوح وهو يعدو من أمامهما
في فزع كيف يرمقانه في جنون.

كان ممدوح أحمقاً. وقد كادت حماقته أن تؤدي بحياته. لقد فقد ميمى ووحيد عقلهما ورغم ذلك لم يشعر عماد بالشفقة الحقيقية عليهما. في النهاية هما كانا نصابين يتخفيان خلف لحيتهما وقد نالا جزاءاً كان ينتظرهما يوماً ما.

توجه إلى حجرته وحاول الإتصال بمى مراراً لكنها لم تجبه. عاوده شعوره بالإرهاق فقرر أن يغفو قليلاً. وحين استيقظ وجد لدهشته أن الشمس قد ودعت السماء، وقد حل الظلام. أضواء ضوء حجرته وخرج. فاصطدمت عيناه بباب حجرة أمه المفتوح. تذكر أنه قد تركه مغلقاً. هل تراها استيقظت..

تحرك بحذر نحو الغرفة، فلم تكن بها. شعر بصوت ما يأتي من المطبخ رغم ظلامه فاتجه إليه ودفع بابه برفق وهو يضيء المصباح. كانت أمه هناك تفتش الأرض وهي تأكل. ثم شعر بالغيثان الشديد وهو يرى ما تأكله..

منات الصراصير مختلفة الأحجام كانت تسير في صفوف منتظمة كالمنومة مغناطيسياً نحو أمه التي راحت تلتقطها من الأرض بأناملها وتدفعها نحو فمها ثم تسحقها بأسنانها مصدرة صوتاً مريعاً، قبل أن تعود لتلتقط غيرها. شعرت به فالتفتت إليه بفم ممتلئ وإبتسمت له. ومن بين أسنانها رأى الصرصار الضخم الذى هرسته الأسنان فسالت دمائه البيضاء على شفقتها. كان الدوار والغيثان الذى أحسه لا حدود له، وبالكاد وصل إلى الحمام قبل أن يفرغ ما في جوفه. تقياً كل شيء في معدته، حتى شعر أنه سيتقيأ أحشائه نفسها في المرة القادمة. كان يعيش كابوساً يرفض أن يغادره. راح يتنفس بعمق كي يغالب الدوار الذى يشعر به ويعد دقائق عاد إليها ثانية. ما زالت على حالها، وما زالت أكوام الصراصير الحية تأتي إليها

من كل صوب كأنما يجذبها مغناطيس ما.. ابتسمت له ثانية وعادت لتتحدث بصوتٍ غليظ، وهى تشير نحو الأرض الممتلئة بالحشرات:

-لقد أعدت ماما الطعام يا فتى..ألن تاتي لتشاركني العشاء..

شعر بالعجز فصرخ بيأس:

-ما الذى تريدني منه؟.. أخبرني قبل أن أصاب بالجنون. ماذا تريدني؟

هنا تركت ما بيدها وتبددت إبتسامتها وقالت له هذه المرة بصوتٍ مغاير للصوت الغليظ الذى صارت تتحدث به.. كانت هناك أصواتاً أخرى ممتزجة تخرج من حنجرة أمه في تلك اللحظة..

-عد للسيد وحرر أزوث.. إنه يلتظرك.. حرر أزوث تنتهى ألامك.

لم يفهم الهراء الذى تقوله..وأشعرته الأصوات الممتزجة بالدوار والإعياء. ظلت تردد جملتها حتى سئم من كل هذا فراح يعدو مغادراً البيت كله. شعر بالعجز وأن قيامته قد أنت وأنه عالمه قد انتهى. يؤله ما آل إليه حال أمه، ويحنقه عجزه عن مساعدتها..ليته يعلم طريقاً ما يسلكه كي تبرا مما بها

وبعجزٍ لا حدَّ له رفع رأسه للسماء وهتف متضرعاً "رحماك يا الله "

ارتفع في تلك اللحظة أذان العشاء.. فساقته قدماء نحو المسجد. توضأ ثم صلى ركعتين قبل العشاء، أطال السجود فيهما، ووجد نفسه يناجي ربه باكياً ويردد:

"رَبِّ إِنِّ مَسْكِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "

صلى صلاة العشاء بعدها وحين انتهى جذبه جاره الحاج رضا وهو يشير لركنٍ قصي فارغ من المسجد. تحركا نحوه وحين بلغاه سأله الشيخ رضا:

كيف حال أمك اليوم

-لا يبدو أنها ستتحسن.. أشعر أنني أفقدها في كل لحظة تمضي دون أن أجد حلاً ما لها..

ربت الحاج رضا على كتفه وقال:

-لهذا أحنئك الآن.. ولهذا طلبت من الشيخ عبدالباسط عوض أن يوافينا هامنا الآن.. بالمناسبة هل سمعت عنه؟

لم يكن يعرفه لكنه خشي أن يكون كالآخرين. يدعى العلم بالأمر وهو دجال أو نصاب أو جاهل. لكن الشيخ رضا عاجله بما يطمئن قلبه:

-لا تقلق. إنه ليس دجالاً هذه المرة كالشيخ كريم هذا. إنه رجل صالح بحق ويقوم بتلك الأمور بلا مقابل أبداً، إنه فقط يبتغي وجه الله بما يقوم به. انتظر حتى تراه وستدرك ما أقوله..

تهد عماد بياض وهز كتفيه، وغمغم بصوت لم يسمعه الحاج رضا :

-أتمنى هذا..

نهضا بعدها ليؤدّيَا ركعتي السنة وحين انهيّا كان الشيخ المُسنّ في إنتظارهما.. كان عجوزاً امتلاً وجهه بالتجاعيد التي تشي بعمره الذي جاوز السبعين حقّاً. كانت لحيته بيضاء كالثلج بلا سوء، وكذلك كان شعر رأسه القصير. وقرّ ثغره عن ابتسامة عذبة بدت وكأنما تلازم وجهه ولا تفارقه.. كان يرتدي جلباباً أبيضاً طويلاً وقد لفّ رأسه ب (شال) أبيض. حيّاه الحاج رضا ثم طلب من عماد أن يخبر الشيخ بما حدث لأمه.

راح عماد يقص حكايته، والرجل يستمع إليه باهتمام. ولم يقاطعه أبداً.

انتهى عماد فران الصمت للحظات قبل أن يبدأ الرجل حديثه. كان يتحدث الآن بوجه غير الذي جاء به وقد تعكر مزاجه :

-لا أدري ما الذي ينبغي على قوله لكن الأمر لكن الأمر خطير. إن ما فعلته أمك مع ذلك الأفاق المدعو كريم وفرقته النصابة أو هؤلاء الأطفال المهرجين ميمى ووحيد لا يقدر عليه إلا عفارت الجان أو بعض المردة مجتمعين. الأمر أكبر من أن يقوم به فرد واحد من الجان أو غيره.

وصمت ولاحظ عماد أن كفه الممسكة بعكازه لا تكف عن الإرتعاش وأن الأخرى بها بعض الضمور. وقال الحاج رضا بحيرة:

-وما الفرق بين الجان والعفارت يا مولانا.

-كلهم أصل واحد لكنهم مراتب مختلفة، فكهم في أصله جان.. لكن الجان لو توحش واشتدت قوته، صار عفريتاً، ولو غلبه شره وازداد فجوراً فهو شيطان..

ارتجف جسد عماد، وغمغم بإحباط:

-أيعنى هذا أنه لا أمل في خلاصها من ذلك العذاب.

عادت الإبتسامة لوجه الشيخ عبد الباسط.. أرادها مطمئنة أكثر منها حقيقية.. وقال مجيباً:

-لم أذكر في حديثي أبداً أنه لا أمل.. لكنى أعتقد مما قصصته أن الأمر أكثر قوة من قدراتي.. لقد تجاوزت السبعين من عمري ووهنت صحتي، ولن أحتمل أن يحدث معي ما حدث مع الآخرين لو تغلب أولئك الملائعين على.. سأمنحني على كلامي هذا، إثارة كهذه لن أقوى عليها. إن قلبي أضعف من أن يحتملها.

يحمل المقطم في المساء مشاهدًا مخيفة تثير الكثير من الهواجس في النفوس.. كانت السماء مُكْفَهَرَةً مثقلة بسحبها الرمادية الثقيلة وراحت رياح صحراء المقطم الباردة تزار في كل مكان حولهم مستمتعة بفرض سيطرتها على الغلاء والظلام، تجاوزوا بسيارتهم منطقة المقابر بكابيتها وبرودها، واتخذ سائق التاكسي الذي يستقلونه طريقًا جانبيًا، ومضى وقت ليس بالطويل قبل أن تلوح من بعيد أضواء الفيلا المنعزلة في الصحراء. توقف التاكسي أمام الباب الحديدي المزخرف فترجل الشيخ عبدالباسط من السيارة وتحرك على عكازه ببطء نحو الباب وضغط زرًا على الجدار القائم بجواره.. لحظات وارتفع صوت ذو رنين معدني متسائل، فأجاب بهدوء:

- الشيخ عبدالباسط العوضي.

لحظات وهرع من الباب الذي فتح شيخ طاعن في السن. كان يعرج قليلاً لكن صوته حمل ترحيبًا حقيقياً:

- مرحبًا يا مولانا الشيخ.. مرحبًا بك.

- أهلا بك يا إسماعيل.. كيف حالك أيها العجوز؟

- بخير لكنه الروماتيزم اللعين والبرد. ادعولي يا مولانا بالشفاء.

- شفاك الله أيها العجوز. لا بد أن الدكتور محمد بالداخل.. لا أظنه يغادر الفيلا في هذا الصقيع.

- وهل تعتقد أنه يبالي؟. لو أراد الخروج وسط عاصفة ثلجية لفعل بلا تردد. أنت تعلمه خير مني يا مولانا. لكنه بالفعل بالداخل منذ الصباح ولم يغادر الفيلا اليوم.

هنا تحدث الشيخ رضا فقال:

-والحل يا شيخ عبدالباسط.. لا بد أن هناك حلًا ما.. لن نترك المرأة هكذا دون أن نفعل شيئًا من أجلها..

-ومن قال أننا سنفعل.. إنني فقط أرى أن نستعين برجلٍ آخر، أعتقد أنه قد يكون أكثر فائدة مني هذه المرة

-أيعني هذا أنك لم تشاركنا في الأمر

قالها الشيخ رضا معترضًا وأجاب الشيخ عبدالباسط بلوم:

-ياحاج رضا.. أنا لم أعلن انسحابي من الأمر.. سوف أشارك في الأمر بالطبع ولن أترككم.. كل ما عنيت أنه أريد مساعدة أخرى.. شخص آخر نستطيع معًا أن نواجه شرًا كهذا..

سأله عماد بحذرو وقد تسرب اليأس لنفسه ثانية :

-هل تقصد أن تستعين بشيخٍ آخر؟..

هزَّ الرجل رأسه نافيًا وأجاب:

ليس شيئًا هذه المرة. بل هو طبيب. طبيب نفسي عجوز لو شئت الدقة

رمقاه بعيون مملوءة بالدهشة والذهول. لكنه أكمل وهو يستعد للهبوط:

-دعونا لا نضيع الوقت ولنذهب إليه الآن. إنه يعيش في فيلته بالمقطم. هيا بنا.

حسناً. قدنا إليه.

وترجل الجميع من السيارة ودخلوا الحديقة التي تعوى الرياح الباردة بين جنباتها بينما انتظرهم السائق في حجرته البواب الدافئة. كانت وداد بانتظارهم أمام باب الفيلا الداخلى وقد أخبرها البواب بقدمهم. رمقتهم بنظرة باردة مستنكرة كأنما تقول لهم مؤنية "أن هذا ليس وقت الزيارة؟". مزت رأسها ببطء تحية للشيخ عبدالباسط، وأشارت لهم بالدخول فتبعوها. ظل الشيخ عبدالباسط محتفظاً بابتسامته وفور أن تركتهم متجهة للأعلى لتخبر الدكتور محمد بقدمهم، حتى مال عليهم هامساً:

لا تَدْعُوا برودها هذا يزعجكم. لقد تعودت هذا منها منذ ثلاثين عاماً. نفس النظرة المؤنية التي تخبرك فيها دوماً أن الوقت غير مناسب للزيارة. حتى أننى لا أدري حقاً ما هو الوقت الذى تعدده مناسباً للزيارة.

سأله الحاج رضا وعيناه تجوبان أرجاء الفيلا المهيبة التي تمتلئ بالتحف الفنية والتماثيل الجرانيتية الفخمة واللوحات الفنية القيمة:

وهل هي زوجته؟..

بل هي مديرة منزله منذ أكثر من ثلاثين عاماً..

ظننتها زوجته.. إن ملابسها ونظرتها لا توحي أبداً بأنها خادمتها

هنا مال عليه الشيخ عبدالباسط ثانية مستنداً على عكازه، وقال محذراً:

-إياك أن تنعها بالخادمة أبداً. إنها تكره تلك الكلمة تماماً وتثور لو نعتها أحداً بها. إنها مديرة المنزل وهذا هو عملها..

هز الحاج رضا رأسه بحركة مهمة وهو يرى أنه لا فرق بين الشينين.. في النهاية وظيفتها أن تخدم صاحب المكان وضيوفه..

أما عماد فقد سحرتة الفيلا وخلبت لُبُّهُ تماماً. وراحت عيناه تهل من حلاوتها وأناقعتها. رأى أنها لا تختلف عن القصور والفيلات الفخمة التي يراها في الأفلام، ووجد نفسه يقارن بينها وبين حلمه في الحصول على شقة صغيرة في منطقة أرقى قليلاً من الحى الذى يقطنه فابتسم بمرارة. كم هي بسيطة أحلامه لو قورنت بما يراه. وانتبه لصوت الدكتور محمد الذى كان قد جاء دون أن يشعر بقدموه:

-أرى أن الفيلا قد أسرت صديقنا الشاب كما تفعل مع الجميع في المرة الأولى.

أحس بالخلج فنهض ومد يده بارتباك نحو الدكتور محمد ليحييه وهو يغمغم بتلقائية:

-أعذر لفضولى. لكن المكان بالفعل مذهل..

جلس الدكتور محمد حينها ووضع ساقاً فوق ساق وغلبيونه في فمه وقال ببساطة:

-لا حاجة بك للأسف. فهذا ما يقوله الجميع عنها. وهذا ما يسعدنى أن أسمعها عنها. ربما يرضى هذا غرورى.

كان الرجل أنيق ووسيم للغاية. لم يتخط العقد الخامس من عمره كما يبدو، وإن احتفظ شعره بلونه الأسود الحالك. كان يرتدى حلة رمادية كاملة من الصوف ورباطة عنق لبنية وفي يده كان هناك غليوناً مشتعلاً. شعر أنه أمام مستشرق إنجليزى أو أحد بروفيسيرات جامعاتها العريقة. أدهشه اهتمامه بأناقته واحتفاظه بملابسه الكاملة رغم أنه بمنزله، وحتماً لا ينتظر أن يأتيه فيه أحد ما في مثل هذا الوقت.

تحدث الدكتور محمد إليهم بعد أن رَحَّبَ بهم قائلاً ومديرة المنزل تقف بجواره:

-أعتقد أن مشروباً ساخناً يبدو ملائماً لهذا الطقس البارد؟. ألا توافقونى؟.

وافقه الجميع فأشار لمديرة منزله بإعداد الشاي من أجل الجميع فأنصرفت في صمت. التفت بعدها إلى الشيخ عبدالباسط قائلاً بشيء من المرح ليبدد التوتر البادى على ثلاثهم:

-أرى أنك صرت تاتى إلى فيلى المتواضعة أهما العجوز هذه الأيام أكثر مما تذهب إلى بيتك. ما رأيك لو تنتقل للحياة هنا.

-أعتقد أن لفظ العجوز تنطبق عليك يا دكتور أكثر منى..ليتى أعلم ما الذى تتناوله لتبدو شاباً هكذا بالرغم من أنك تكبرنى بأعوام

-أكباد الأطفال الصغيرة ممزوجة بعيون العذارى. جربها وسترى كيف تستعيد شبابك.

بدا حديثاً طريفاً ضحك منه عماد والحاج رضا. يمتلك هذا الطبيب حساً طبياً للدعابة. فكر عماد وهو يرمقه بإعجاب. وعاد ليفكر إن كان منظره الموحى بالثقة حقيقياً أم سينخدع به كما حدث مع الشيخ كريم..

دَوَّتْ فرقة مكتومة لقطعة من الخشب تحترق في قلب المدخنة المشتعلة. وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوء بعد أن نفث بعض سحب الدخان من غليونه:

- حتماً لم تغادروا فراشكم في هذا الصقيع والمطر من أجل زيارة الطبيب العجوز؟. دعونى أخمن. إنه أمر يتعلق بالجنان أو المس. هل أنا مُصيب؟.

سعل الشيخ عبدالباسط ومسح فمه بمنديله القماشى وقال: ~~بسم الله الرحمن الرحيم~~
-في الواقع إننا نأسف لإزعاجك يا دكتور في مثل هذا الوقت المتأخر. لكن عماد يعاني من مشكلة لا مجال لتأجيلها.

هز الدكتور محمد رأسه بتفهم وقد اعتاد مثل هذه الأمور..صار نادراً أن يأتيه أحدهم في الصباح ليسأله المساعدة في حل مشكلة ما. كلهم يأتيه بأمور عاجلة لا تحتتمل التأخير في المساء..من حسن حظه أنه يهوى السهر ولا اضطر لمغادرة فراشه في كل مرة.

وعاد الشيخ عبدالباسط ليتحدث مستطرداً:

- أعتقد أن عليه أن يقص عليك حكايته بنفسه بدلاً منى كي لا يفوتنى شيء..

التفت الدكتور محمد إلى عماد وقال له بأسفاً:

-إذن أخبرنا يا سيد عماد بما في جعبتك؟. إننى أنتظر.

ومرة أخرى حكى عماد بكل شيء حدث مع أمه..أخبره بالشيخ كريم والزار السخيف الذى صنعه من أجل أمه والمحاولة البائسة لميمى ووحيد..وما فعلته أمه به هو ومنى..حاول ألا ينسى أى شيء حتى لو كان صغيراً..انتهى فابتسم الدكتور محمد وغاص في مقعده أكثر وهو يشير إليهم كي يتناولوا أكواب الشاي الساخن التى جلبتها لهم وداد منذ لحظات. ثم قال بشيء من السخرية:

-إذن فقد قابلت الشيخ كريم..أنا متأكد أنك لم تعتقد لوهلة أنه نصاب أو دجال. إنه يصلح بلا شك أن يكون ممثلاً. ليته فكر في هذا. سيربح حينما أكثر مما يجنيه من النصب والإحتيال ولن يكون بحاجة لاستغلال الأبرياء.

-بالفعل لم يبدو كدجال أو نصاب. لقد صدقته.

-إنه دجال عصري.. الصورة الحديثة لكل موضحة جديدة. هناك رجال الأعمال الشباب. هناك الدعاة الشباب. هناك الممثلون الشباب. فلماذا لا يكون الدجال شاباً عصرياً يرتدي حلة كاملة برباط عنق بدلاً من الجلباب المتسخ واللحية الشعناء. ولا بأس من تقديم بعض الطقوس والجزعيلات بصورة عصرية. فمثلاً الزار الذى صنعه لأمل.. كل ما فعله هو جلب بعض الأفارقة التبعساء والباسيم ملابس حديثة ليقتنع زبائنه بصدق ما يفعله.. لتحمده الله أنك اكتشفت أمره في البداية، وإلا لظل يبتز أموالك حتى آخر قرش في جيبك دون أن يفيدك.

ثم رشف بعض الشئ من كويه وقال:

-لكن دعنا منه، ولنعد لمشكلتنا. أعتقد أن ما يحدث صورة من صور الإستحواذ الشيطاني أو حالة مس كما نطلق عليها هنا في مصر.. لكنها أكثر عنفاً من المعتاد. ربما كان تَلْبَساً مزدوجاً أو ثلاثياً أو أكثر من هذا. لكن دعنا لا نستبق الأحداث. لنراها أولاً ثم نصدر حكمتنا.

لم يفهم عماد الجملة الأخيرة.. فسأله مستفسراً:

-ما الذى تعنيه بالتلبس الثنائي أو الثلاثي..

رمى الدكتور محمد المدفأة المشتعلة وأخذ نفساً آخرًا من غليونه وأطلقه ببطء قبل أن يجيب:

-أعني أمراً غير معتاد وغير مألوف.. هنا يتلبس الضحية أكثر من جان في نفس الوقت.. ربما يكونوا إثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة.. لا يمكنك في حالات كهذه أن تعلم عددهم إلا بالمواجهة المباشرة.. لكنها تحمل الكثير من

المخاطرة والصعوبة.. عليك أن تكون مؤملاً للتعامل مع حالة كهذه
وعليك أن تتأكد من إخراج الجميع وحماية من حولك من شرهم.

-وهل يمكن شفاء أمى من حالة كهذه..

سأل عماد بقلق. تبادل الشيخ رضا والدكتور محمد النظرات للحظة،
بدت لعماد غير مشجعة، وأجاب الأول بخفوت:

-علينا المحاولة دائماً يا بني، والشفاء من عند الله. علينا ألا نأيس.

-أريد إجابة محددة يا مولانا.. هل نجحتم من قبل في علاج حالة مماثلة؟..

سأل عماد بشيء من العصبية.. هذه المرة أجابه الدكتور محمد:

-لأكون صادقاً فالأمر عسير للغاية. قد ننجح في إخراج الجان من جسدها
بوسيلة ما.. لكننا اعتدنا في حالات كهذه أن يترك هذا خللاً ما في عقل
الضحية. لا أريد أن أقول أنها ستصاب بالجنون. لكن شيئاً لا بد أن يتغير
ويتحطم في الضحية بعد إخراج الجان.. ربما كان مشاركة عدد كبير من
الجان في جسدها وحيزها الأثيري في وقت واحد هو ما يتسبب في هذا
الأذى. إن الجسد البشري في النهاية هش ضعيف، وهذا أمر أكبر من قدرته
على الصمود.

شعر عماد بالإختناق وقد أدرك أنه فقد أمه التى يعرفها للأبد. حاول
التحدث فلم يقدر، لكن الشيخ رضا كان من تحدث:

-وماذا تقترح أن نفعله يا دكتور؟..

-حتمًا لن نتركها هكذا لتؤذى نفسها أو غيرها. سوف نحاول علاجها
بالطبع

قال الشيخ رضا وعيناه معلقة بعماد الذى

-إذن متى ترى أن نبدأ؟

-في الغد بالطبع. علينا أن نبدأ معها بلا تأخير.

(11)

تجاوزت الساعة الواحدة والنصف صباحًا حين عاد عماد لمنزله. دخله وهو يفكر، أئ مفاجأة جديدة تُعدُّها أمه له. كان المنزل ساكنًا، فتساءل هل سئمت أمه المفاجآت أم أنه سكون ما قبل العاصفة. دخل حجرتها فوجدها نائمة.

كان جانفًا وأحشائه تنقلص احتجاجًا، فتذكر أنه لم يتناول أى طعام منذ الصباح.. تحرك نحو الثلاجة وفتحها بحثًا عن شيء ما يأكله. لكنها كانت فارغة تمامًا من أى طعام وشراب، هل تناولت أمه كل الطعام الذى كان بها بما فيها من لحم نىء؟. أغلقها مستسلمًا، وغالب جوعه وقرر أن ينام بلا طعام..

استلقى على فراشه وهو يحلم في الظلام وأخذت الذكريات تتداعى لخياله. اختلطت الذكريات بطريقة عجيبة. كان بعضها يعود بأمه، وأخرى تعود منى. حتى وجد نفسه يرى أباه الراحل. أباه الذى لم تجمعهما سوى أى ذكرى يذكرها. لقد مات وهو لم يتعد العامين من عمره، فلم يعرفه إلا من الصور الكثيرة التى يملأ بها ألبوم الصور الذى تحتفظ به أمه..

رأى أبوه منهمكًا فى نقب الأرض. كان ينبشها ومن حينٍ لآخر، يلتفت إليه ويشير إلى الأرض بلا صوت قبل أن يعود لعمله.. اقترب منه ليرى ما يفعله.. وهناك اكتشف كم كانت الحفرة التى صنعها أبيه واسعة وعميقة. رأى فى قاعها رجلًا آخر يحفر هو الآخر. وبعد حين رفع رأسه لهما وأشار

لباطن الحفرة المظلم تمامًا كما صنع أباه فرأى شخصًا آخر يحفر. وفوجئ بأبيه يتكلم بصوت غريب :

-إنهم أباءك.

وتعرّف الصوت. كان هو الصوت المخيف الذى صار يخرج من حنجرة أمه. وحين تراجع للخلف بفزع، كان ثلاثة من أجداده قد صعدوا الحفرة ونوقفوا بجوار أبيه وراحوا يرددون فى وقت واحد :

حرره لتحرر.. حرره لملك.. حرره لتعرف.. إنه ينتظر.

كانت أصواتهم المختلطة المزدوجة مخيفة جدًا. ودَّكرته هى الأخرى بالأصوات التى صدرت من أمه من قبل.. تراجع وهو يصرخ فى وجوههم :

أحرر من ؟.. لا أدري ما تتحدثون عنه.. أخبروني ماذا أفعل.

هنا تحركوا نحوه وتبدلت أشكالهم.. استطالت أذرع أبيه وقدميه وتضخم وجهه وتفلطح أنفه واتسعت عيناه.. وفى لحظات صار أبيه أخطبوطًا ضخمًا بأذرع طويلة، امتدت نحوه حين حاول الهرب فكبَّلته وقيدته. راح يصرخ بجنون حين رأى كيف امتزج أجداده فى كيان واحد تحول للعبان أسود ضخم، زحف نحوه وهو يُخرج لسانه المشقوق ويتكلم كالفحيح :

-ستموت يا أحمق كما مات أجدادك. ستموت قريبًا.. لقد خذلت السيد.. إن أزوت لا يرحم.

راح يصرخ ولأذرع اللزجة تعنصره الآن وأنفاسه تضيق.. ورأى الثعبان يقفز نحوه عنقه. تعالت التراتيل الغامضة. ومن الحفرة العميقة خرج آلاف المسوخ تتوسطهم نافورة من الدماء. ثم اندفع كل هؤلاء نحوه. بلغ الرعب فى نفسه مبلغه فصرخ بكل ما أوتى من قوة..

ثم استيقظ.. وأدرك وهو يلهث وقلبه ينتفض أنه كان يحلم..

وفي نفس اللحظة كان هناك من يناديه في الصالة. وحين التفت نحو باب حجرته المغلق عليه رأى الضوء الأحمر المتسرب من أسفل الباب. خمن ما سيراه في الصالة لو غادر حجرته. فزغ آخر وأفعال شيطانية بلا شك. قرر أن يتجاهل النداء الذي يناديه بإسمه بإصرار. لكن النداء استمر

-عماد.. أين أنت.. النجدة يا عماد.. أدركني يا بني.

أصغى السمع فاكتشف شيئاً هاماً. النداء كان بصوت أمه الأصلي. صوتها الذي لم يسمعه منذ تحولها وتبدلها. هل أفاقت أمه مما بها؟ غلبه حنينه فخرج..

كانت تجلس قبالة حجرته تماماً على مقعد خشبي وهي ترتدي قميص نوم قصير مفتوح لم يرها به من قبل أبداً، وكانت تفعل شيئاً شنيعاً.. كان تحمل سكيناً، وراحت تمرر شفرته الحادة على جلد فخذهما فتدنيه، دون أن يبدو عليها ألمٌ ما أو تُعجزُ الدم المظهر من الجروح التي تحدثها اهتماماً.

صرخ حين رآها وهو يندفع نحوها قائلاً بجزع:

-كفى عن هذا الجنون.. كفى بالله عليك. هذا كثير!

لكن حاجزاً غير مرئي اصطدم به قبل أن يصل إليها فسقط أرضاً، ورغم آلامه نهض ثانية واتجه إليها وما زال يصرخ محاولاً منعها من إيذاء نفسها هاتفاً:

-كفى يا أمي أرجوك.. أفيقي يا أمي وانتهبي لما تفعلينه بنفسك.. أنت تقتلين نفسك هكذا.

ومرة أخرى اصطدم بالحاجز غير المرئي فسقط. انتقلت السكين إلى منطقة أخرى من لحم أمه لتسلخ الجلد وتفصله عن اللحم وعاد الدم ليتفجر منها ثانية وهي تقول :

-هل أخبرك بسراً ما. إن أمك تشعر بكل ما أفعله الآن بجسدها. بل وتشعر بكل شيء منذ البداية.. إنها تصرخ وتتوجع كما لم تفعل من قبل. كم تمنى لو ينتهي الأمر بسرعة وتموت. إنها مسكينة لتعاني كل هذا الألم. مسكينة وضعيفة لأنها ستتعذب طويلاً ولن تموت الآن. لن أجعلها تفعل.

راح عماد يصرخ بحقن وقد يأس من بلوغها بسبب هذا الحاجز الوهمي فالتقى بجسده على الأرض وهو يقول:

-من أنت وما الذي تريده منها ومنى؟.. أخبرني بما تريده وسأفعله مهما كان.. لكن اتركها، وكفى ما سببته لها من أذى.. اتركها أرجوك.

جاوبته ضحكة ساخرة خرجت من فمها وتوقفت السكين في الهواء للحظة.. ثم عادت لتتكلم ببطء عجيب:

-البشرى يرجون أن تتوقف وبعدنا بالكثير لو فعلنا.. البشرى يسألنا ماذا نريد وكأنه لا يعرف.. يبدو أن البشرى قد نسي، وربما كان يعبت بنا..

-صدقوني أنا لا أفهم لماذا يحدث هذا. من أنتم وماذا تريدون؟.

أتى الجواب عنيفاً.. فقد غرست السكين حتى المقبض في لحم فخذهما الأيسر.. وسمع صوتاً مخيفاً لاصطدام السكين بالعظم.. وبدلاً من أن تأتي صرخة توقف الموتى من فمها تعالت ضحكتها كأنما تستمتع بما تفعله.. وعاد ليصرخ بجزع:

-كفى.. توقفوا عليكم اللعنة.. توقفوا أيها الشياطين..

أخرجت أمه السكين من فخذها وتجاهلت الدماء التي لوثت ساقها
بأكمله ورفعته نحو شفتيها ولعقت الدماء منه وهي تقول بصوت
كالفحيح:

-لذيذة هي الدماء البشرية بحق الحجيم..هل تعلم أن أبشع الألم هو ما
تعانيه أمك الآن..إنها تستغيث وتصرخ الآن حتى الموت..أتريد أن تسمع ؟

عَطَى عماد أذنيه بكفيه وتكوّم حول نفسه..وفي اللحظة التالية تعالت
صرخات أمه.. صرخات تشي بعذاب لا يُحتمل.. خنقه عجزه فوجد نفسه
ينتحب ويقول:

-سامحيني يا أمي.. سامحيني

مدت أمه يدها نحوه مستغيثة به وهي ترجوه:

-الرحمة يا عماد..أنقذني من هذا..أقلّتي وأرحمني من هذا الألم

عاد عماد ليحاول الإقتراب منها..لكن الحاجز الخفي ظل موجودًا
فاصطدم به..وسمعها تقول وقد عاد الصوت الغليظ:

-لا تتعجل موتك يا فتى..دورك قادم لا محالة لو لم تتذكر..أمامك سنوات
لتتذكر، وإلا فالموت لك..

-ارحموها أرجوكم.. سأفعل أيّ شيء لكن ارحموها.

جاء الرد المفزع الذي لم يتوقعه أبدًا:

-اقتل أمك!.. اقلّتها وستنتهي متاعبك الحالية.

لم يشعر بنفسه إلا وهو يعدو نحو باب الشقة هاربًا..خرج قبل أن يصاب
بالجنون وقد أدرك أنها تعاني لأنه موجود..لأن شيطانها ربما يعدونها من
أجله..لا يفهم ما جريته وما دافعهم لهذا لكنه يشعر أنه المَعْنَى بالأمر.

هبط إلى الشارع المظلم، ما زال الفجر لم يبرغ بعد.. بلغ الشارع الرئيسي
فتحرك فيه وقد قرر ألا يذهب إلى أيّ مكان.. سيظل هائمًا على وجهه
هكذا حتى الصباح..ربما يخفف هذا ألمه ووحشته..وبعد حين اهتز محموله
في جيبه وراح يرن..تردد قبل أن يخرج من جيبه ليري من المتصل..كانت
منى وعلى الشاشة راحت صورتها تومض..كانت هذه أول مرة تتصل به
منذ حادثة بيته.. حَذُّثُهُ يهدوء لم يعتده فأدرك أنه الفراق..وبالفعل أدرك
كم كان مُصِيبًا حين قالت له في النهاية:

-أعتقد أنه لا مجال للإستمرار في حربٍ لا طائل منها..لقد انتهى الأمر.

حاول أن يبدو صوته طبيعيًا وهو يجيب:

-أوافقك تمامًا هذه المرة..على كلٍّ منا أن يذهب في طريقه.

قالها وقطع الإتصال في اللحظة التالية ثم أغلق هاتفه تاملًا..لم ينتظر
حتى يعلم رد فعلها..لم ينتظر ليري إن كانت ستبكي أم تتهدأ ارتياحًا مما
قاله..لقد تهدمت معابده كلها..ليحترق العالم إذن..ولدهشته وجد نفسه
يندنن بأغنية قديمة سعيدة.

هل فقد عقله؟..ربما هذا ما يحدث..

فرغ المصلون من صلاة العصر، واستعدوا لمغادرة المسجد وفي نفس اللحظة توقفت سيارة جاجوار سوداء راضية بالقرب من المسجد، وبدأ عليها كان الدكتور محمد شاهين ينتظر الشيخ عبدالباسط والحاج رضا. بدت السيارة ملفنة للغاية بفخامتها، وراحت عشرات العيون تلصص عليها بشيء من الإندهاش وتساؤل عن صاحبها. وبعد دقائق خرج الشيخ عبدالباسط من المسجد وضافت عيناه التي أصابتهما الشيخوخة بالضحف ودارتا في المكان قبل أن تتوقف عند السيارة السوداء الفخمة فابتسم ويقول للحاج رضا:

-لقد وصل الرجل..

اتجهوا نحو السيارة وجلس الشيخ عبدالباسط بجوار الدكتور محمد شاهين بينما جلس الحاج رضا في المقعد الخلفي. حجبتهم السيارة المكيفة ذات المقاعد الوثيرة المريحة الدافئة عن صقيع الشتاء الذي يرتع بالخارج، وقال الشيخ عبدالباسط:

-من أين تأتي بكل هذه النقود التي تشتري بها كل هذه الأشياء الثمينة يا رجل.. هل عثرت يوماً على كنز ما..

تحركت السيارة على الفور نحو الطريق العام والدكتور محمد يجيبه ببساطة:

-حدث هذا أكثر من مرة وأنت تعلم هذا، مثلما تعلم أن النقود لم تمثل لي مشكلة في أي وقت. لقد كان داود باشا والدي رجلاً ماهراً في جلب النقود، وصبرت أنا ماهراً في إنفاقها والتمتع بها.

همس الحاج رضا باندهاش وهو يبحث عن مصدر الرائحة الزكية التي تفعم المكان :

-هل كان والدك -رحمة الله عليه -باشا يا دكتور.

-باشا تركي أصيل، وصدقني يا حاج رضا لم تكن لتجبه لو رأيته.. كنت لهرب منه لو اقترب منك.

بلغا حينها منزل عماد فتوقفت السيارة جواره. هبطوا من السيارة وتحرك الدكتور محمد بغفة لا تتناسب مع عمره وأخرج من حقيبة السيارة الخلفية حقيبة جلدية ضخمة وقال له الشيخ وهو يشعر بالالام تنتشر في مفاصل ركبتيه :

-حين أراك تتحرك بمثل الخفة وتقود سيارتك بنفسك وتعمل حقيبة ثقيلة لا أستطيع تحريكها، أشعر بالבוؤس على حال.. أنت أكبر مني يا رجل ومع ذلك أراك أكثر شباباً مني بكثير. أتمنى لو تخبرني كيف تفعل هذا!!

مال نحوه الدكتور محمد وهمس في أذنه :

-أخبرتكم أنها قلوب الرضخ.. جرّتها وستعود شاباً

-أحياناً تجعلني أحقد عليك يا دكتور بسخريتك هذه، ولولا أنني أحبك لكهرمتك حتى الموت.

-لا أصدق أنك قد تكره أحداً ما، أعتقد أنك لو صادفت مصاص دماء يريد أن يرتوي من دمائك لتركته حتى يشبع.

-لكنني بعدها سوف أبحث عن وسيلة ما لقتله.

بلغوا شقة عماد، ففرع الحاج رضا الجرس. فتح عماد الباب وكان ممدوح صديقه بجواره. زحَّب بهم ودعاهم للدخول، وقال الدكتور محمد، وهو يفتح حقيبته:

-أين والدتك؟

أشار عماد لحجرتها المغلقة وقال:

-إنها بالداخل..أعتقد أنها نائمة الآن.. بالأمس أذت نفسها بشدة ولم أستطع منعها.

سأله الشيخ عبدالباسط باهتمام:

-لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا حدث ثانية يا بني؟

قَصَّ عليهما عماد ما حدث..تبادلوا النظرات المشفقة، ومال ممدوح على أذن عماد وهمس بصوتٍ أقرب للبكاء:

-أنت لم تخبرني بهذا. لقد قلت لي أنها تحسنت، وأن هؤلاء قادمون لتخليصها مما بها. لكنك أخفيت عني أنها قد أذت نفسها. لقد خدعتني.إنني خائف يا عماد، أرجوك دعني أرحل الآن..

رمقه عماد بضيق فكفَّ عن تدمره. لكنه ظل خائفًا حتى تمنى لو يعدو من المكان كله.

وتعالت فجأة صرخات مخيفة من حجرة أم عماد..ارتجف الجميع، وأخرج الدكتور محمد قنينة تحوى سائلًا ما يميل لونه للزرقة، وراح ينثر بعضًا منه في المكان.. أمسك بعدها طيشورًا أحمر، ورسم دائرة كبيرة في منتصف الصالة وراح يزيئها برسوم غامضة..

صرخت أم عماد ثانية وتسرب الضوء الأحمر من باب حجرتها ثانية، فنظروا إليه بقلق. وبعد لحظات فتحت أم عماد الباب وتوقفت أمامه وقد تلاشى اللون الأحمر، راقبتهم بعيون لا حياة فيها، قبل أن تتوقف عيناهما على الدائرة التي انهمك الدكتور محمد في إنهاؤها، وقالت بوحشية:

-أرى أنك قد جلبت محترفًا هذه المرة يا عماد. لكنه مازال غير كافٍ لمواجهةنا. سوف يفشل كغيره.

قالها وعادت لتطلق ضحكتها المفزعة، لم يُعرها الدكتور محمد اهتمامًا وصاح في الشيخ عبدالباسط :

-اجعلهم خلفك يا شيخ عبدالباسط ولا تتوقف أبدًا عن تلاوة القرآن وآيات الطرد. ومهما حدث لا أريد أن يتدخل أحد منكم في الأمر إلا لو طلبت ذلك..

وعادت لتحدث الدكتور محمد وقد تجاهلت الباقيين، ومن حين لآخر يضطرب وجهها مع ما يتلوهُ الشيخ عبدالباسط من آيات القرآن الكريم بصوت مرتفع، لكنها وفي كل مرة سرعان ما كانت تتمالك نفسها:

-لن ينجح الأمر يا دكتور، وستفشل كما فشلت من قبل. هل تذكر ذلك الصبي الذي مات بين يديك وأنت تُخرِجُ أحدنا من جسده. هل أخبرتهم أنك قد فشلت وتسببت في موت الصبي الصغير يومها.

اضطرب قلب الدكتور محمد للحظة وقد تذكر الصبي. وبينما كانت يده تنتهي مما يرسمه استعاد عقله في لحظةٍ كل ما كان..

كان الفتى في السادسة عشرة من عمره، حين حصل على أحد الكتب القديمة من أحد باعة الكتب المستعملة. كان الكتاب يتحدث عن الجان، وطرق تحضيرهم. جرَّب الصبي بحماسة تعويذة استدعاء قوية، لكنه لم

يجلب أحد الجان حينها، بل جلب أحد الشياطين..وعلى الفور استحوذ الشيطان على جسده.

طرق أبواب حينها أبواب الكثير من الدجالين والشيوخ والقساوسة بلا جدوى. وحين لجأ إليه في النهاية كان الأمر قد انتهى، وقد بدأ جسد الصبي في التآكل، حتى أنه فقد بعض أصابعه. علم الدكتور محمد حينها ومنذ اللحظة الأولى أنه لن ينجح في النجاة بالصبي. لكنه أدرك أن عليه أن يعيد الشيطان لعالمه ولا انتقل إلى جسد آخر وعاث فيه فساداً وشراً. يومها راح يحاول بكل قوة إخراج الشيطان من جسد الصبي حتى اشتعل جسد الصبي فجأة والشيطان يغادره إلى عالمه ثانية. طالما شعر بالأسف على الصبي، لكنه أبداً لم يَلَمْ نفسه كثيراً. لم يكن ممكناً إنقاذه، لكنه نجح في حماية الآخرين من مصير مماثل.

وأفاق من ذكرياته على صوتها وهي تقول:

هل تذكر كيف اشتعل جسد الصبي فجأة..كم كانت زهرة النار رائعة حينها. كم كانت شبيهة رائحة الشواء التي تصاعدت من جلد الصبي الذي مات وهو يصرخ ويستغيث من عذاب لا يُحتمل. كل هذا حدث. وأنت تقف أمامه عاجزاً عن التدخل، وغير قادر على حماية الصبي أو رحمته مما يعانیه.. كم كنت مثيراً للشفقة حينها.

واقشعرت الأبدان مما تقوله. الغريب أن رائحة شواء عنيفة زكمت الأنوف حينها. بدت رائحة الشواء حقيقية تماماً في تلك اللحظة. هل استدعتها الشياطين التي تستحوذ على جسد أم عماد لترهيم ونثر فزعهم. سَمَّ الدكتور محمد الرائحة هو الآخر، وأدرك ما نصبو إليه تلك الشياطين. كانت ترغب في بَيْتٍ الهلع في نفوسهم لتشتيت أذهانهم، أو ربما كانت تعبث بهم..فصاح بحزم:

-إنهم يكذبون فلا تستمعوا لهم. لا شيء مما يقولوه حقيقي. حتى الرائحة التي تشمونها غير موجودة. إنها بعقولكم فقط. إياكم أن تَدْعُوهُمْ يثيرون فزعكم، وإلا فشلنا جميعاً..

تحرك جسد أم عماد في تلك اللحظة نحوه، وتوقفت عند حواف الدائرة القابع بداخلها وقالت له بصوت مُخَيَّف غليظ:

-لا تدرك أبداً مصيرك المظلم الذي نُعيدُ لك. إنَّ ما جرى لذلك الصبي لا يقارن بما سيحدث لك. الكثيرون في عالمنا ينتظرون لحظات المرح التي ستكون ممل في نهاية عمرك حين تصبح عاجزاً عن حماية نفسك. لا تعتقد أن تلك الطلاسم القوية التي تحيط بنفسك بها ستحميك للأبد. واهم أنت لو اعتقدت هذا. لو كنت مكانك لقتلت نفسي قبل أن تصل إليك.

-لا أعتقد أنني سأفعل ذلك يوماً ما، مثلما أؤمن أنني سوف أرسلكم جميعاً إلى الجحيم بعد قليل، لتخبروا كل المعانين الذين يريدون إيدائي أنني لا أعبأ بهم. أخبروهم أن يذهبوا إلى الجحيم لو لم يكونوا به بالفعل.

واقرب الشيخ عبدالباسط منه..رفع يديه في الهواء وراح يتلو:

- "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَخَذُوا وَلَوْ أُنذِرْتُمْ نَذْرًا"

وتقلص وجه أم عماد بشدة. وراح صوتها يتبدل بسرعة وهي تصرخ فيه:

-اصمت أيها الشيخ المأفون..كف عن هذا..سوف أمزقك من أجل هذا.. سوف أحطمك.

لكنه لم يصمت وهو يتقدم نحوها ويقرأ آياته، وهي تتراجع ووجهها يحمل أقصى آيات الألم..

- "وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ"

والتصقت بالعائط. وهي تصرخ وتطالبه بالصمت. كان وجه الشيخ يحمل حزنًا لا حدود له. وصرخ فيها وهو يرفع كفه في وجهها:

- بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ مَّمْتَنِعٌ، وَبِعِزَّةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَرَامُ وَلَا تُضَامُ، وَبِسُلْطَانِ اللَّهِ الْمُنِيعِ نَحْتَجِبُ، وَبِأَسْمَانِهِ الْحَسَنِي كُلِّهَا نَعُوذُ مِنَ الْآيَالَةِ، وَمِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ مُغْلِبٍ أَوْ مُسَبِّرٍ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ بِاللَّيْلِ وَيَكْمُنُ بِالنَّهَارِ، وَيَكْمُنُ بِاللَّيْلِ وَيَخْرُجُ بِالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ إِبْلِيسَ وَجَنُودِهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ هِيَ أَوْ أَجْدُ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، أَعُوذُ بِمَا اسْتَعَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى، وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ إِبْلِيسَ وَجَنُودِهِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَبْغِي.. أَسْأَلُكُمْ بِاسْمِ اللَّهِ أَنْ تَغَادِرُوا الْبَدَنَ.. أَخْرَجُوا بِاسْمِ قُوهِهِ اللَّهُ أَنْ تُزْجَمُونَ وَتُخْرَقُونَ..

- لن نخرج.. لن نخرج أبداً

خرج الصوت من فمها غاضبًا قويًا. فعاد ليتلو القرآن ثانية.. هنا التفت إلى صورة قديمة مُغلَّقة في الجدار.. وفي اللحظة التالية اندفعت الصورة نحو الشيخ. رآها عماد فأراد أن يصرخ مُخَيَّرًا الشيخ، لكن صرخته أنت متأخرة، فأصابته الصورة رأس الشيخ العجوز فسال خيطٌ من الدماء من جبهته وصمت للحظة وهو يصرخ من الألم. وحين رفع رأسه كانت تقبض على عنقه بيدها وهي ترمقه بغضب:

- أمرناك أن تصمت أيها الغبي. ستمت من أجل هذا.

أراد أن يعود ليقرأ الآيات المُهلِكات من القرآن الكريم لكن لسانه انعقد في حلقه. بدا وكان الشلل قد أصابه، وَفَرَّتْ وَجْهًا مِنْهُ وَقَالَتْ:

- إن حنجرتك الآن بيدى ولن تنطق ثانية.. لقد انتهى الأمر..

هنا أتى دور الدكتور محمد شاهين ليتدخل. كان كل ما يرغب فيه هو تشتيت انتباهها ليُكْمِلَ عمله. حملت تلك الدائرة التي رسمها الكثير من الخواص السحرية، أهمها قدرتها على حبس كائنات الظلام بداخلها والسيطرة عليهم بصورة قوية. وما أن انتهى منها حتى خرج منها وبدأ يتلو باللاتينية تعويذة قوية:

URITUR TENEBRIS LUX ET SOLVITUR PER
MALUM IUS VERBUM IN VIRTUTE, ET ANTIQUA
MYSTERIA INCANTATIONIBUS OSTENDENTES
IUBEO OBSEQUENDO; TEMPUS TACENDI, ET
SALUS EST, ET HOC EST ULTIMUM TEMPUS
VETUS ET FORTIS NON INNOXIA VERBA, UT
IRRITUM FACEREM, ET QUOD MALA EST, QUI
FUGIT, ET VENI: UT SERVUM, UT VENIRET
SERVUM, UT VENIRET IN BELLUINUM

هنا صرخت أم عماد وراح جسدها ينتفض. تركت عنق الشيخ عبدالباسط، الذي لهث بشدة قبل أن يُعاوِذ تلاوة آيات القرآن الكريم وقد استرد صوته. تذبذب النور في المصابيح، واهتزت الجدران للحظة قبل أن تتحرك أم عماد نحو الدائرة رغما عنها. ظل الدكتور محمد يردد تعويذته القوية بلا توقف والشيخ عبدالباسط يُعاوِذ بتلاوة القرآن والعزائم. وفي النهاية توقفت في منتصف الدائرة فصمت الجميع بترقب. كانت هي أول

من تكلم. خرجت من حنجرتها عشرات الأصوات المختلطة تتحدث بغضب
لا حدود له ومقت:

-حتى هذا لن ينجح.. سوف تفشلون في النهاية.. لا أحد يتقلب علينا أبداً.

(13)

جذب الدكتور محمد شاهين أحد المقاعد الخشبية بالصالة وجعله
ملاصقاً لدائرته التي صنعها ثم جلس عليه وقال بهدوء:

-إنه وقت الإعترافات. دعيني أخبركم أنني أنتظر أن أملاً مجلدات من
الإعترافات.. أريد أن أعلم كل شيء عنكم. ولماذا تؤذونها ونهاجمونها. أنتظر
أن تتحدثوا، أو أترككم للتعفن في هذه الدائرة للأبد.

راحت أم عماد تدور بشيء من الجنون في قلب الدائرة. عيونها اكتسبت
قسوة غريبة وخلجاتها تَقَلَّصَتْ بشدة، كأنما تعاني من شيء خَفِيٍّ لا يراه
أحد. مضى وقتٌ طويل من الصمت لم يقطعها إلا الزمجرات الغاضبة التي
تطلقها الكائنات التي تستعوذ على جسد أم عماد. تلملم الدكتور محمد
شاهين وهو يشغل غليونه الذي أخرجه من جيبه وجذب أنفاساً سريعة
منه راح يطلقها من فمه قبل أن يعاود حديثه:

-إذاً فمازلتم على إصراركم بالصمت. لو كنتم تعلمونني جيداً لأدركتم أن
هذا لا يقلقني. أمامنا الوقت كله والمثل ليس من صفاتي التي أفتخر بها.
يمكنني أن أنتظركم الدهر كله.. لكن ماذا عنكم. ستجوعون وستزيد
الدائرة من معاناتكم. ستشعرون ببرد رهيب ولن تفلح قواكم في ردعه. إنها
دائرة لوسيفر. سيدكم الأثير. إنه من أنشأها للسيطرة عليكم وتأديبكم.

أعلم كم تعانيون الآن كما أعلم كيف يمكنني أن أرحمكم منها. والآن هل
حان وقت الحديث.

-ماذا تريد؟..

كانت هذه هي الكلمات الأولى.. وابتسم الدكتور محمد بانتصار وقال:

-أعتقد أن السؤال الصحيح من أنتم وماذا تريدون؟..

-إننا هنا كثيرون.. كثيرون للغاية.. أكثر من أن تُخصي عدداً..

كانت الإجابة بأصوات كثيرة مختلطة.. كأنما رَغِبَ كُلُّ شيطانٍ بداخل
الجسد الضعيف في إثبات وجوده بالتحدث.. ارتجف عماد وهو يرمق أمه
باشفاق، والتصق به ممدوح برعب وهو يغالب رعبه، وحرك الشيخ
عبدالباسط رأسه بأسف. لن تنجو المسكينة أبداً من عملية طرد كهذه.
سيكون هناك أذى كبير لروحها وجسدها

وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوء وغليونه لا يُفَارِقُ شفتيه:

-هذا لا يدهشني. لكن ماذا عن سؤالي الآخر.. ماذا تريدون منها؟..

ارتفعت سبابتها اليمى وهي تشير لعماد ومرة أخرى أجابت الأصوات
جميعاً:

-إسأله. إنه يعلم.

التفتت الأعين كلها إلى عماد الذي أطلَّت منه نظرة ارتباك وحيرة حقيقة،
وغمغم وهو يتلفت بينهم :

-إنني لا أعلم أي شيء..

عادت نظرات الدكتور محمد إلى أم عماد وقال:

- الفتي يخبرنا أنه لا يعلم أى شيء، وربما يعلم ويريد أن يخفى علينا.. لماذا لا نخبرونا بما يعلمه ويخفيه أو بما يبغله ليعلم ماذا يريدون؟

راحت تدور بلا توقف داخل حواف الدائرة بجنون، وهي تصدر همهمات غامضة متلاحقة سريعة. وبعد لحظات تحدثت دون أن تتوقف عن الدوران:

-إذن فالإنسئُ قَدْ نَبِئُ. كان عليه أن يبحث. كان عليه أن يعلم. كان عليه أن يجد السيد وإلا فالهلاك مصيره.

لم تكن الإجابة مفيدة أو مترابطة. لذا سألتها الشيخ عبدالباسط:

-وما الذى عليه أن يبحث عنه وأن يعلمه..ومن هو السيد الذى عليه أن يجده؟..

توقفت عن الدوران وتحركت نحوه. تشممت الهواء من حوله قبل أن ترسم ابتسامة مُخِيفَةً على شفتيها..وتقول:

-الشر بداخلك يرتع لكنك لا تشعر به. ساقاك تؤلمانك ولا تقدران على حملك. أنت تفكر أنها الشيخوخة. لكنها أمرٌ آخر. أمرٌ مُخِيفٌ يروقنا لأنك ستعاني كثيرًا. سوف تتعفن حيًا أيها العجوز. سوف تتألم حتى تتمنى الموت.

توتر الشيخ عبدالباسط. لقد تعود في جلسات طرد الجان واستجوابهم على أكاذيب تلقى على مسامعه لإثارة فزعته. ذات مرة حَدَّثَهُ جِئِّيَّ كان يستحوذ على جسد فتاة صغيرة، عن إصابة ابنه في نفس اللحظة في حادث سيارة. وراح الجِئِّيَّ يصف له كيف مرت السيارة من فوقه، وكيف راحت تدهس جسده وما الذى جرى لعظامه. لم يكن هناك من وسيلة كي يتحقق من كلام الجِئِّيَّ. أنهى يومها تلك الجلسة في عَجْالَةٍ، وهو لا يطبق

الانتظار للإطمئنان على ابنه. لكن ابنه كان سليمًا لم يُصَبِّه سوء. كان الجِئِّيَّ يكذب ليشفته ويدفعه لإنهاء الجلسة. تعلم منذ ذلك الوقت أن الجان كثيرًا ما يكذبون، وخاصة الأشرار منهم فلم يعد يكثر بما يلقونه على مسامعه من أخبارٍ سيئة..

لكنه لا يدري لماذا شعر أن الأمر اليوم مختلف. وغالب هواجسه وهتف:

-لا شأن لكم بي وأجيبوا سؤالِي؟

-أنت لا تَصُدِّقِي ما نخبرك به. نظننا نخدعك. لكننا لا نفعل الآن لأننا سعداء. لقد حاربنا طويلًا وها هي النهاية التى تروق لنا قد أتت. سوف نكون بجوارك دائمًا كي نراك تتألم فنبتج. سوف نستمتع بعذابك حتى النهاية.

تابع الدكتور محمد ما يدور بينهما باهتمام..وراح يتفقد جسد الشيخ عبدالباسط بعينه..لاحظ الإرتعاشة البسيطة التى تحدثت في كفيه.لاحظ هُزْأَلَهُ ونُحُولَةَ الذى يفوق ما اعتاده. لاحظ الشحوب الذى يكسو وجهه. هل كان كل هذا موجودًا من قبل ولم يلحظه، أم أنه يتوهم ذلك الآن بعد ما ذكره هؤلاء الشياطين. لو صدقوا فهم يعنون شيئًا واحدًا عليه أن يتحقق منه فور انتهاء تلك الجلسة. شيئًا مُرِنًا بحق. ربما صَدِّقَ هؤلاء الشياطين هذه المرة وقد شعروا بما لا نعلمه..

وقال مقاطعًا حوارهم هذا كي لا يطول وكى لا يشتت انتباههم:

-اعتقد أنك لم تمنحنا الإجابة التى نرجوها، هل يعنى هذا أن نبعث عن عقابٍ ما لتلك الإجابات التى نعددها خاطئة.

التفتت اليه أم عماد وخرج من فمها الصوتُ الغليظُ متحديًا:

-لن نستطيع أن تؤذينا أيها الأحق.

جاوبوه بمقتب و غضب :

-لقد أخبرناك كل شئ..الإجابة لا نحملها نحن..عليه أن يفعل هو.. عليه أن يتذكر أو يبحث عنها. عليه أن يجد السيد الذى ينتظره ويحرره..

-وماذا لو لم يفعل. ماذا ستفعلون حينها.

-سيدفع الثمن..كل عائلته سيدفعون الثمن..السيد لا يرحم..السيد لا يلسى..السيد ينتظر.

-ومن هو هذا السيد الذى يفعل كل هذا؟.. من يكون؟!

من جديد صمتت، وبدا عليها عدم اللامبالاة..عاد الدكتور محمد يرفع القنينة التى تحوى الماء الوردى أمام بصرها فقالت الشياطين التى تسكنها:

-افعلها ثانية وسوف نقتلها. إنه أمرٌ يسير. جَرِّب وسوف ترى

-إنها مِيتَةٌ بالفعل..مِيتَةٌ منذ اللحظة الأولى التى تكالبتم فيها على جسدها. ربما من الأفضل لها أن تموت الآن بدلاً من أن تعاني طوال الوقت كل هذا العذاب الذى لا يُطاق وأنتم داخلها..

ارتجف وجهها قبل أن تلتفت إلى عماد لتقول بصوتها الغليظ:

-هل جليتهم كى يقتلوا أمك..هل تعلم أنهم سيفعلون هذا؟..

ارتجف عماد حينها وهو يخشى أن ينتهى الأمر بشئٍ كهذا لكن الشيخ عبدالباسط همس فى أذنه:

-لا تهتم بما تسمعه. الدكتور محمد لن يؤذى أمك أبداً.

أخرج ببساطة قنينة بها سائل وردئ الشكل من جيبه. راحت عينها أم عماد تدور فى محجرها بجنون. وضع الدكتور محمد القنينة فى فمه وتلا تعويذة، قيل أن يقذف جسد أم عماد ببعض من سائلها. فى اللحظة التالية تعالى صراخ هائل من فمها وراحت تقفز بجنون، كأنما يحرقها السائل، وقد تصاعد من جسدها بخار وردى ذو رائحة نفاذة. ومن بين الأمهات هتفت :

-كفى. كفى. سوف نشويك حيًا أيها العجوز الحقير. سوف نسلخك حيًا قبل أن نشويك..

لم يبالى بتهديدها. والى ثانية ببعض السائل وكما حدث فى المرة الأولى تعالت الصرخات والأبغرة من جسدها لكن الشياطين التى تسكنها لم تهدد هذه المرة وقد اكتفت بما حدث لها ورمقته بكراهية لا حد لها. ومال عماد نحو الشيخ عبدالباسط الذى عاد ليوقف بجواره وقال بقلقى وهو يخشى أن يؤذى هذا السائل أمه:

-ماهذا السائل الذى يلقيه الدكتور محمد ولماذا يصدر هذا البخار الوردى؟..

-إنه ماء زمزم المقدس مخلوط به بعض البخور والمواد الأخرى. إنه يؤذيهم بشدة ويحرق أجسادهم؟

-وماذا عن أمى؟.. أألن يؤذيها؟

-مطلقا. إنه مجرد ماء بالنسبة لها. لاتقلق. إننا نعلم مانفعله.

صمت بشك وتابع ما يقوم به الدكتور محمد الذى كان يقول:

-أعتقد أننى بانتظار الإجابة الصحيحة الآن. من يكون أول من يفعل منكم؟

لكنها عادت تتكلم مرة أخرى. هذه المرة تحدثت بصوتها الحقيقي. كانت تنأوه وتتألم وقالت بأعْياء مُسْتَجِدَّة:

-لا أريد أن أموت يا عماد. لا تدعهم يقتلونني. أنجِدني يا بني. أريد أن أحيأ.
أريد أن أعيش. أبعدهم عني وحررني.

قبض الشيخ عبدالباسط على يده المرتجفة بقوة مُحاوِلاً الشَّدَّ من أزْهِه وطمأنته. كان جسد عماد حينها يرتعد وهو يبكي شاعراً بالعجز عن اتخاذ قرارٍ ما وسمع الشيخ عبدالباسط يعاود الحديث إليه قائلاً:

-لا تُصَيِّقْ ما تسمعه. ليست أملك التي تتحدث. إنهم الملاعِين الذين يسيطرون عليها. إنهم يرغبون في أن تتخذ قراراً أحمقاً وقد شعروا بالمحاصرة. لا تنجدهم يا بني أرجوك..

-لكنها أمي..

قالها باكياً، ورَدَّ عليه الشيخ عبدالباسط بحزم:

-ونحن نحاول مساعدتها..ثق بنا..

وقال الدكتور محمد في تلك اللحظة وهو يعيد القنينة إلى جيبه :

-لقد اقتصعت الآن بأنه لا جدوى من إيدائكم بهذا الماء. لا فائدة بالفعل من هذا .

قالها وهو يتحرك وعينا أم عماد تتابعه بحذر..واستطرد بعدها مبسئاً:

-سوف نبدأ في طقوس إحراقكم وأنتم بجسدها..أعتقد ان هذا هو القرار الحكيم للتخلص من شؤركم هذه..

صرخت حينها في وجهه:

-لن تفعل..ستقتلها لو فعلت..

-أخبرتكم أنها مَيِّتَةٌ بالفعل، ولا يضير الشاة سلعها بعد ذبحها..لقد انتهت، وحن الوقت كي تنتهوا أنتم أيضاً..

وبينما راحت تتحرك في الدائرة بجنون وهي تصرخ "لن تفعل " التفت إلى الشيخ عبدالباسط وقال له :

-هل أنت مستعد يا شيخ عبدالباسط ؟..

تقدم الشيخ عبدالباسط نحوه وقال ببساطة:

-دائماً مستعد..دعنا نبدأ.

وضع كَفُّهُ في كف الدكتور محمد..لكنهم قالوا في تلك اللحظة:

-لن تنجحوا أيها الحمقى..ربما لا نستطيع أن نمنعكم لكن هؤلاء يستطيعون

وقبل أن يسأل الدكتور محمد عن من هم..جاءته الإجابة..أظلمت الصالة فجأة وعاد اللون الأحمر ليكسو المكان..ومن كلِّ مكان بجدران الصالة راحت الظلال المخيفة تتراقص وتتحرك وتتداخل..ظلال حقيقة مخيفة تملك أعينا مشتعلة..ذَبَّ الرعب في النفوس وراح الدكتور محمد يتلو في توتر تعاويذه كي يصرف هذا الجيش الشيطاني. وأخذ الشيخ عبدالباسط يردد عزائمه وهو يتراجع في ذعر. تحرك الحاج رضا حول نفسه برعب وقد عقد لسانه فلم يتكلم بينما راح ممدوح يصرخ بلا توقف وهو يبعد بيده أعداءاً وهمية. لكن عماد لم يتحرك. لم يشعر بالخوف ككل مرة. لقد عاش هذا من قبل. والآن قد سنم ما يحدث وتمنى لو ينتهى الأمر بموته لينتهى من هذا الجحيم..

ظلت عينا عماد معلقتان باليد المشتعلة لأمه ببلادة غير مفهومة لبعض الوقت. كان يرى زهرة النار المتوهجة والضباب الرمادي المتصاعد منها ورائحة الشواء الخانقة التي تنبعث منها ونظرة السخرية واللامبالاة التي ترسم على شفتي أمه وكأنما ما يحترق ليس كفها. لكنه عاد لعقله بعد لحظات وقد شعر أنه في طريقه للجنون. ثَقُلَت معدته وتصاعد الجُمُض الحارق إلى حلقه وازداد إحساسه بالدوار. قبل أن يبدأ في القىء العنيف. هوى بعدها نحو الأرض في إعياء وبدأ يبكي، وسمعها من خلفه تقول :

-بالك من ضعيف بانس!

لم يُجِبْ وعادت معدته للقيء. رأى في هلع السائل الدموى الأحمر ينبثق من فمه بغزارة، فأيقن أنه الموت وواصلت أمه ضحكاتها وهي تقول:

-يبدو أنه الموت هذه المرة. لكننا سنكون بانتظارك بعدها.

لم يعبأ بما تقوله ورفع رأسه فرأى اليد المحترقة التي تاكل لحمها وبرزت أوتارها وعظامها. مازال الدخان يتصاعد منها وما زالت رائحة الجلد المحترقة قوية.. شعر بالشفقة على أمه فتمالك نفسه وصرخ:

-رباه. ما الذي فعلتموه بأبي أيها الملاحين. لقد قتلتموها.

-أنت من أردت هذا.. أنت من يتسبب في إيدائها لا نحن

-أنا لم أفعل شيئاً. أنتم من فعل كل شيء

تحركت أمه نحوه. كان وجهها جامداً وبدت عيناها ميتتان كما لم يرهما من قبل. هل تكون أمه قد ماتت بالفعل في تلك اللحظة وأن من يحرك جسدها هم الشياطين.

تعالَت الصرخات وفي اللحظة التالية اندفع جسد ممدوح زاحفاً على الأرض نحو الدائرة المصنوعة من الطباشير. ومُتَأَجِّراً أدرك الدكتور محمد ما حدث. لقد قطعت الدائرة السحرية التي صنعها. لقد تحررت أم عماد ومعها شياطينها..

خرجت من الدائرة وهي ترمقهم بظفر. تحركت نحوهم وهي ترمق الدائرة التي حبستها منذ قليل بازدياد قبل أن ترفع كفها عاليًا وراحت تنقلو تعويذة ما. ازدادت الظلال جنوناً في حركتها وبدأت في التجسد أمام الجدران. فقد الحاج رضا وعيه وقد سبقه ممدوح. اجتاحت آلام حادة صدر الشيخ عبدالباسط وقد أعلن قلبه أن ما يجري الآن يفوق احتماله كثيراً.. تلفت الدكتور محمد حوله بقلق وقد أدرك أن الأمور خرجت من بين يديه وراح يفكر بياس في حلٍ ما لإيقاف كل هذا. بينما راح عماد يتابع ما يجري بذهول كأنما لا يعنيه كل مايدور أمامه..

اندفعت الظلال المرعبة نحوهم. فبدا وكأنها النهاية. وصَفَّقَت أم عماد بكفها، فاشتعل ضوءٌ مبر في المكان كله للحظات ثم اختفى. وحين عادت لعيني عماد قدرته على الرؤية مرة أخرى وجد الشقة خالية من حوله. ولا وجود للدكتور محمد شاهين أو للشيخ عبدالباسط أو ممدوح أو الحاج رضا. لم يسأل نفسه حينها أين ذهبوا. لم يكن ممكناً في الواقع أن يفعل. فأمامه كانت أمه تستند على باب حجرتها ترمقه بهدوء. وكانت يدها اليمنى التي تستند بها على باب الحجرة مشتعلة. وشَمَّ أنفهُ رائحة الشياطين القوية لجلجٍ يحترق..

صار وجهها مُلاصقًا لوجهه وخرج من فمها الصوت المختلط :

-حرر السيد أها البشرى تنتهى الامك..حرره لتنتهى لعنتك.

-وكيف أحرره وأنا لا أعرفه. أخبرونى عنه

هنا عاد الجنون فجأة وظهر الضواء الأحمر الرهيب. امتلأت الجدران بالظلال..لم تتحدث أمه لكن الهمهمات والهمسات المهمة أنت من كُل مكان.. بدت الشقة وقد امتلأت بغثة بالشياطين..وسمع أصواتا غاضبة تصرخ في أذنه دون أن يرى قائلها :

-حرر السيد تنتهى اللعنات. حرره تتحرر.

راحت أشباحٌ مخيفة تظهر وتختفى بسرعة هائلة أمام عينيه. وراحت عشرات العيون المشتعلة تظهر في فضاء الشقة وهى ترمقه غاضبة..

حاول أن يهرب لكنه دار بعينه في كُل مكان دون أن يرى باب الشقة. لقد اختفى الباب فعلم أنه صار حبيسًا مع تلك الشياطين. ويزغِب رأى ما يتجسد على الجدار. رأى الرأس الضخم الذى تَجَسَّد فجأة وعلى جانبيه قرنان صغيران وفي منتصف جبهة عينٍ ضخمة مشتعلة في غضب. وبعد حين برز ثعبانٌ من نار وصنع دائرة من اللهب حول الرأس.

ومن كُل مكانٍ حوله تعالت الهمسات المرتجفة التى تردد في صوتٍ رتيب :

-أزوث.. أزوث.. أزوث!!!.

راح يلتفت في جنون وقلبه يخفق في عنف، قبل أن يبدأ الرأس الشيطاني المشتعل حديثه. انحسرت الشفتان عن ظلام سَرْمَدِيٍّ لا نهاية له وخرج صوتٌ قادمٌ من مغارات الجحيم الخفية. كان صوتًا رهيبًا مريعًا بصورة لا خَدُّ لها، وسمعه يقول:

-حان الوقت لتحررنى أها الإنسى. إن أزوث ينتظر.

واكتسحه الدُور فأغمض عينية وهو يحيطهما بكفيه كأنما لا يريد أن يرى شيئًا مما يدور حوله. تَكْوُم على الأرض في وضعٍ جنينى، وهو يبكى فزَعًا. وبعد لحظاتٍ انتبه إلى الصمت الذى أَظَلَّ المكان، فتح عينه بحذرٍ فعلم أن الشياطين قد غادرت وبقيت أمه. رَمَقَهَا وهى ترمقه بجمودٍ دون أن يَلُوخَ على مُخَيَّأها أى أثر للحياة. لكن شفتها تحركتا بعد برهة وخرج من فمها صوتٌ جافٌ يقول :

-أنت التالى أها البشرى. لا تنس هذا!!

وللمرة الأولى رأى السكين الضخم المُعَلَّق بقوى خفية في الهواء خلف عنق أمه. أدرك عماد حينها ما سوف يحدث فحاول أن يثب ليبعد أمه عن السكين، لكنه كان متأخرًا. و رأى بألم كيف اندفع السكين في سرعة رهيبة نحو عنقها وكيف غاص في عنق أمه من الخلف حتى مقبضه. راح يصرخ في يأسٍ وهو يحتضن جسد أمه الذى راح ينتفض بعنف والدم ينهمر من عنقها المذبوح بغزارة..

-أمى..ليس أمى عليكم اللعنة. أمى. أمى!

ولدهشته فتحت عينها ومن فَمٍ سال منه خيطٌ من الدماء قالت بوهن :

-إنهم أجدادك!

الفصل الخامس

أزوث



اندفعت ابتسام بلا تردد نحو حجرة أمها. لم تُبال بالضوء الأحمر المخيف المرعب الذي كان ينبعث منها. لم تهتم برهبتها وفزعها من الذكريات المرتبطة بتلك الحجرة، ولم تذكر غير خشيتها على ابنها. كانت لتواجه شياطين الجحيم نفسه لو واجه ابنها مكروءاً ما. وحين دلفت الحجرة رأت الهول، فصرخت.

كان الطفل في منتصف الحجرة المتوهجة يقف بجمود وعيناه معلقة بالجدار الذي يواجهه في جمود، وببطء رفعت عينها عن ابنها ونظرت للجدار. وشهقت بفزع حين رأت ما به وعادت لتصرخ.

كان هناك ثعبان من لهب يلتف حول نفسه على الجدار في صورة دائرة تعلوها رأسه، وفي منتصفه انطبعت جمجمة نارية تضطرم عينها بلهب شيطاني وعلى جانبها انتصب قرنان متوهجان..

تسمرت بمكانها أمام الرمز المخيف وقد أنساها فزعها طفلها المتصلب بجوارها هو الآخر، ثم تناهى إليها صوتٌ مألوفٌ يأتي من خلفها. كان صوت أمها الراحلة فلم تصدق أذنها وقد تعرفته في اللحظة الأولى. وحين استدارت للخلف اصطدم بصرها بأُمها وهي تستند إلى الجدار بكُفٍ مشتل، وترتمقاً بنظرة زجاجية لا حياة فيها. حبست أنفاسها وقلها يدق كالطبول. ومن بعيد لاحت غيبوبة مخيفة تسرع نحو عقلاها.

توقف الزمن للحظات مرت كالدهر، وفي اللحظة التالية تبدلت عينا أمها وصارتا حمراوين ناريتين وهي تبتسم. ولم يكن ممكناً أن تتمالك ابتسام نفسها أكثر من هذا فصرخت كما لم تفعل من قبل. وفي اللحظة التالية اندفع نحوها شبح أمها. احترق جسدها وغاص فيه حتى اختفى. هنا بترت

صرختها وتجمدت بمكانها للحظة قبل أن تهوى على الأرض كقالبٍ من الصخر بلا حراك.

وعلى باب الحجرة كان هناك عماد. جذبته صرخة أخته فَهَبَ من فراشة وهرع نحوها. جاء في نفس اللحظة التي اختفى شبح أمه في جسد أخته. أراد أن يتحرك نحو أخته المترنحة ليعمها من السقوط، لكنه انتبه إلى الطفل المتصلب في منتصف الحجرة دون أن يبدو عليه التأثير بما يدور حوله. وارتفع بصره بقلق إلى حيث ينظر الطفل، ورأى الشعار الشيطاني المتوهج على الجدار.

هنا تحدث الصغير فجأة ومن فمه خرج صوتٌ غليظٌ لا يمكن لحنجرته الضعيفة أن تخرجه:

-اقرب الوقت أيها البشري. السيد ينتظر. حرره، أو تفقدها وتموت. حرر أزوث. إنه ينتظر.

كان هذا أكثر مما يحتمل فاندفع نحو الطفل فَهَرَّهُ بغنْظٍ ليفيق ثم احتضنه وهو يبكي. استجاب الطفل لهزائجه فأفاق وقد عادت الحياة لعينيهِ ثانية. وتلاشت منها تلك النظرة الجامدة. دارت عيناه في الحجرة بجيرة. قبل أن يرى جسد أمه الراقدة بجواره فصرخ وهو يتخلص من ذراعي خاله ليندفع إليها، وراح يناديها باكياً لكنها هذه المرة لم تُجِبْهُ

لقد مات الشيخ عبدالباسط منذ أعوام. رحمه الله لقد أصيب بسرطان البروستاتا بعد حبسك بشهور ولم تستمر مع المرض الخبيث طويلاً فمات. لكن ما الذي دعاك لتذكره الآن يا بني؟

قالها الحاج رضا بدهشة، وهو يرمق عماد وممدوح بعينين محتقتين
منتفختين.. كانت أنفاسه سريعة متلاحقة كأنما يخوض سباقاً عنيفاً. كان
كبده في أسوأ حال في هذه اللحظة، وكانت كليتيه في طريقهما للنهاية مثل
كبده. كان هذا الرجل الطيب يحيا أيامه الأخيرة على ظهر هذه الأرض..

وقال له عماد متجاهلاً أفكاره السوداء تلك:

- الأمر يتكرر ثانية يا حاج رضا. هذه المرة هي ابتسام.

أدرك الحاج رضا ما الذى يقصده عماد. أخبره عماد ما حدث بإيجاز.
فتململ الرجل في جلسته محاولاً إتخاذ أفضل وضع ممكن يريح بطنه
المنتفخة بالماء والزلال وهتف بجزع:

-إذا علينا أن نفعل شيئاً ما بسرعة. لن ننتظر حتى يسوء الأمر.

قالها وسعل بقوة ثم عاد ليقول بصوتٍ ضعيف:

-لا تقلق يابنى. سوف نجد حلاً ما إن شاء الله.

راقبهما ممدوح وقد تملكه الرعب وعقله لا يُكفُّ عن استعادة الرعب
الذى عاشه من قبل أعوام سيع، تذكر ما حدث معه والشيخ وحيد والشيخ
ميمى وكيف كاد أن يموت من الرعب حينها.. ما لا يعلمانه أن الكوابيس
المزعجة مازالت تاتيه من حينٍ لآخر مُذكِّرةً إياه بتلك الحادثة العصبية.. لم
يرغب في أن يترك صديقه يواجه أمراً كهذا بمفرده لكنه كذلك لا يستطيع
أن يشترك في هذا الأمر ثانية.. وخاصة بعد ما رآه يحدث مع ابتسام منذ
قليل.. لن يشترك في الأمر حتماً.. لذا قال ببطءٍ وهو يرنو بعينيهِ لأسفل:

-لن أشترك في هذا الأمر. أرجو ألا تغضب منى يا عماد. الأمر فوق طاقتي
ولهذا أردت أن تعلم منذ البداية أننى لست معك.

أراد الحاج رضا أن يعترض عليه لكن عماد أسرع يقول وهو ينتزع من
شفتيه ابتسامة فاترة:

-لا ألومك على هذا يا ممدوح، لست مُجَبِّراً على خوض الأمر ثانية.

ران الصمت للحظات وأبعد عماد بصره عن ممدوح كي لا يُزِنْدُ إحراجَه
بينما قال الحاج رضا محاولاً تغيير دفة الحديث :

-وكيف حال ابتسام الآن..

-مازال عبقها في عالمٍ آخر غير عالمنا. لقد عهدتُ برعاية الطفل لأم محسن.

-حسناً فعلت. أبعد الطفل تماماً عن المكان كي لا يصيبه مكروه هو الآخر.

قالها الحاج رضا وصمت الجميع ثانية قبل أن يتذكر ممدوح فجأة
شخصاً ما قفز إلى مُخَيَّلَتِهِ فجأة فقال بسرعة وهو يضرب جبهته بباطن
يد:

-يا إلهى كيف نسيته!..لقد نسينا جميعاً ذلك الطبيب النفسى..أعتقد أنه
كان يدعى محمد شاهين كما أذكر.

تهل وجه الحاج رضا، الذى قال من فوره:

-الدكتور محمد شاهين.. نعم يا بنى. كيف فاتنى هذا. إنه رجلنا الذى
نبحث عنه!..

أظلم وجه عماد، وهتف باعتراض:

-هذا آخر من ألجأ له. لقد خذلنى في المرة الأولى. لن ألجأ إليه أبداً. لقد
تسبب بشهادته الكاذبة اللعينة في إداننى.

وضاقت أنفاسه فنهض، وأولاهما ظهره، وأكمل في هياج:

رمقهما عماد بجيزة وحنقه من الدكتور محمد شاهين يشتعل في أعماقه
وقد عادت جذوته للإلتهاب ثانية. لكنه بالفعل لم يدرى أى حلٍ غيره.

في النهاية أطرق رأسه مستسلماً وقال:

-حسنًا. سوف ألقا إليه.

ثم أكمل في أعماقه بحنق:

-لكن هذا لا يعنى أبدًا أنى صفحت عنه !.

(3)

جلس الدكتور محمد شاهين على أريكة خشبية في منتصف حديقة
فيلته وراح يرمى شاردًا الأفق بعيون ضامرة مريضة. راح يدخن يهدوء
غليونه ويطلق بخواء سحبات غير منتظمة من الدخان. كان يفكر بيأسٍ في
نهايته.

عما قريب سينتهى كل هذا الصخب الذى عاشه ويموت. عما قريب
ستنهى رحلة طويلة من المغامرة والبحث والإثارة والدهشة والفضول.
عما قريب ستأتى النهاية التى لا ريب فيها.. إنها لمستها الأولى والأخيرة التى
وهبتها له، وهديتها المخيفة التى لا تُرد. سوف يدفع ثمن مقاومته لها
ورفضه إياها غالبًا.. سوف يدفع عمره كله.

كانت رومية. الجثة الفاتنة التى عادت للحياة قبل أعوام. وما أدراك كم
هو سحرها وحلاوتها وجاذبيتها وكذلك كم هى قسوتها ووحشيتها وتفرد
انتقامها. لقد عادت لتنتقم. ومنحته لمستها الباردة محملة بلعنة الموت
الذى لا فرار منه. لقد حكمت عليه بالإعدام وصار التنفيذ حتميًا.

-ألا تتذكران ما فعله بى..لقد اتهمنى بالجنون في المحكمة..لقد تسبب في
إيداعى مستشفى الأمراض العقلية بشهادته تلك..كيف يمكننى أن أثق به
بعد ذلك. إننى لا أنساه أبدًا وأتمنى لو ألقاه يومًا لانتقم منه على ما فعله
بى. كان الأمر ليتغير كثيرًا لو أخبر المحكمة بالحقيقة بدلًا من اتهامى
بالجنون.

حاول الحاج رضا تهدئته وقال:

-ربما أخطأ حينها، لكننا الآن في حاجة إليه..لقد مات الشيخ عبدالباسط
الذى كنا نثق فيه وقد كان الرجل يثق في ذلك الطبيب كثيرًا كما أخبرنا.
لذا أرى أن تدع حنقك منه الآن جانبًا، ونسأله عن مساعدته في الأمر. إن
حياة أختك أهم بكثير من حنقك هذا.

لم يَبُدْ على عماد أنه اقتنع بما قيل له، وقال عابسًا:

-وماذا فعل في المرة الماضية..لقد فشل كالآخرين..إنه لم يساعدنا حينها
بأى شيء.

-لكنه حاول واجتهد، بل وكاد أن ينجح لولا أن الأمور تطورت بسرعة. يا
بى استمع إلى: اذهب لهذا الرجل واطلب مساعدته. لا تدع عنادك يعمى
بصرك عن واجبك. أختك تحتاج للمساعدة وربما كان قادرًا على تقديمها
لها فلماذا لا نلجأ إليه إذن ولْنُنَجِّى حقدنا عليه جانبًا.

نظر عماد إلى ممدوح مستنجدًا، لكنه فوجئ به يقول:

-لا تنتظر أن أخالف الحاج رضا في رأيه، فلا وقت لدينا لنتعثر في أحد
الدجالين والأفاقين ثانية. يمكننى أن أصحبك إليه لو شئت. لكن عليك
أن تذهب إليه.

كثيرًا. طالما تمنيت أن أغادر العالم قبلك كي لا أكتوى يومًا بفراقك. الآن
تَبَدَّل الأمر، وها أنا أراك أمامي تحتضر. إن أبشع كوابيسي يتحقق الآن
أمام بصري.. يتحقق ولا أستطيع أن أفعل شيئًا.

وتجفف أنفها بمنديل ورق في يدها وتكمل:

-دكتور محمد. أرجوك عِشْ من أجلى أطول وقتٍ ممكن. توقف عن قتل
نفسك بالتدخين، وأفعل أي شيء قد يطيل بقاءك معي قليلًا. هذا طلب
صغير للغاية يستحق أن تحققه من أجلى. إنه طليي الأخير الذي أتمناه
منك.

كان يعلم حقيقة مشاعرها نحوه.. وبعد خمس وثلاثين عامًا من عملها
لدية كمديرة لفيلته، مازالت تحبه وما زالت تخاف عليه كما فعلت دائمًا..
وها هي الآن تخشى موته وتُغَالِبُ نفسها كي لا تنهار أمامه..

المشكلة أنه لن يترك التدخين أبدًا. سيموت وغلغولونه في فمه لو استطاع.
فبعد كل تلك الأعوام الطويلة من ملازمته صار جزءًا منه لا يمكنه فراقه.
لذا قال بهدوء وهو يربت على كتفها ببذ ضامرة سقيمة:

-ولماذا لا تصدقني يا عزيزتي أن التدخين لا شأن له أبدًا بما أعانيه، إنه لن
ينفعني ولن يضرني كذلك. لا تطالبيني بالإمتناع عن أمرٍ أحبه في أيامي
الأخيرة. من حق أن أستمتع بما أحب قبل أن أموت.

لكن الأطباء طالبوك بالكف عنه.

-أذكر أنني مازلت طبيبًا أنا الآخر. ورأيي كطبيب أن التدخين لا ضير منه
في مرضي هذا. الأمر أعقد بكثير من سحب الدخان، وما قد تسببه من
أمراض هذه المرة. إنها لعنة يا عزيزتي. لعنة!! هل تدريكن هذا؟

ينتهي إلى وداد مديرة منزله وهو تعدو نحوه خلال الحديقة دون أن تلتزم
برصيفها وهي تطأ بقدمها عشها المهذب. رأى غضبها فابتسم بفتور وقد
أدرك سببه. لقد عاد للتدخين غلغولونه بينما هي تُصِرُّ على اتباع نصائح
الأطباء له بالإقلاع عن التدخين.. إنها لا تريد أن تصدق أنه لا يعاني من
مرضٍ ما.. إنها لعنة يا فتاتي الصغيرة.. لعنة صَبَّتها فوق رأسه فاتنة
القدماء روميه..

وصلت إليه وصرخت في وجهه بعصبية تضاعفت عما اعتاده منها:

-لا أدري لماذا لا تنتحر بمسدسك مادمت ترغب في الموت سريعًا هكذا.
افعلها يا دكتور وأعدك ألا أمانعك. على الأقل سموت بسرعة، ولن أتعذب
طويلاً برويتك وأنت تتحلل أمامي ببطء هكذا.

تظاهر بعدم الفهم وقال مُدَاعِبًا:

-مازلت رقيقة جدًا، وبارعة في اختيار كلماتك كما عهدتك يا وداد. أتحلل
ببطء. أهكذا تصفين ما أعانيه؟! يا لربتك وعدوبتك.

-ومازلت عنيدًا جدًا كما اعتدتك.. هلا أخبرتي لماذا عدت للتدخين ثانية.
ألم تعدني أن تقلع عنه.

-وهل توقفت يومًا عنه لأعود إليه. كما أنني لا أذكر أنني وعدتك. هل
فعلت حقًا؟

زفرت بحقن ويأس. وأشاحت بوجهها بعيدًا كي تخفي عبراتها عنه، لكنه
لاحظها. قليلة هي المرات التي كانت تبكي أمامه. ثم قالت له بصوت واهن
وهي تجلس بجواره:

-تعلم أنه من العسير أن أحتمل فراقك. هذا يفوق تفكيرى وقد اعتقدت
منذ زمن أنني أشيخ أسرع منك بكثير وأنتى سأموت قبلك، وكان هذا يريحني

ترمقه بشكٍ قبل أن تفقد رباط جأشها ثانية ويرتفع صوتها وهي تقول
بتحلي:

هل تعني بكلامك هذا أنك لن تمتنع عن التدخين؟

-أعدك ألا أفعل أمامك. هذا أكثر ما يمكنني تقديمه.

-إذا سأتركك. أنت تعلم أنني سأفعل. لو ظللت تدخن هكذا فلن أمكث
بالفيلا ثانية واحدة. إنها كلمتي الأخيرة.. عَجَلْ بموتك كما تشاء لكن ليس
أمام بصرى. لن أكون ها هنا أبداً حين تموت.

قالتها وابتعدت بغضب، لكنها وبعد أمتار قليلة، توقفت أمام إسماعيل
بواب الفيلا العجوز الذي تقدم نحوها ببطء، وقال:

-هناك شابان يرغبان في رؤية الدكتور. إنهما يُلْحَظَانِ في التحدث إليه

-من يكونان وماذا يريدان؟.. ولماذا لم تخبرهما أن الدكتور مريض، ولا
يقابل أئ أحد. اذهب واطلب منهما الإنصراف.

سمع الدكتور محمد الحوار فقال وهو يلتفت إليهما:

-ألم يخبراك ما اسمهما، ولماذا يرغبان في مقابلي؟..

-لقد أخبرني أحدهم أن اسمه عماد، قال إنك تعرفه منذ أعوام.

تذكر عماد على الفور. إذن مازالت ذاكرته على حالها حادة يقظة كما
كانت دوماً. إنها ميزته الكبرى التي لم تذهب بها لعنته هذه، وبينما همَّتْ
وداد بأن تطالب البواب العجوز ثانية بإبعادهم، أسرع ليقول للبواب
العجوز:

-عماد !! إذن فقد أطلقوا سراحه. قُدُّهُ إلَيَّ يا إسماعيل. سوف أقابله
بالطبع. من الرائع أن ألقى هذا الفتى ثانية قبل موتى.

تحرك البواب العجوز ببطء نحو الباب، بينما انتظرت وداد بجواره
متحفزة وقد صممت على مضض.. وبعد دقيقتين كان عماد أمامهما مع
ممدوح الذي تمالك نفسه بصعوبة، وعيناه معلقة بانهاز بالحديقة
الوارفة التي يسير فيها.. وما أن وقع بصر عماد على الدكتور محمد حتى
اتسعت عيناه بذهول. فلم يكن هذا أبداً الرجل الذي رآه منذ أعوام سبع.
بدا وكأنه إنساناً آخر، رجل ثَقُؤَصْ جسده وتهدم.. مستحيل أن تفعل
سنواتٍ سبع في شخصٍ ما كل هذه التغيرات.. لقد صار عجوزاً بشدة
وكانما اقترب عمره من الأعوام المائة.. أياكون مريضاً هو الآخر مثل الحاج
رضا؟..

وبادره الدكتور محمد مُرَحَّبًا بودٍ ودفع:

- يبدو أنه مُقَدَّرٌ لِي أن أراك ثانية يا صديقي القديم.. صَدِّقْنِي يا عماد،
تمنيت أن يحدث هذا قبل أن أموت. ما زالت أدين لك بتفسيرٍ أخير.

في تلك اللحظة ذهب عن عماد كل الحنق والغضب والكراهية مرة
واحدة، بعد أن رآه هكذا. الآن لا يشعر في أعماقه بشيءٍ غير الإشفاق نحوه.
حَكَّ أنفه وهو يقول مرتبكاً:

-كيف حالك يا دكتور محمد. هل أنت بخير؟.

كان سؤالاً لا معنى له، وقاطعتها وداد وقالت بصرامة لعماد وممدوح:

-أعتقد أنها الشاب أنك لاحظت أن صحة الدكتور ليس في أفضل
حالاتها.. لهذا أرجوا منكما ألا تطيلا الزيارة أو تُزهِمَّا الدكتور أو تزعجانه.

انزعج الدكتور محمد من كلماتها، وهو يرى كيف احتقن وجه ممدوح بخجل، وكيف ازداد ارتباك عماد، فقال لها مُخَفِّدًا:

- لا يصح أبدًا أن يقال هذا لضیو فی یا وداد. من فضلك اتركينا الآن بمفردنا، ولا تنسى أن نُعَدِّي لنا عصيرًا طازجًا.

كنمت اعتراضها وغيظها بأعماقها، ورمقت الشاينين بحزم كأنما تُذَكِّرُهُمَا بما طالبتُهما به، وانصرفت. هنا قال عماد ثانية ولم يجلس بعد:

- أخشى أن تكون السيدة مُصِيبَةً فيما قالت.. لا مبرر أبدًا أن نرهقك. أعتقد أنه على أن أنصرف الآن.

- اجلس يارجل ولا تتحدث بهذا الهراء. أنا بخير حال كما ترى. دعك من كلام النساء وأخبرني، من هذا الوسيم الذي يرافقك؟.

ابتسم الإثنان رغماً عنهما لدعابته وقد نعت ممدوح بالوسامة التي يفتقدها بشدة، وأسرع عماد يقدم له صديقه:

- إنه صديقي ممدوح، لقد كان معنا من قبل لو كنت تذكر.. يبدو أنك قد نسيت.

رفع الدكتور محمد رأسه للفضاء، محاولاً التذكر قبل أن يبتسم وقد تذكره:

- نعم.. نعم.. أذكره بالطبع، ربما لم أتعرفه منذ البداية لأنه قد ازداد بدانة. كيف حالك يا ممدوح. أرى أن حديقتي قد أعجبتك..

- إنها رائعة للغاية يا دكتور. لم أَرِ في حياتي شيئاً كهذا. لكن ماذا تدعو تلك الزهرة الحمراء هناك.

- إنها زهرة "الأضاليا" إنها مكسيكية الموطن.. ستروك كثيراً لو نظرت إليها عن قرب.. اذهب إليها لترهاها. يمكنك كذلك أن تتجول بالحديقة كما تشاء لو أردت.. هناك عشرات الزهور الجميلة التي ستعجبك حتماً.

وأدرك ممدوح على الفور ما يصبو إليه الدكتور محمد.. لا بد أنه يرغب في تبادل حديث خاص مع عماد. لذا تتحنن بجرح وهو ينهض مرتبكاً وتمتم:

- إن هذا ما أتمناه بالفعل.. سوف أذهب لأرى كل زهرة في الحديقة.

راقبها حتى ابتعد، قبل أن يعاود الدكتور محمد حديثه بعد أن أطلق من فمه سحابة خفيفة من الدخان:

- والآن أنتظر أن تخبرني كم أنت حائق على بعد شهادتي الزائفة ضدك في المحكمة.. بالطبع لا ألومك على مشاعرك تلك، لو كنت مكانك لفعلت.

- صدقني ليس الأمر الآن كما تعتقد.. ربما كان من قبل، لكنني في هذه اللحظة لا أحمل نحوك أي ضغينة. لقد انتهى الأمر.

- وهل حدث هذا لأنك أشفقت على العجوز الذي أهلكه السقم والعجز حين رأيته بعد كل هذه الأعوام..

- أقسم أنه لا شأن بمرضك بما أشعر به.. ولو كان حديثك هذا مقدمة لاعتذار تعتقد أنني بانتظاره أو احتاجه فلا تفعل أرجوك.. لقد انتهى الأمر بالفعل.. ولست هنا من أجل هذا.

تراجع الدكتور محمد برأسه للخلف وعيناه لا تفارقان وجه عماد، كأنما يقرأ من خلاله ما يُكِنُّه في أعماقه، وقال باسمًا:

ومن أخبرك أننى أرغب في تقديم اعتذارٍ ما.. هذا شيءٌ لم يدور بخلدى قط.. لكننى أرى أنه من حَقِّك أن تفهم الآن لماذا اتهمتكم بالجنون ولم أخبر القضاة بالحقيقة.

هزَّ عماد رأسه رافضاً الفكرة وقال على الفور:

-أرجوك لاتفعل يادكتور.. أخبرتك أن الأمر قد انتهى فلا تزج نفسك بتبريرٍ قد يُعْطيك.. إننى...

هنا بان الغضب على وجه الدكتور محمد وقاطعه قائلاً:

-اسمعى يا بنى وكُفَّ عن إحساسك السخيف بالشفقة نحوى.. إننى لم أمت بعد، ولست عاجزاً عن تنظيف نفسى من فضلاتى لتفعل.. مازلت قادراً على العناية بنفسى والوقوف على قدمى، وحتى أفضل في هذا، لا أحب أن أرى نظرة الشفقة تلك في عين أحبٍ ما.

ارتبك عماد وقد تصاعد الخجل في أعماقه فهرب ببصره نحو ممدوح الذى راح يتجول في الحديقة بلاهدف، بينما عاود الدكتور محمد حديثه قائلاً:

-أرجو أن تعي كلماتى هذه..لقد كنت مظلوماً حين اتهمتكم الجميع بقتل أمك.. أعلم جيداً أنك لم تكن لتقدم على أمرٍ كهذا مهما حدث.. لم تكن لتفعلها قط حتى لو هاجمتك ورغبت في قتلك.. هذا أعلمه لأننى أعرفك ولأننى طبيب نفسي وظيفتى أن أَقَيِّمَ الظروف والدوافع النفسية لمن أمامى.. إننى أدرك هذا جيداً، لكن ماذا عن القاضى؟!.. هل تعتقد أنه كان ليصدق أى حديث أخبره فيه أن أمك كانت مسكونة بالجان، وأننى أعتقد أن الجان أو الشياطين هم من قتلها وليس أنت.. هل تعتقد أن القاضى كان ليصدق أمر كهذا؟.

عاود عماد عناده ورفضه لما حدث. عاد حنقه وغضبه القديم ليتأجج في نفسه وعاد البركان في جوفه ليثور، فهتف معترضاً:

-كان عليك أن تخبرهم الحقيقة يا دكتور، كان عليك أن تساعدنى بتأييد ما قلته..كما كان عليك أن تجهد كي تثبت برائتى ما دمت تدرك أننى لم أفعل.

-وهل تعتقد أن هذا كان ليفلج.. هل كان معك شهود، رأوا ما حدث بينك وبين أمك.. بالطبع لا.. إذا ماذا تنتظر من القاضى الذى يحكم بالأدلة والبراهين أن يفعل.. هل تعتقد أنه كان ليصدق شهادتى القائمة على سرد أمور عجيبة مليئة بالأحداث الخارقة، والتى ربما رفضها عقله تماماً. كنت لأؤذيكَ لو فعلت، بل كنت لأشكك في مصداقيتى نفسها لو فعلت

-وهل تعتقد أنك لم تؤذى فعلاً يا دكتور بما فعلته.. لقد قضيت أعواماً سبيع بمستشفى الأمراض العقلية.. لقد صرت مجنوناً في أعين الجميع.. لقد فقدت من أجبُ بسبب هذا.. ولقد ضاع مستقبلى، ولم يعد هناك من يقبلنى في عملي ما.. هل هناك إيذاء حقاً أكثر من هذا؟

تأمله الدكتور محمد بهدوء. كان يدرك ما يعمل بداخله من حنق، وارتعشت يده للحظة قبل أن يجيبه:

-كل هذا كان ليحدث على كل حال..لو أننى شهدت بما حدث، وأخبرت القاضى بالحقيقة، ورفض تصدىقى ولم يأخذ بشهادتى، ماذا كنت تنتظر.. بالطبع كان ليحبسك وربما كانت عقوبتك السجن المؤبد مثلاً.. حينها كنت لتقع خلف القضبان أعواماً لن تحصيها بين القتلة والمجرمين لتتحلل نفسك خلالها وتتغفن روحك، وحين تغادر السجن بعدها ستكتشف أنه لا شيء قد بقى لك لتعيش من أجله. ربما ترى أننى قد أخطأت لكننى أؤمن أننى لم أفعل. لقد فعلت الصواب يا بنى حين بذلتُ

الحقيقة، فعلت هذا لأنني أردت أن أساعدك ولم يكن أمامي سبيلٌ آخر غير هذا..

لم يبد على وجه عماد الإقتران، وإن تَعَجَّبَ من نفسه حين شعر بأن حنقه راح يَخْفُتُ تدريجيًا في أعماقه.. وأكمل الدكتور محمد حديثه وهو يغمض عينيه وهو يستعيد من ثنايا ذاكرته ذكرى بعيدة:

-لقد واجهت أمرًا مُشابهًا لما حدث لك منذ أعوام بعيدة. حادثة تشبه كثيرًا ما لاقيته.. في تلك المرة احترق منزلٌ ومات كل من فيه.. الضحايا كانوا ثمانية بينهم أطفال، والمهمة شابة ممسوسة كنت أقوم بعلاجها.. كانت في هذا الوقت قد شَفِيَتْ من مَسِيَّتِها، لتجد نفسها متهمة بالقتل.. متهمة بقتل أسرتها جميعًا وهي لم تفعل، حاولت الدفاع عنها بإخبار المحكمة بالحقيقة، فلم يصدقني أحد حينها، ليحكم عليها القاضي بالإعدام في البداية، ثم خُفِّفَ الحكم في الاستئناف للسجن المؤبد. لكن هذا لم يغير من الأمر شيء. لقد ماتت الفتاة بعد أعوام في السجن. ماتت بعد أن أصابها اكتئاب شنيع لم تشفى منه. إنني لا أبالغ لو أخبرتك أنه كان ينتظرك مصيرًا كهذا. فَكَّرَ قليلًا بعقلك في ما أقوله ودع غضبك جانبًا وستدرك أنني لم أبغ إلا مساعدتك.

وصمتا وقد عادت وداد حاملة عصير البرتقال الطازج. قَدِّمْتُ كوبين إليهما ثم بحثت بعينها عن ممدوح، حتى وجدته في ركنٍ بعيدٍ مُنْحَنِيًا فوق نبتة من نباتات الحديقة يفحصه باهتمام.. وقالت بشك:

-ما الذي يفعله هذا هناك.. بل ولماذا ذهب إلى هناك؟.

-ربما كان يرغب في قضاء حاجته.

داعيا الدكتور محمد، فتقلصت ملامحها جزعًا ووثبت منتفضة، وصرخت وهي تهرع نحوه حاملة كوب عصيره:

-سأؤديه لو كان يفعل. لا يفعل هذا أبدًا إلا الحيوانات.

وضحك الإثنين لبعض الوقت وهم يشاهدانها تندفع بغضب نحو ممدوح، قبل أن يرتشف الدكتور محمد بعض شرابه ويقول لعماد:

-لماذا جئتي ثانية يا عماد؟..

ارتشف عماد ثلاثة أرباع كوبه مرة واحدة كأنما يدفع بهذا بعضًا من ثورته، قبل أن يحكي له ما حدث مع أخته ابتسام. استمع إليه الدكتور محمد باهتمام وقلق، وحين انتهى عماد من كلامه، قال له بتوتر حقيقي:

-هل تعلم يا عماد.. كنت أخشى أن يحدث هذا ثانية. بل لنقل أنني كنت أنتظر أن يحدث.

قال له عماد بدهشة:

-ولماذا اعتقدت هذا.. المفترض أن هذا الأمر كان مع أمي فقط، والمفترض أنه قد انتهى بموتها.

-ولماذا أصيبت به أمك من البداية.. وكيف احتل جسدها كل هذا العدد المخيف من الجان في وقتٍ واحد ولماذا فعلوا.. صَدَّقْتَنِي لقد أدركت منذ الوهلة الأولى التي زرتك فيها أن أمك قد انتهت.. كان من المستحيل أن ينجو بشري ما من استحواذ شيطاني كهذا. لقد كان الأمر كله مربك ملء بالالغاز.

-وهل لديك تفسير لما حدث؟

صمت الدكتور محمد للحظة وتطلَّع إلى الشمس الغاربة وقد صبغت الكون بصُفْرَتِها المُقْبِضَةِ قبل أن يقول بهدوء:

-انتقام شيطاني يعماد.. انتقام ملعون بطارد عاليتك كلها.

مضى بعض الوقت من الدهول قبل أن يفيق عماد من هول الصدمة. انتقام شيطاني. كان هذا أكبر من أن يتخيل وقوعه مخنوق فهتف وهو غير مصدق:

-انتقام شيطاني! أيُّ قولٍ هذا يا دكتور؟..

-يوسفى أن أخبرك أن هذا الاحتمال هو الأكثر قبولاً لدى.. إن تفكيرى هذا ليس وليد اللحظة. لقد كان الأمر كذلك منذ واجهنا الأمر سوياً في المرة الأولى.

- وما شأن الشياطين بنا لِتُصَبَّ على رؤوسنا لعناتها السوداء.

هز الدكتور محمد رأسه ببطء، وفرد أصابعه التي راحت تؤلمه بشدة، فلاحظ بعض التسلخات الجلدية الحديثة بين أصابعه، كانت أصابعه تتأكل من جذورها، رمقها متوجعاً، قبل أن يضمها ثانية محتملاً الألم العنيف، ويقول:

-وهل بهم هنا ما تعتقده أو ما ترفضه؟.. أنا أرى ما يحدث معك أكبر من أن يكون مجرد استحواذ شيطاني أو مسّ أرضى.. لو كان الأمر كذلك لما واجهت أملك كل هذا العنف.. إن ما قامت به من أشياء فظيعة، لا يستطيع فعله إلا مرده الجان وشياطينهم وبعض سحرة الجان الكبار.. وهؤلاء لن يضيعوا وقتهم في مجرد استحواذ على جسد أحد البشر.. إنهم لا يفعلون أمراً كهذا إلا لسبب قوى، وغالباً ما يكون الإنتقام هو هدفهم.

-ولماذا يرغبون في الإنتقام منا.. نحن لا صلة لنا بهم ولا نهم بتلك الأمور ولا نطرق أبواب الدجالين أو السحرة أو غيرهم.. فلماذا يختاروننا دون باقي البشر ليفعلوا.

لم يجبه الدكتور محمد من فوره، وراح يدخن غليونيه ببطء في نفس الوقت الذي عاد فيه ممدوح، فأشار إليه أن يجلس فجلس بهدوء.. ومضى بعض الوقت من الصمت قبل أن يقول الدكتور محمد:

-هناك أشياء قمت بها لا تعلمها. فبعد سجنك كان فضولى عاتياً لمعرفة حقيقة ما حدث لك.. حاولت أن أتسلل إلى شقتك لكنى فشلت.. جربت أن أتصل بأختك لكنها رفضت الحديث إلى، بل وأغلقت الهاتف في وجهى حين أخبرتها أنني كنت أعرفك..

وضحك بوهن كأنما راقه الأمر حينها، وأكمل:

-بالطبع تفهمت لماذا فعلت هذا.. لقد كانت حانقة عليك وخمئلك مسئولية موت أمكما.. لكننى كنت بحاجة لأن أفهم.. وقابلت الشيخ عبدالباسط حينها، وجئنا أن نستدعى أحد الجان لنستعين به في معرفة ما حدث لكنه لم يعد لنا وعلمنا أنه اختطف وقتل.. علمنا هذا بعدها فكان هذا كافياً لأن نتوقف عن المحاولة. أدركنا أن الأمر أكبر من قدراتنا على تتبعه فتوقفنا.

وصمت مرة أخرى وعماد يرمقه في ذهول، قبل أن يردد:

-أتعنى أن جنياً قد مات لمجرد أنكم طلبتم منه معرفة ما حدث.

-هذا ماحدث بالفعل وهو أمر ليس بالبين أبداً لو علمت أن الجان لا يعيشون فرادى.. إنهم قبائل وعشائر كثيرة وكلهم يرتبطون بأواصر قوية من القرابة والدم.. ولو تم الإعتداء على جئى لَهَبَّتْ عشيرته وأهله لنجدته من فوره والنار له، حتى لو اشتعلت الحروب من أجل هذا.. ومع هذا مات الجئى ولم تثر قبيلته أو حتى تبحث عن ثاره.. هذا يعنى أنها شعرت أنها أضعف من أن تهض بثاره وأن من قام بقتله قد يبطش بهم ولا قبَل لهم بهم.. بالمناسبة هل تعلم كيف مات الشيخ عبدالباسط؟

-أعتقد أنه السرطان..لقد أخبرني الحاج رضا بهذا.

-أجل.. لقد مات بسرطان البروستاتا. ولو كنت قوى الذاكرة لعلمت أن تلك الكائنات التي استحوذت على جسد أمك قد علمت هذا وقد كان المرض في بدايته. هذا يعني قدرتهم على معرفة المرض الخفى المستتر في الأجساد، وتلك مقدرة لا يملكها كل الجان..القوى فقط منهم هو من يفعل.

تذكر عماد ما قاله الشيطان على لسان أمه للشيخ عبدالباسط..وابتلع ريقه بصعوبة ورمى الدكتور محمد الذى تجعد وجهه وتقلص وهو يدارى ألاما لا تُطاق تعصف بجسده وتهشه..وبعد لحظات سأله عماد :

-ولماذا قد يرغب هؤلاء في الإنتقام منا ؟..ألدك اقتراحٌ ما؟.

-ماذا تعرف عن أسرتك يا عماد..أجدادك من الناحيتين..ماذا كانوا يفعلون وهل اشتغل أحدهم بالسحر مثلاً، أو حاول يوماً الإتصال بعالم الجان؟

-إننى لا أعلم الكثير عن أجدادى من ناحية أبى، فجدى لأبى مات حين كان أبى طفلاً، وكذلك فعل أبى..لقد مات وأنا فى الثانية من عمرى. أما جدى لأمى فقد كان عاملاً بأحد مصانع الغزل والنسيج، وأبوه كما أذكر كان فلاخاً. لا أعتقد أن هناك ما يربط فيهم أبداً.

-مازلت أعتقد أن هذا الإنتقام يتعلق بأحد الأجداد..هذه ديدن الأمور هنا.. يتصل الجد بالقوى الشريرة..ثم تكون لعنة تلزم أبنائه بعدها..لذا أرى أن عليك أن تبحث وتفتش جيداً عن أسرتك، وأن تعلم كل ما يمكنك معرفته عن حياتهم. ربما يقودنا هذا للوصول لشيء ما.

ومرة واحدة طفا على سطح عقل عماد أمرٌ ما قد نسيه طويلاً. وتذكر ما قالته أمه وهى تحتضر..هل كان الحل أمامه طوال الوقت وهو لا

يدرى..راحت كلماتها الأخيرة قبل أن تفارق الحياة تدوى فى أذنه. "إنهم أجدادك".

رباه !!! لماذا نسى هذا كل هذا الوقت،والتفت إلى الدكتور محمد وأخبره بما تذكره..انتبه الدكتور محمد لكلماته وغمغم باهتمام:

"هذا يؤكد ظنوني وبحسم الأمر، علينا التنقيب فى تاريخ عائلتك. هل تعلم منشأ أجدادك

-أعتقد أنها قسط اللبن. إنها إحدى قرى محافظة القليوبية، وقد أخبرتنى أمى يوماً أن أجدادى أتوا منها. هل تعتقد أن نبدأ البحث من هناك؟

-لا بأس أن نبدأ من هناك

صمت عماد للحظة مفكراً فى الأمر قبل أن يتحدث ممدوح الذى عاد فى أمر قد نسيه الجميع:

"وماذا عن ابنتام..ماذا تنوى أن تفعلوا معها..هل سندهوا إلى تلك القرية وتركوها هنا بمفردها.

لكن الدكتور محمد ابتسم وقال على الفور :

-سوف أتولى أنا أمرها..لقد أتيت تسألنى المساعدة من أجلها والآن سوف أفعل.

تذكّر عماد وممدوح المواجهة السابقة العنيفة التى كانت مع أم عماد ونظرا إلى جسد الدكتور محمد الضعيف، وتبادلا النظرات الصامته التى تصرخ بما يدور فى أعماقهم "أيستطيع الدكتور وهو فى مرضه هذا مواجهة أمر كهذا؟"، لكن الدكتور محمد صاح فيهم بغضبٍ حقيقى:

-أخبرتكم يا عماد ألا تُجهد عقلك بالتفكير بشأنى..أنا لم أصبح عاجزاً بعد، ومازلت قادراً على القيام بالأمر..كُفَّ عن نظراتك السخيفة تلك ولا تقلق بشأنى..هذه المرة أدرك جيداً ما أواجهه، وأعتقد أننى أستطيع حماية نفسى وحمايتكم بصورة كبيرة. فقط ثقا بى هذه المرة.

قال عماد على الفور كأنه يعتذر:

-إننى أثق بك بالفعل يا دكتور

-هذا ما أنتظر أن أسمعه. والآن دعونى أخضِرُ أولاً بعض الأغراض اللازمة، قبل أن نذهب سوياً إلى بيتك لئلى ما يمكننا عمله..بالمناسبة هل يتقن أحدكم القيادة أم أطلب السائق.

أجابه ممدوح :

-إننى أستطيع القيادة، أحمل رخصة قيادة منذ أعوام.

-حسناً. انتظرانى هاهنا، لن أتاخر.

وتحرك بحماس كأنما عادت لجسده حيويته كلها، وما أن غاب عن بصرهما، حتى قال ممدوح بتوتر:

-إننى لا أشعر بالراحة..ألا ترى كيف يبدو الرجل..إنه ميت تقريباً.

-ليس أمامنا إلا أن نتبعه. ألم نأت إلى هنا من أجل هذا؟.

وقبل أن يُعَقَّبَ ممدوح، ارتفع فجأة الرنين المميز لهاتف عماد المحمول.. أخرجه من جيبه ونظر فيه.. كانت متى من تتصل. كانت المرة الأولى التى تفعلها منذ طالبته بالإبتعاد عنها. وأتاه صوتها باكياً:

-النجدة يا عماد. إفعل شيئاً ما أرجوك. لم أعد أحتمل تلك الحياة. لم أعد أحتمل المزيد.

تناسى كل ما يمر به، وتذكر حبيبته، فهتف بقلق:

-ماذا هناك يا متى؟. هل أذاك ثانية؟

-إنه يحبسنى ويعذبنى. تعال لئرى ما فعله بجسدى. إنه يحرقنى بالنار. إنه يقتلنى ببطء. افعل بالله عليك أى شىء وإلا قتلت نفسى..إننى أفكر فى الإنتحار طوال الوقت.

-إياك أن تفعل. سوف أقتله لو حدث مكروه لك.

-دعنا نهرب سوياً من كل هذا الجحيم..دعنا نبدأ من جديد فى مكان بعيد.

ذُهل من كلماتها وقبل أن يرد عليها، رأى الدكتور محمد يتقدم نحوهم حاملاً حقيبة صغيرة وخلفه مديرة بيته تعدو خلفه وتصرخ فى جنون معترضة على ما يفعله..هنا قال لها مُثَبِّتاً اتصاله:

-سأفكر فى الأمر يا حبيبتى..أعدك أن أفعل ما ترغيبين فيه فاطمنى. أنا مضطر للذهاب الآن وسوف أَحْبِلُكِ فيما بعد. إلى اللقاء

قالها وأبهى الإتصال وقد صار الدكتور محمد أمامه وابتسم قائلاً كأنما يستمتع بالأمر أو كأنما هو موشك على القيام برحلة خلوية:

-إننى مستعد يا شباب، دعونا نبدأ المرح.

وبينما يتحركون نحو السيارة كانت وداد تصرخ من خلفهم:

-لقد فقدت عقلك حتمًا. حين تعود لن أكون هنا، سوف أرحل الآن قبل أن أجن. أقسم أننى سوف أفعل، وسترى !

راح عماد الصغير يلهو في الصلاة. ومن داخل حجرتها راحت سوسن تُظِلُّ على الطفل من حينٍ لآخر لتطمئن عليه كما أوصتها أمها. راقبها الأمر كثيرًا. فالطفل قد صار وسيلة اتصال جديدة بعماد، وقد صار لقائهما به صعبًا بعد أن أنتت أخته لتقيم معه. ما الذي أتى بتلك الأخت الباردة الصارمة لتعيش الآن معه؟ طالما فكرت بحنق..

كانت على وشك أن تحصل على مأربها منه، لولا مجيء تلك الأخت المعقدة. لا تعلم لماذا انجذبت نحوه هكذا، ولا تدرى لماذا ثور مشاعرها هكذا حين تراه. لم تكن أبدًا سهلة المنال رغم جرأتها، وقد تودد إليها العشرات من قبل، فلم تلتفت إليهم أو تلتقى إليهم بالآ. ربما لأنها ترى أغلبهم مرافقين أو أطفالًا لا يحركون شعرة بمشاعرها ولا يثيرونها..

لكن عماد كان مختلفًا.. عماد الذي طالما داعبها وهي طفلة. لكن الصغيرة قد كبرت، وصارت أنثى جميلة، تنتظر فارسها. لا تدرى لماذا جذبتها صلته الخفيفة وذقنه الطويلة الشعثاء وجسده النحيل.. كانت أحيانًا تقارن بين هيلته الرثة وهينة معجبها من الشباب المتأنقين، فتتساءل هل هي طبيعية، أم أن يسلكها هذا شذوذًا كما أخبرتها منال صديقتها المقرية، حين حكّت لها مكنون نفسها..

لكنها لا تبالى ولا تهتم إن كانت شاذة أم كانت طبيعية. إن عماد هو الرجل الكامل الآن في حياتها ولن تدعه أبدًا. تتبععت أخباره القديمة وعلمت بعلاقاته مع منى من قبل. منى الجميلة التي تزوجها محمد عصام البلطجي. وكثيرًا ما تقف أمام مرآتها لتقارن بين ملاحظتها وفتنتها وجمال منى. وتسأل نفسها هل يشعر بها يومًا، أم أن باله مازال مُعَلِّقًا بامرأة من ماضيه تأتي أن تفارقه..

تعلمت أن الرجل تحركه مشاعره وغرائزه، وقد تأتي الغرائز بالمشاعر فيما بعد. وصارت تعتمد مغالزته وإثارته بمفاتها. لكنه راح يقاوم وهو يحاول أن يصرفها عنه محاولًا التجلد. لكن عيناه المتأججتان بالشهوة كانتا تفضحه. وعلمت أنها مسألة وقت لا أكثر وستهاوى مقاومته وسيستسلم لها ليركع بين قدميها، حينها تدرك جيدًا كيف ستجذبه من عنقه ليخطيها من أمها ويتزوجها..

يدور عماد الصغير حول طاولة تتوسط الصلاة مُقَلِّدًا صوت القطار، ومعه ابتسمت وهي تتذكر ما جرى بينها وبين عماد في المرة الأخيرة منذ أيام.. تلك المرة التي أكدت لها أنها قد شارفت النجاح وأن أميرها في طريقه للخضوع لسلطانها. راقبت أخته حتى خرجت في ذلك اليوم بعد صلاة المغرب حاملة طفلها. وحَفَّت من ملابسها الكاملة وتأنقها أنها ستأخر بالخارج. كانت هذه هي فرصتها التي تُحَيِّثُهَا لأسابيع. بدَّلت ملابسها وارتدت ببيبي دول وردى اشترته منذ شهر وارتدت فوقه روبا طويلًا مفتوح لا يُغْنِي ما أسفله. طرقت بابه. ففتح لها الباب فتسربت للدخل على الفور دون أن تمنحه وقتًا للإعتراض. وتوقف هو امام الباب بتوتر ليجعلها مفتوحة وهتف بها مُتَحَاشِيًا النظر إليها:

-سوسن بالله عليك لا تفعل. أنا بمفردى وابتسام بالخارج. ولا يليق أبدًا أن تكوني بشقتي بملاسي كهذه.

لكنها اقتربت منه كعادتها وهي تتأود في مشيتها فشمَّ عيبرها المثير وقالت هامسة وهي تدفع بقدمها العارية الباب المفتوح:

-أردت الإطمئنان عليك وقد صرت تهرب مني..

-إنني بخير حالي كما ترين. هلا ذهبتى إذن؟

لكنها التصقت به بشدة ولاحظت عيناه المشتعلتان اللتين راحتا تبتعدان عن جسدها الملهب بصعوبة، وقد تهدجت أنفاسه، وقالت له:

-ما رأيك في ما أرتديه.. هل يروقك؟..

-إنه جميل. جميل جدًا. ولأن هل يمكنك أن تغادري وتركيني.. أخشى أن تأتي ابتسام فتجذك هكذا؟ لا أعتقد أن رد فعلها حينها سيُسرك.

-لا يهمني ما تفعله.. لتأتى الآن لتدرك كم أحبك.. لكنها لن تأتي. أعلم أنها لن تفعل قبل ساعاتٍ من الآن..

شعرت بمحاولة الفاشلة ليكون حازماً، ويدها تحاولان إبعاد جسدها الملتصق به في محاولات ضعيفة في الواقع، فتبتسم بداخلها وهو يقول:

-سوف أخبر أملك لو لم تغادرين الآن

-لا يهمني.. أخبرها وسأقول لها أنني أحبك.

-من فضلك هذا يكفي يا سوسن.. اتركيني

لكنها واصلت اقترابها رغماً عنه حتى قَبِلَتْهُ.. فلم يُبعد رأسه.. وبعد لحظات كان هو من يمارس الجنون مع شفتيها.. مضى الوقت سريعاً ثم أبعد رأسه عنها وقد احتقن وجهه بشدة وتلاحقت أنفاسه وقال بصوتٍ مخنوقٍ مُنَار:

-هذا يكفي.. عودى للمنزل الآن.. هيا اذهبي

كان هذا يكفيها بالفعل.. قرأت في قلبه الكثير والكثير وقد تهاوت حصونه.. في المرة القادمة لن تكون هناك حواجز وسوف يهرع إلى أميها.

لم تكن تعرف الذى حدث لابتسام.. لكن أمها قبل أن تترك البيت طالبها ألا تذهب إلى شقة عماد وألا تدع الطفل يفعل.. اشتعل فضولها فنادت

الطفل وداعته وأعطته بعض الحلوى وهى تسأله عن أمه. وتكلم الطفل مسحوراً بالحلوى.

-ماما مريضة. الطبيب قال هذا. هل أخبرتكِ بسرٍ يا طانط. هناك امرأة عجوز مخيفة هاجمتها وضربتها. إننى أخاف من تلك المرأة العجوز يا طانط. إننى لا أحها وخالو عماد أخبرنى أنه سوف يقتلها.

كلماته العجيبة لم تطفىء فضولها. هنا قررت أن تفعل شيئاً مجنوناً.. سوف تدخل الشقة لترى ما هناك.. أمها لن تأتي الآن، وعماد بالخارج والطفل يمرح في الشقة.. لتفعل هذا، ولن يشعر بها أحد..

جلبت مفتاح الشقة الذى مازال بحوزة أمها وذهبت إلى هناك.. فتحت الشقة فطالعها الظلام. جَرَّبَتْ أن تُشعل أضواءها فلم يشتعل المصباح الكهربائى. ظنت أنه مَسَّن كهربائى. أخرجت معمولها من جيها وأضاءت مصباحه وعلى ضوءه رأت الصالة الساكنه. تحركت بحذر نحو حجرة ابتسام المفتوحة وما أن صَوَّبَتْ ضوء المحمول نحو الفراش حتى واجهها وجه ابتسام المتصلب وعيناها الجامدتان المحمقتان في الفراغ.

كادت أن تصرخ لولا أنها تمالكت نفسها بصعوبة. كان عليها أن تراجع لكنها أحجمت وقد غلبها فضولها، وعادت بحذر لتدخل الحجرة وصوبت الضوء نحو الفراش الذى رقدت عليه ابتسام بسكون، بعيون مفتوحة ترمق الفراغ في خواء. أنفاسها الضعيفة وصدرها الذى يعلو ويهبط أنبأها أنها مازالت حية.. لكن لماذا تنام هكذا ولماذا لا تتحرك؟ هل يكون مرضٌ ما قد أَلَمَّ بها. من يدري؟.

تراجعت للخلف بحذر وكادت أن تغادر الشقة لولا أن لاحظت الضوء الأحمر الذى ينبعث من حجرة عماد. تحركت نحوها لترى من أين ينبعث وفى أعماقها تصاعد نذير يأمرها بالتوقف وأن يهرب من المكان. لكن

لاحظ عماد أن باب الشقة كان مواربًا حين دلف الشقة. أضاء المصباح الكهربائي فرأى أن كل شيء في مكانه. حجرته مغلقة وحجرة أخته في آخر الممر مفتوحة كما هي وغرفة أمه خلفه مغلقة هي الأخرى. لم يُعِر الأمر اهتمامًا وتوقع أنه ربما نسى التأكد من إحكام إغلاقه حين خرج..

دخل الدكتور محمد شاهين خلفه وهو يستعيد ذكرياته السابقة في المكان وفي النهاية دلف ممدوح باب الشقة بتوتر متوقعًا كارثة ما.. هذا ماحدث من قبل وهذا ما سوف يحدث الآن.. إن الكوارث في هذا البيت لا تتوقف أبدًا..

وتحرك عماد نحو حجرة أخته وقاد الدكتور محمد إليها قائلًا:

من هنا يا دكتور.

تبعه الدكتور محمد بمفرده. مازالت كما هي في سباتها أو غيبوتها العميقة لا تتحرك بالرغم من عيونها المفتوحة على اتساعهما مُحَقِّقَةً في الفراغ.. اقترب منها الدكتور محمد وأمسك كفها ليتفقد نبضها ثم أخرج كشافًا صغيرًا من جيبه تفحص به مقلتها قبل أن يغمغم :

«مازالت في البداية..أعتقد أن الإستحواذ لم يكتمل بعد..هذا يعنى أن نسرع فما زال هناك أمل.

رفع بعدها حقيبته من الأرض وفتحها وأخرج مُحَقِّقًا به سائل شفاف ودفعه في أوردتها..نظر إليه عماد متساءلًا فأجابها:

«لا تقلق..إنه مهدي..لا أرغب في أن أراها بيننا فجأة لتثير المزيد من القوضى ونحن نفحص المكان.

عنادها وأد هذا الصوت المُخْذِر، وتقدمت للحجرة غير عابئة بوساوسها. دلفت الحجرة المضاءة بالضوء الشيطاني الذي ذاب ضوء محمولها فيه. كانت عيناها تبحث في المكان عن مصدر الضوء المجهول حين فُوجئت بباب الحجرة يُغْلَق من خلفها..

هنا كانت نهاية عنادها ورباطة جأشها وبداية هلعها. اندفعت نحو الباب محاولة فتحه لكنه أبى أن يستجيب لها. راحت تدقه بعنف وهي تصرخ مستنجدة وقد تضاعف هلعها حدًا الموت. ومن الفراغ انبعثت الهمسات. وأمام بصرها الزائغ برزت الظلال من الجدران. ظلال مخيفة مُقْبِضَةٌ أثارَت هلعها لأقصى حد. فراحت تصرخ وقد عجزت قدمها عن حملها فهوت أرضًا.

وتجسدت الظلال أمام عينيها البندقيتين الحلوتين. وكان أكثر ما يفزعها عيونهم الحمراء الصغيرة. كانوا شياطين بلا شك. وتقدموا نحوها من خلفهم برزت أم عماد وهي ترمقها بعيون جامدة. مازالت تذكرها ومازالت تذكر كيف تبدوا..

لكن لماذا تتوهج عيناها هكذا وما هذا الشيء المشتعل الذي تحمله في كفها..وصرخت في عنف وفزع صرختها الأخيرة حين رأت سوطًا نارًا من الجحيم تحمله يشق الفراغ ويهوى عليها. كانت هذه هي صرختها الأخيرة وكان السوط المشتعل هو آخر ما انطبع على شبكية عينيها البندقيتين اللتين طالما حَيَّرَت الشباب وأَجَّجَت أشواقهم.

وحين هوى رأسها أرضًا وتدرج بعيدًا عن جسدها الذي راح ينتفض بعنف، ظلَّ السوطُ مرسومًا على مقلتها لزمَنٍ طويل. كان يكفي أن ترى عيناها حينها لترى السوط رابضًا فيها.

لكن أحدًا لم يكن هناك ليفعل.

هز عماد رأسه بتفهم وقال وهو يتحرك خلفه خارج الحجرة :
والآن ماذا سوف نفعل؟..

-كما اتفقنا..سنفحص المكان جيدًا..سنفتش كل جزء في الشقة وأثاثها..
سننتزع خَشِيَّة الأرائك والأسرة..سنفقد الجدران..علينا أن نتأكد أنه لا
شيء في المكان مخبأ، ربما قادنا هذا لشيء ما.

وغمغم ممدوح وهو يتلفت في المكان المزعم تدميره وقال :
-وأيّن تقرر أن نبدأ يا دكتور ؟.

-حجرة أم عماد بالطبع. لقد بدأ كل هذا بها منذ البداية.

وتحركوا نحو الحجرة ودلفوها. وأضاء عماد مصابيحها الكهربائية قبل أن
يتوقف ثلاثتهم في منتصفها. كان الفراش أمامهم وعلى يمينهم خزانة
خشبية قديمة لها أربعة أبواب ترتفع عن الأرض قليلًا، وقد زُيِّنَتْها نَقُوشٌ
وزخارف فقدت الكثير من أجزائها، وعلى يسارهم كانت هناك أريكة
للجلوس..

وقال الدكتور محمد لهم :

-ابحث أنت يا ممدوح في هذه الأريكة..اقلها وابحث في خشبها وأخرج
حشوها لو احتجت. تأكد أنها لا تحوى أيّ شيء. وتول أنت يا عماد أمر
الفراش وسأهتم أنا بالخزانة..

اتجه إلى الخزانة. والتي كان سطحها مُغطًى بأكمله بالغبار الكثيف، وحين
فتحها لاحظ خيوط العنكبوت المنتشرة بين الملابس المَكُونَة بلا ترتيب
بداخلها..بدا جليًا أنها ظلت مغلقة هكذا لأعوامٍ طَوَالِ دون أن يقرّبها
أحد. بدأ في إخراج الملابس منها وراح يلقيها، في أحد الأركان الفارغة.

سيتفقدونها لاحقًا ربما احتوت على ما يربب. أخرج كل شيء بالخزانة وراح
يتأمل الأرفف الخشبية الفارغة. كان الخشب قديمًا تاكلت بعض حوافه
وإن ظلَّ محتفظًا بقوته..ويظهر يده راح يطرّقه طرقاتٍ خفيفة بحثًا عن
فجوة ما قد تكون أسفله أو خزانة ما خفية..

لكن الخشب كان مصممًا تمامًا..فابتعد عنه وجلب كرسي خشبي موجود
بجوار الأريكة وضعه بجوار الخزانة ثم صعد فوقه لتفتيش سطحها. كان
هناك الكثير من الغبار والأتربة وبعض الملابس القديمة وكتابين قديمين.
أمسكهما ومسح غلافهما المغبر وقرأ عناوينهما. الأول كان رواية قديمة
لنقيب محفوظ بعنوان السُكْرَة والكتاب الآخر كان غريبًا. كان كتاب
سحر يعرفه جيدًا. تأمل غلافه الجلد السميك وقرأ عنوانه "مرشد
الإنسان إلى رؤية الجان".

الكتاب قديم وطبعته الوحيدة قديمة تعود لعشرينيات القرن الماضي..
قرأه من قبل بالطبع ويعلم أنه ليس بالكتاب المفيد كثيرًا، لكن لماذا اقتناه
والدى عماد ومن فعل فيها؟..ولماذا قد يرغبون في رؤية الجان..أمسك
الكتاب بكفّه الأيسر وبالأيمن راح يطرّقه سطح الخزانة بحثًا عن شيء
بداخلها..كان سطحها رقيقًا وبدا أنه لا يحوى شيئًا ما.

أما ممدوح فلم يجد أيّ شيء بالأريكة وأخرج من جيبه مطواة صغيرة
يحملها للدفاع عن نفسه لو هاجمه أحد. وقام بشق باطن حشية الأريكة
وراح يبعثر القطن الخارج منها. وكانت الأريكة برينة تمامًا مما نسب لها من
شكوك فتوقف عن عمله، وهو ينظر إليها وعلى شفّيته ابتسامة رضا عن
النفس..لقد أنهى عمله..

بينما انهك عماد في تفتيش الفراش النحاسي العتيق. رفع مرتبته
القطنية وفحص أسفلها. كان هناك الكثير من الأوراق المَغْلَقَة بأكياس

بلاستيكية على أرفف السرير الخشبية. فَضُّ الكيس الأول. لم يكن يحوى غير بعض فواتير الكهرباء والمياه. ابتسم بمرارة وهو يُعيدُ تلك الأوراق لمكانها وقد تذكر كيف كانت أمه حريصة على الإحتفاظ بتلك الفواتير. فتح كيساً وردياً آخرًا.. وجد به بعض الوثائق والعقود. عقد إيجار البيت وعقد زواج أخته وفي نهايته وجد عقد زواج أمه بأبيه. أعاد تلك الأوراق الأخرى كسابقتها ثم جذب الكيس الأخير وأخرج الأوراق التى به. فى البداية كانت شهادة وفاة أبيه. لم يرها من قبل. طالعها فعلم أن أباه كان فى الثانية والثلاثين من عمره حين مات. رأى سبب الوفاة فشعر بالذهول. كان سبب الوفاة: الإنتحار شنقاً!..

والده مات منتحراً!... لم يعلم هذا من قبل أبداً..

لماذا انتحر أباه ولماذا أخفت أمه هذا عنه ؟. وبإعياؤ ألقى الأوراق وهتف فى الدكتور محمد بصوتٍ قريب من البكاء

-دكتور محمد هل يمكنك أن ترى هذا ؟..

(7)

والتقط الدكتور محمد الأوراق التى ناولها إياه عماد.. طالعها بسرعة. وأدرك لماذا امتنع وجه عماد هكذا..

كانت باسم "سالم محمد سليم" وكان مدوناً بها أن سبب الوفاة الإنتحار شنقاً.. ومما يراه مرتسماً من ذهول ودهشة واستنكار على وجه عماد أدرك أنه لم يكن يعلم شيئاً كهذا. إنها مفاجأة حزينة قاسية. وقُلِبَ الأوراق.. الورقة التى تلتها كانت شهادة وفاة هى الأخرى. الإسم كان محمد سليم عبدالنواب. وكان قد مات فى عام 1957. ولدهشته لاحظ أنه قد

مات فى الثانية والثلاثين من عمره هو الآخر. وحين انتقلت عيناه للخانة المدون فيها سبب الوفاة تضاعفت دهشته. كان قد مات بالحرق انتحاراً. ودون أن يُعقَّب انتقل إلى الورقة التالية. شهادة وفاة أخرى. أكثر قِدْماً واصفراراً. كانت باسم سليم عبدالنواب المنيأوى. لكن المخيف فيها إن المتوفى كان هو الآخر مات فى الثانية والثلاثين من عمره بالإنتحار غرقاً.

انتهت شهادات الوفاة. إذاً فوالد عماد وجد والده ماتوا جميعاً مُنتحِرِينَ. كما ماتوا جميعاً فى الثانية والثلاثين من عمرهم. من المستحيل أن يكون كل هذا مصادفة

إنها لعنه بلا شك.. وتحول بصره إلى عماد. مازال واجماً فى ذهوله.. فقال بوهن وهو يُحرِّكُ أصابعه وقد عادت تؤلمه:

-إذا فلم تكن تعلم !

-أخبرتني أمى مراً أنه مات فى حادثة سير.. الغرب أنى لم أسأل نفسى يوماً لماذا ترفض إعطائى شهادة وفاة والدى. ولم أهتم بالأمر حينها.

مَدَّ الدكتور محمد يده الممسكة بالأوراق نحو عماد وأكمل :

-وحتماً لم تكن تعلم أن أجدادك قد ماتوا بطريقة مماثلة فى نفس عمر أبيك.. لقد ماتوا جميعاً فى الثانية والثلاثين من عمرهم.

قرأ عماد شهادات الوفاة الثلاث بسرعة ثم رفع رأسه عن وجه أكثر امتقاعاً وقال غير مصدق لما قراه:

-هذا مستحيل.. كلهم ماتوا انتحاراً.. ما الذى يحدث بالضبط.

-كم عمرك يا عماد الآن؟..

-ساكمل الثانية والثلاثين بعد أسبوع من الآن.

- هذا يعنى أنه لم يعد أمامنا الكثير من الوقت...علينا أن نتحرك بسرعة.

-ماذا تقول يا دكتور ؟..لست أفهمك

-ما الذى لاتفهمه يا عماد..إنها لعنة تسرى في عائلتك يا رجل..لعنة سوداء رهيبة تجرى في دمانك ودماء أجدادك وقد دفعتهم للانتحار في الثانية والثلاثين من عمرهم..أنت التالى يا رجل بعد أسبوع من الآن.. لقد حان دورك..هل فهمت.

ارتجف عماد وتجمد في مكانه برعبٍ وذهول..بينما رمقه ممدوح في خوف لكن الدكتور محمد هتف بهم لينتزعهم من جمودهم:

-بالله عليكم كُفًّا عن هذا الفزع ودعونا نواصل عملنا..هل وجدتم شيئاً آخر؟

أجاب ممدوح وعماد بالنفي فتأمل الفرائش وقال

-وماذا عن قوائم الفرائش المعدنية هل فتشتمها؟

-كلا..ما الذى يمكنه أن يكون بداخلها ؟..

-الكثير يا رجل..إنها مُجوَّفةٌ من الداخل والكثيرون فيما مضى كانوا يخبنون أغراضهم الثمينة بها..هيا انزعها لنرى ما بها.

تعاون عماد وممدوح على خلع القوائم النحاسية..ووجدوا بداخل القائمة الثانى لُفافة صفراء مطوية بعناية، ومِفْطَاحاً نحاسياً ضخمًا به نقوش عجيبة..التقط الدكتور محمد تلك الأشياء وتفحص المفتاح ثم ناوله لعماد وأخبره أن يحتفظ به في جيبه، ثم تفحص الورقة التى لُوْثَتْ بالدم وفتحها بحرص قبل أن يُخْرِجَ دبوساً مطوياً بداخلها وطلّاع ما بها من خطوط وظلالسم وقد أدرك كُنْهَ ما حدث الآن..فتهاك على الكرسي الخشبي

وقد شعر بالإعياء بغتة فراح يلهث. هدا صدره بعدها فقال مُوجِّهًا كلامه لهما وهو يُلَوِّحُ أمام بصرهما بالورقة الصفراء والضرير البشري :

- إنها تلك التعويذة اللعينة منذ البداية..لقد فهمت لماذا أصابت اللعنة أمك في البداية.

وتبادل ممدوح وعماد النظرات الحيرى ولم يُعَقِّبَا وأكمل الدكتور حديثه:

-في الغالب كانت هناك اللعنة التى أصابت أجدادك..كانوا يموتون انتحارًا حين يبلغون الثانية والثلاثين من عمرهم. حتمًا أدرك أحدهم ما يواجهه، وراح يبحث عن حلٍ يحميه ويحمى أسرته..لكنه كما يلوح لى أدرك صعوبة تغيير مصيره فعَمِلَ على البحث غمًا يحى به أسرته وأبنائه من شر تلك اللعنة. ويبدو أنه صادف حينها ساحرًا حقيقياً من حسن حظه فصنع له هذه التعويذة. إنها تعويذة حماية تُبْعِدُ الشياطين والمردة عن الأسرة وتحميهم. تعويذة قوية لا يُبْطِلُهَا إلا الدم..

وأغمض عينيه وهو يرى بعين الخيال ما جرى، وغمغم:

-أستطيع الآن أن أتخيل ما حدث..لقد عثرت أمك على هذه التعويذة بطريقة ما. ورقة مطوية غريبة ومُرْنِيَّة داخل القاتم. تُمَسِّكُهَا لفتحتها ولا تعلم شيئاً عن الدبوس المطوى بداخلها. إنه قواعد لعبة السحر. الحياة والموت معًا. الخير والشر في ورقة واحدة. التعويذة قوية تصلح للحماية وبداخلها ما يفسدها. هنا يثقب الدبوس أنامل والدتك. يُذَمِّمُهَا ويسيل منها الدم فتتشربه التعويذة بهم لِيُنْطَلِ تأثيرها. وتنطلق شياطين الجحيم التى حجبتهم التعويذة عنكم للإنتقام فلا تجد غير أمك فتتلبسها. كان من المفترض ألا يحدث هذا لولا أنها قد عثرت على التعويذة وحاولت فتحها،إنه قدرها. قدرها وقدرك يا عماد.

بدأت الدموع في الإنهمار من مقلتي عماد وقد تذكر أمه وعقله يتخيل ما حدث.. هل عانت أمه طويلاً من جراء لعنة لا شأن لها بها.. لقد فقدت حياتها جراء ذنب لم ترتكبه أو حتى تعلم وجوده، كم هي مخيفة تلك اللعنة التي ذهبت بأبائه وأجداده وأمه وفي طريقها للفتك به وأخته.. أتى لعنة سوداء هذه وأتى شريستر خلفها ومن من أجداده قد أتى بها؟..

هنا كانت أخته على باب الحجرة تنظر إليهم، وهي تبسم ابتسامة شيطانية، وقد عقدت ذراعها على صدرها. التفتوا إليها بقلق، وغمغم ممدوح برعب ومثانته تتقلص أسفل بطنه توتراً:

لقد استيقظت.. ألم تحقنوها بمنوم

لا شيء يوقفنا أيها الأحق.. ألم تخبرهم بهذا يا دكتور محمد؟..

لا حاجة بي كي أخبرهم.. فها أنت هنا لتخبرنا بنفسك عن قدراتك.

- هذه المرة نحن سعداء بلقاءك.. وهل يمكننا ألا نفعل ونحن نراك تتحلل أمامنا هكذا، أنت تعاني وتحاول التماسك يا رجل، لكن شياطين الجحيم كلها ترقص ابتهاجاً لالامك هذه. صدقي لن يتخلف أحدنا عن لحظة مماتك يا دكتو.. سترانا حتماً وسترى كيف سنحتفل بك.

ابتسم الدكتور محمد بلا مبالاة، وقال ببساطة:

- من يدري، ربما شهدت أنا نهايتك قبلها، فحتى أموت لن أتوقف عن تعبكهم وإهلاككم.

أطلقت الشياطين من فم ابتسام ضحكة ساخرة صاخبة ارتجفت لها الجدران قبل أن تقول بسخرية:

- لن تعيش طويلاً لتفهم من أنا. ولو أدركت من نحن لعلمت أنه لا قبيل لك بنا. أعلم أنك قد رسمت على كتفي عماد وذلك البدين تعويذة وطمسما لتحميم من شروري. لكن تأثيرها لن يدوم للأبد.

وتصلبت ملامحها وتَحَجَّرَت عيناها وخرجت منها جملة واحدة :

- أخبره أن يحرق السيد أو يهلك كأبائه !

- ومن هو السيد وكيف نحرقه

- عليه أن يعثر على الإجابات بنفسه.. عليه أن يعلم سر أجداده.. عليه أن يعثر على كتاب الدم..

وتأملها الجميع في دهشة.. كتاب الدم؟؟!!

لم يسمع أنهم بشيء من هذا من قبل.. حتى الدكتور محمد لا يعرفه.. وألقى الدكتور محمد عليها تساؤله:

- كتاب الدم.. أتى كتاب هذا؟

تجاهلت سؤاله وقالت لعماد بصوتها الغليظ الجديد:

- هناك مفاجأة تنتظرك بحجرتك يا عماد؟!.. اذهب لترأها.

وتبادل الجميع النظرات وبدأ القلق على وجه الدكتور محمد وقد توقع الكارثة المقبلين عليها حتى أنه ردد في أعماقه:

- ربنا يستر !!

اندفعوا نحو حجرة عماد. وكان أول ما صادفهم رائحة الدماء المعدنية المرعبة.. وحين أضاء عماد ضوءها، رأوا جميعاً أبشع كوابيسهم حتى أن ممدوح لم يتمالك نفسه فسقط مغشياً عليه..

فعلى الجدار وفي مواجهة الباب كان رأس سوسن المقطوع ملتصقا به وعلى وجهها حفرت أبشع آيات الفزع والألم. وعلى الجدار الآخر التصق جسدها عاريا تماما وقد امتلأ عن آخره بطلاسم شيطانية خُفِرت فيه بالنار، وحول جسدها رُسِمت الدماء الرمز المخيف. ثعبان يصنع دائرة بجسده ورأسه منتصب وفي المنتصف جمجمة نارية بقرنين على جانبي الرأس..

ومن خلف الجميع قال الشيطان على لسان ابتسام:

-أتمنى أن تروككم هديتي هذه

(8)

كان عليهم أن يتحركوا بسرعة. لو اكتشفت جريمة القتل هذه، فسينتهى كل شيء.. سوف يُقبِض على عماد مرة أخرى، ومهما قُدُّوا حينها من أدلة تنفي تورطه في الجريمة، فلن يصدق أحد.. إنها الجريمة الثانية التي تتم في بيته بل وفي حجرته هذه المرة.. حقنوا ابتسام جرعة أخرى من المُخَبِّر فهدمت حركتها وراحت في سَيَّاتٍ عميق حملها ممدوح وهبط إلى الشارع حيث أرقدها في المقعد الخلفى لسيارة الدكتور محمد شاهين السوداء. بينما كان على عماد مهمة ثقيلة للغاية، عليه أن يأتي بالطفل من عند أم محسن. لا يدرى كيف ستلتاق العيان وهو يعلم أن جثة ابنتها التي كانت تملأ العالم صغياً وحياة قبل ساعات ترقد الآن داخل حجرته وقد انفصل رأسها عن جسدها في مِثْقَةِ بشعة.. لكنه لم يكن ليترك الطفل خلفه أبداً وهو لا يدرى ما هو مُقَدِّمٌ عليه.. وطرق الباب فخرجت إليه يسبقها عماد الصغير الذى ما أن رآه حتى أسرع نحوه ليجتضن ساقه في سعادة

رفعه عماد نحوه وقَبْلَهُ ودعته أم محسن للدخول، لكنه اعتذر بلطف وهو ييم بالانصراف كي لا يطول حديثه معها وهو بالكاد يُمنيكُ نفسه.. لكنها سألته السؤال الذى تمنى ألا يسمعه منها:

-هل رأيت سوسن اليوم يا عماد.. لقد عدت ولم أجدها.. هل قابلتك اليوم.

أجابها باقتضاب وهو يتحاشى عينها:

-ربما ذهبت للقاء إحدى صديقاتها.

ثم هروا مبتعدا بصورة أدهشتها. لكنها تناسلت على الفور أمره وهى تفكر في ابنتها التى لا تعلم أين ذهبت وهى تتوعدها فى أعماقها بالعقاب هذه المرة.

وفي السيارة قال الدكتور محمد لهم:

-سنبيت الليل في عيادتي.. إنها في مصر الجديدة. وفي الصباح سنتجه للبحث عن قرية "قسط اللين" ربما وجدنا الإجابات هناك..

وفي الصباح عاد الدكتور محمد ليحقق ابتسام بحقنه أخرى مهدئة. قبل أن يتجهوا نحو محافظة القليوبية في رحلة بحثهم عن القرية المطلوبة.. تَطَلَّب الأمر بعض الإتصالات ليعلم الدكتور محمد مكان القرية تقريبا وراح يرشد ممدوح الذى يقود السيارة إلى مكان القرية..

وفي الطريق إلى القريه صمت الجميع ولم يُكفَّ عقل عماد عن التفكير في حاله. يدرك أن أمره هذه المرة قد انتهى. إنه لم يقتل أمه في المرة الأولى. ومع هذا قضى سبع سنوات من عمره حبيس مستشفى الأمراض العقلية، هذه المرة لن يكون هناك مصحة عقلية. ولن يصدق أحد أبداً لو ظل يصرخ طوال الوقت أنه لم يقتل سوسن. من سيصدق له لو اتهم الجان أو الشياطين بارتكاب الجريمة. لقد انتهى أمره بالفعل. بل سينتهى الأمر قبل

هذا بكثير. فلو كانت اللعنة صحيحة كما قال الدكتور محمد فسوف يقضى نحبه بعد أيام..

سوف ينتحر!!! لا يدري أئى قوة تلك التى ستدفعه لقتل نفسه ليموت كافرًا. لكن أباه وأجداده قد فعلوها من قبل، فما الذى يمنع أن يفعل؟..

فكّر في نوع الإنتحار الذى قد يقوم به.. لقد مات جده الأكبر غرقًا والثانى حرقًا وأبوه شنقًا.. كل مرة تتغير الطريقة، فما الذى يخبئه هؤلاء الشياطين له؟..

وارتجف جسده وهو يتخيل أن يقوم بذبح نفسه.. أبشع ميتة تخيلها طوال عمره.. لا مهرب أمامه إلا أن يُثبّت اللعنة التى لا يعرفها ولا يدري سببها ولا من بدأها؟.. هل ينجح في هذا؟.. وهل يصل للحل في الوقت المناسب؟. كان يشك بقوة. فحتى لو أفلح الأمر وزالت اللعنة، فلن يُجِدَى الأمر.. ستقبض عليه الشرطة ولو بعد حين وسيساق هذه المرة لحبل المشنقة.

لقد فقد طوق نجاته للأبد. لكن ماذا عن أخته وابنها، عليه ألا يستسلم لمصيره المظلم هذا. وعليه أن يبحث عن أمل ما لهما. ووجد نفسه بدھشة يُفكّر في فعل أشياء لا يتخيلها. لقد انتهى أمره والإعدام مصيره هذه المرة بلا شك. فلماذا لا يساعد من أحبهم؟.. لماذا لا يتخلص من ابن زوج ابتسام الذى سرق مالها ومال ابنا وحرصهم من ميراثهم. لماذا لا يقتل محمد عصام زوج منى حبيبته ليهيا حريتها. لماذا لا يقتل ذلك المسمى "حكيم"، الممرض السادى الذى تسبب في إزالته مع المرضى وقتل عم مدبولي.

إنه رجل ميت!. فلماذا لا يتصرف كرجل ميت؟! ماذا يخشاه كي لا يفعل؟ ووصلوا القرية. كان أذان الظهر يرتفع في تلك اللحظة. طالبهم الدكتور محمد بالبقاء في السيارة ذات الزجاج النفاية الأسود والذى يحجهم عن الخارج وخرج منها ليسأل أهل القرية. أوقف رجلًا يرتدى جلبابًا. وسأله

مباشرة عن عائنة المنياوى. رفع الرجل رأسه نحو السماء وفكر للحظة قبل أن يخبره أنه لا توجد عائلة في القرية بأكملها باسم المنياوى..

تركه ليحرب حظه مع آخر اختاره عجوزًا هذه المرة. سأله عن عائلة المنياوى فرفع الرجل رأسه بتوتر، وردد بدھشة وحذر:

-عائلة المنياوى. لم يعد بالبلدة أحد منهم منذ زمن بعيد. لماذا تسأل عنهم الآن؟

-أجمع بعض المعلومات عنهم، وقد علمت أنهم قد سكنوا البلدة من قبل؟. وسعل العجوز وهو يعتدل في وقفته، ثم قال بشئ من الضيق:

-لن تجد الكثير ها هنا ممن يتذكّهم.. لقد غادروا البلدة منذ زمن بعيد.. أنا نفسى لم أشهدهم، لكننى سمعت عنهم.. لم يبق منهم بالقرية إلا بيت كبير مهجور لم يعد أحد يقربه، يقولون أنه مسكون بالعفاريت.. كلام يقال منذ دهور، ولا يدري أحد إن كان صحيحًا أم أنها إشاعات.

وبرقت عينا الدكتور محمد وهو يشعر أنه قد اقترب. إذن فقد كان هناك عائلة بالقرية تدعى المنياوى ومازال لهم بيت مهجور تحوم حوله الخرافات.. أليكون هذا البيت هو البداية؟. دارت هذه الأفكار في رأسه بسرعة، قبل أن يسأل العجوز بحماس:

-وما الذى تعرفه يا حاج عن عائلة المنياوى.

-لم أعد أتذكر!. ولا أريد أن أتذكر.

قالها الشيخ بحدّة، وهو يشيح بكفه في الهواء، قبل أن يهم بالحركة مبتعدًا.. كان رد فعله هذا مفاجئة للدكتور محمد، لكنه تمالك نفسه وأسرع يسأله وهو يتحرك بجواره :

-إذن من يمكنه أن يَدُلَّنَا ويخبرنا بعض الأشياء عن تلك العائلة؟. أعترض
للإلحاح، لكن الأمر هامّ وخطير.

-وما أدراي؟..لقد غادروا القرية منذ عهود بعيدة.. لقد كانوا ملعونين، لو
كنت مُصِرًّا فاذهب إلى العمدة. سوف يخبرك بكل شيء.

عاد الدكتور محمد بحماس للسيارة وما أن دخلها حتى قال لهم باسمًا:
-يبدو أننا نقرب. لقد كانت هنا عائلة تدعى المنياوى رحلت منذ قرن عن
المكان وقد دارت حولهم الإشاعات. سوف نذهب الآن للعمدة القرية، ربما
أخبرنا بالمزيد.

(9)

بعد دقائق بلغوا دوار العمدة. توقفت السيارة أمامه في باحة واسعة،
فترجلوا منها بعد أن قرروا ترك ابتسام فيها وعدم اصطحابها معهم، كي لا
تُثيرُ الشكوك حولهم.

كان الدوار عتيقًا قديمًا بأعمدته الدائرية المرتفعة المطلية بلون أبيض
أذهب الزمن بريقه والحوائط التي زال عن أغلب سطوحها طلائها، كان
هناك من يجلس في باحة البيت الأمامية. كان رجلًا في العقد السادس من
عمره يرتدى جلبابًا بلديًا وقد غزا الصلع رأسه فلم يترك فيه إلا بعض
الشعيرات على جانبيه. ونهض الرجل حين رأيهم وما أن اقتربوا منه حتى
صاح بهم مُرحَّبًا:

-أهلاً وسهلاً بكم. أنا الحاج محمود عبدربه عمدة القرية. أهلاً بكم في منزل
المتواضع.

حيَّاهُ الدكتور محمد وقَدَّم له الجميع ثم قال:

-أعدك ألا نُعْطِلَكَ كثيرًا. إنها بضع أسئلة فقط حول شأنٍ ما، ثم نرحل
على الفور.

-مرحبًا بكم.

جلسوا قبل أن يلحق بهم من خارج البيت شابًا في مقتبل عمره وسيم
المُخَيَّا، يبدو على وجهه الود والطيبة، يصحبه شيخ عجوز.. وقدمهما
العمدة لهم قائلًا:

-المهندس شريف..زوج ابنتي..والحاج غنيم..شيخ البلدة.

تبادلوا التحيات، وتكلم الدكتور محمد شاهين:

-إننا هنا لنسأل عن عائلة غادرت البلدة منذ عهدٍ بعيد..لكننا نأمل أنكم
مازلتم تذكرونها

ضَبَّقَ الحاج محمود عينيه وقال:

أئى عائلة تقصد يا دكتور.

-إنها عائلة المنياوى.

بدا التوتر فجأة على وجه العمدة وشيخ البلد وهما يتبادلان النظرات
المترقبة. بينما انتبه شريف لهم وقد شاب وجهه هو الآخر بعض الإنفعال،
وقال الحاج غنيم:

-ولماذا تسألون عنهم؟..لقد تركوا البلد منذ عهدٍ بعيد وقد نسهم الجميع.

-حتماً هناك سبب قوى يا حاج غنيم لسؤالنا..ألا تعتقد هذا؟

أجابه الدكتور محمد مهتسماً..فقال الحاج محمود له:

-بالطبع يا دكتور..بالطبع..لا تؤاخذنا على دهشتنا من السؤال..فما تسألنا عنه شيء لا أحد يذكره الآن أو يُجِبُّ حتى تذكره. لقد كانت عائلة المنياوى إحدى عائلات القرية بالفعل. لم تكن كبيرة لأنها ليست من أهالي القرية في الأساس بل نزح المنياوى الكبير للقرية تاركاً الصعيد قبلها بعقود، وحين مات ترك سبعة أبناء كوّنوا عائلة المنياوى بالقرية..

كان عماد يُصْنَعُ لكل حرف باهتمام وهو ينتظر أن يعرف كُلُّ شَيْءٍ عن تاريخ عائلته التى جهلها طوال عمره..بينما غمغم الدكتور محمد بحذر:

-وحنثاً غادروا القرية لأمرٍ خطيرٍ قد حدث.

مرة أخرى تبادل الحاج محمود والحاج مدبولى النظرات التى تحمل الكثير وأجاب شريف هذه المرة باسمًا وعيناه من حينٍ لآخر تتفحص عماداً جليئاً:

-هذا صحيح يا دكتور..لقد كانت هذه رغبة القرية أجمعها حينها..فما جرى من أهوالٍ فى القرية سببها أحد أفراد تلك العائلة أصاب الجميع فى القرية فى ذلك الوقت بالفرع والعجنون. وكان أقل تلك الأفعال جنوناً هو إجبار أفراد العائلة على ترك القرية..ما يقال أن الكثيرون كادوا أن يفتكوا بكل فرد فى تلك العائلة ويقتلونها شر قتلة، لكن بعض الحكماء حالوا دون حدوث هذا فى الوقت المناسب. واكتفوا بإخراجهم من القرية

خَيَّم الصمت بعدها للحظة، قبل أن يسأله عماد بتوتر:

-معذرة يا أستاذ شريف. ولكن كيف عرفت هذا وقد مضى على الأمر قرنٌ كامل كما أخبرتمونا.

احتفظ شريف بابتسامته الودودة وقال وهو يرمقه بنظرة نافذة:

-إنى أعيش فى هذه القرية وأعلم عنها الكثير بالطبع. لا أعتقد أن معرفتى بالأمر تستحق الكثير من الدهشة.

هنا تدخل الدكتور محمد فى الحديث قائلاً:

-هذا صحيح يا بنى..لكن ما تلك الأحداث التى حدثت بالقرية والتى أدت لطرد العائلة من القرية؟..

وقال الحاج محمود:

-أعتقد أننى خير من يُقْصُ عليكم ما حدث. لقد كان جدى الأكبر عمدة القرية حينها وأشرف حينها على التحقيق فى الأمر. وأخبر أبناءه وأحفاده بتفاصيل ما جرى، وقد علمت القصة من جدى. لذا دعونى أخبركم بما أعرفه.

(10)

كان ذهول عبدالتواب فى القطار لا حد له، وهو لا يدرى هل مازال فى منامه يحلم، أم أن من يجلس بجواره هو بغيبته حقاً.. أياكون ذلك الشاب العصرى الذى يجلس بجواره الآن هو الشيخ الأسود حقاً؟..

رمى هيئته وملابسه الإفرنجية التى لا تنتمى أبداً لعالم الشيوخ، ونظر بحيرة إلى بشرته البيضاء التى لا يشوبها السواد. أياكون الشيخ الأسود ليس شيخاً ولا أسوداً؟!

تركه الشيخ الأسود قليلاً لتأملاته ودهشته وهو يراقب حيرة عبدالتواب ونفسه ممزقة بين رغبة فى التصديق، وخوفه من خداع قد يقع فريسة

له، وما زال الشيخ عبدالله المنياوى يلاحقه حتمًا، ولن يعدم وسيلة يخدعه بها ليصل إليه.

وبعد حين يتحدث الشيخ الأسود ويقول هادئًا:

-لست من أتباع الشيخ عبدالله المنياوى، لن نلتقى أنا وهو أبدًا. إننا ضدان فاطمن.

قل له عبدالتواب متشككًا:

-أراك صغيرًا، ولا تبدو كالشيخوخ.

-إنه لقب لا أكثر. كما أننى لست صغيرًا كما تعتقد. يمكننى أن أبدو فى عمر جدك لو شئت. ويمكننى أن أصير طفلًا يحبو.

- أنت أيضًا لست أسودًا.

-وهل أخبرك أحد ما أن الشيخ الأسود زنجيٌ مثلًا؟.. إن لوني لم يكن أبدًا أسودًا فى يوم من الأيام..لكن ما أقوم به، يكون أحيانًا أكثر سوادًا من الظلام نفسه.

لم تكن تلك هى الإجابات التى ينتظرها، ظل قلبه يضطرب. تأكد أن الكتاب مازال مخفيًا بين طيات ملابسه.. وقال بعدها بلوم:

-وأين كنت كل هذا؟.. لقد بحثت عنك شهرًا طويلاً فلماذا لم أجدك؟. إن كل بقعة فى ثرى هذا البلد شاهد على بحثى الذى لم ينقطع عنك.

-أنا من كان عليه أن يجدك، لا أنت.

-ولماذا لم تفعل؟.. ولماذا تركتني أبحث طوال الوقت ما دام عليك أن تعثر على؟.

-كان عليك أن تبحث..كان عليك أن ترى مثابرتك، وتؤكد لنا إصرارك على الأمر..كان عليك أن تثبت أنك تستحق الجائزة الكبرى.

نظر عبدالتواب من نافذة القطار إلى الموجودات التى تنسحب بسرعة البرق بجوار القطار..مازال لا يصدق ولا يدرى ماذا بعد. ويقول له الشيخ الأسود دون أن يتبسم:

-أغمض عينيك.

يرمقه بنهشة لطلبه العجيب، ويضع كفه على الكتاب المتوارى فى طيات ملابسة ويقبض عليه، وأمام النظرة الصارمة يغمض عينيه.

شعر بالسكون الذى يحيط به..تلاشت هزات القطار واختفت أصوات احتكاك عجلاته بالقضبان، وصمتت الضوضاء. كل هذا تبدد فجأة ففتح عينيه. وبذهول نظر إلى المكان الذى انتقل إليه فى لحظة واحدة. كان فى حجرة بسيطة بها فراش وحيد صغير، ووسائد وبسط تنتشر على الأرض وفى منتصف الحجرة كانت هناك بلورة ضخمة وموقد يرتفع منه البخور والدخان..ومن خلف الموقد المشتعل رأى الشيخ الأسود وقد تبدل شكله. لم يعد شابًا كما كان بالقطار، بل صار عجوزًا بلحية بيضاء ناصعة من غير سوء. كان يرتدى جلبابًا رمادى واسع الأكمام لكن عينيه النافذتين ظلنَّ كما هما. وشعر عبدالتواب بالرعب وتلفت حوله وهو يفكر هل تم اختطافه. وخاطبه الشيخ الأسود ولم يدعه لأفكاره:

-دع خوفك يا عبدالتواب واجلس. أنا بالفعل الشيخ الأسود ولست أخدعك. لقد بحثت عنَّا طويلاً وبذلت فى طلبنا الجهد، فاستحققت أن نجدك لنننى ضلالك.

جلس عبدالتواب. وتساعد البخور كثيفًا وعاد الشيخ الأسود لحديثه وهو يمد يده نحوه:

-أعطى الكتاب.

أخرج عبدالتواب الكتاب من طيات ملابسه بتردد قبل أن يسلمه إياه. وبهدٍ مُثْلَفَةٍ قبض الشيخ على الكتاب. يرمقه بعيونٍ جاحظة، وأنفاسٍ متلاحقة، كعشيقي وجد معشوقته بعد فراقٍ طويل. ثم راح ينشد ترانيم غامضة وقد برزت على الجدران من حوله عشرات الظلال، كشياطينٍ أنت لتشهد ما يدور..ومضى زمنٌ ثَقِيلٌ طويل، لم يجسر فيه عبدالتواب على التفوه. وهو يراقب. ثم رفع الشيخ الأسود الكتاب وابتسم وهو يقول:

-مازلت لا تدرى ماذا تملك. ماذا تظن هذا الكتاب يا عبد التواب ؟.

-إنه كتاب سحر وتعاويذ وطلاسم.

-مخطيء أنت كالآخرين يا عبد التواب..كتب الدم لم تكن أبداً كتب سحر وشعوذة..إنها حتى لا تحوى إلا تعويذة واحدة، إنها تلك التي جَرَّبْتَهَا..لايد أن تكون قد قمت بها وإلا ما كنت لتصل إلى، هل قَدَّمْتُ قرياناً بشرياً للكتاب؟

-قدمت قريائين، أفلح أولهما ولم أحظى من الثاني بشيء.

ابتسم الشيخ الأسود قبل أن يقول وهو يُطْعِمُ وحش النار الراقدة أمامه المزيد من البخور فجاءته النيران بالمزيد من الدخان والرائحة الذكية:

-وماذا كانت التعويذة الأولى.

-صرت قادراً على رؤية أهلى..

-لكنها لا تقوم بهذا فقط، لقد كانت ليراك سيد الظلام ويرشدك في مسعاك.

تذكر الشيخ الرحالة، هل يعنى بقوله هذا أن من زاره كان الشيطان نفسه، ارتجف جسده وبعد حين عاد ليسأل:

-إذن ماذا يكون هذا الكتاب؟..وما سره الذى أجهله؟

يتأمل الشيخ الأسود الكتاب الذى بين يديه مرة أخرى، ويتهد طويلاً قبل أن يقول:

- إنه كتاب اليهود..ميثاق بين الكتاب وبين سادته من الشياطين وفى مقدمتهم أزوث الميجل. هذا الكتاب لم يكتبه بشرى، لقد كتبه سيد الانظام بنفسه منذ الأزل، إن من يحوزه ويعرف سره ويقوم بعده يحوز على قوة الشياطين نفسها. لن تبيع روحك للشيطان ولن يكون ميثاقاً مؤقتاً بينك وبين الشيطان يعطيك فيه بعض النعم، قبل أن يأخذ حين ليطلبك بالثمن، هذا لن يحدث هنا. إن الميثاق دائم وسيظل قائماً بينك وبين أزوث وأعدائه طوال عمرك قبل أن يورث الميثاق لأبنائك وأحفادك. ولن يُنْقَضُ الميثاق إلا فقدانك للكتاب، أو عدم وفائك بالعهد.

-ومن يكون أزوث.

-سيد الكتاب وسيدك. إنه أحد الشياطين القدماء. أحد أتباع بعزلزول الأب المُخْلِصِينَ. إنه سلاحه البتارفى وجه أعدائه. إنه من سيمنحك القوة.

وتتملى عينا عبدالتواب بجشع القوة، ويقول بصوت مُنْعَمٍ بالإثارة :

-وماذا على أن أقدمَ في مقابل كل هذا؟..ما الثمن الذى على أن أدفعه.

-ما قَدَّمْتُهُ من قبل. الطاعة والقرايين البشرية والدم. هذا ما يرضيه بشدة.

تواثب قلبه طربًا، لا يعنيه القرايين البشرية، ولا يهمه أن يقتل البشر أجمع، من أجل شهواته..لقد فعلها من قبل،وسيفعلها مِزارًا لو تَطَلَّب الأمر..لو كان هذا هو ثمن القوة له ولأحفاده فسوف يفعله..وقال بصوت كالضحك :

-وكيف يتم العهد؟..أخبرني بما علَى أن أفعله.

يبتسم الشيخ الأسود ويتمتم :

-أيعنى هذا أنك مستعد للوفاء به.

-وهل يمكن للمرء أن يرفض أمرًا كهذا. إننى مستعد للقيام بما هو أكثر من هذا كي يتم الميثاق.

-إنها صفقة رابحة أيها الشاب لو شئت رأيي. قليلون من حظوا بتلك الفرصة عبر هذا الزمن الطويل وأنت آخرهم. اقترب منى وأعطى كَفْكَ الأيسر وأغمض عينيك ولا تفتحهما أبدًا حتى أنتهى.

مدَّ عبدالنواب يده اليسرى له فقبضت عليها أصابع خشنه قوية. أغمض عينيه ودون أن يصدر الشيخ الأسود صوتًا من فمه سمع عبدالنواب ورأى فى شئٍ أقرب للجلم ما عليه أن يفعله. رأى كل شئٍ وحفظ التعاويذ التى عليه أن يرددها، قبل أن يشعر بالصمت والظلام مرة أخرى..هل انتهى الشيخ الأسود. تذكر تحذيره ألا يفتح عينيه أبدًا فنادى عليه بصوت خافت:

-هل انتهى الأمر.

لا إجابة. فتح عينيه ببطءٍ ليعود الضياء وتعود الضوضاء. تلفت حوله بدهشة وقد أدرك أنه عاد للقطار مرة أخرى، لكن الشيخ الأسود لم يكن بجواره هذه المرة. كانت هناك امرأة مُثَشَّخة بالسواد يبدو عليها الهُزَم

تجلس إلى جواره، وقد مال رأسها على صدرها نائمة. تحسس الكتاب بين ثنايا ملابسها فشعر بوجوده ففكر "هل كان ما رآه حلمًا؟. رفع كَفَّهُ اليسرى وهنا تأكد أن ما رآه لم يكن حلمًا..لقد التقى بالشيخ حقًا..ولقد ترك له الشيخ تلك العلامة المحترقة بكف يده فوق إصبعه الأكبر..

ثعبان نارى يلتف حول نفسه ورأسه مرتفع لأعلى، وفى منتصفه جمجمة يعلوها قرنان.

ولوقتٍ طويل ظل يرمى هذا الرمز المنقوش على جلده ولا يصدق ما حدث.

(11)

دخل القرية مستترًا بالظلام، وتوجه إلى داره وقد أدرك مقصده وغايته،سيقدم القرايين وسيقيم العهد مع (أزوث)..رمى السماء فالتصمت النجوم أمام بصره وبرقت كأنما تُبَارِك مسعاه. تحرك فى الشوارع الخالية وقد جاوز الوقت منتصف الليل ولاحظ بدهشة الدُعْر الذى يبدو على الكلاب الضالة حين يقترب منها. لماذا ترمقه بكل هذا الذعر ولماذا تفر هاربة من أمامه. هل شعرت هى الأخرى بخطره الآن. وهل أدركت بغريزتها القوة التى يحملها الآن بين جنباته..واصل طريقه وانتبه لِقِطٍ أصابه الدُعْر حين اقترب منه، فتقوس ظهره وراح يطلق فى وجهه مَوَاءً غامضًا غريبًا ثم فَرَّ من أمامه مبتعدًا، بينما انحرف هو نحو الشارع الذى به بيته. ومن الوهلة الأولى اضطرب قلبه وقد شعر بأنه ليس وحده الآن. لقد تعكر صفو وحدته. كان هناك من ينتظره. بل كان هناك الكثيرون منهم..

لا يراهم لكنه شعر بهم. نظر إلى شجرة التوت المقابلة لداره ورأى بين الأغصان المتشابكة المظلمة العيون التي تترك بلا ضوء ينعكس عليها.. عيون ينبعث بريقها من عالم غير عالمنا. ليست هذه عيون بشرية ولا حتى عيون حيوانات أو طيور يعرفها. هذه عيون لا تنتمي أبداً لعالم البشر. رمقها بوجل وتوقف على مقرنة من داره وفكر في التراجع والهرب. لكن إلى أين يذهب وكيف يمكنه الهرب من أشياء كهذه وقد رآته وحتماً ستدركه لو حاول الابتعاد. علم أنهم في الغالب من أتباع الشيخ عبدالله. إنهم بلا شك بعض الجان من أعوانه ولابد أنهم هنا بانتظاره. تلفت حوله في حيرة وعقله يفكر بلا توقف عن حل ما وهو يخشى أن يفقد الكتاب الآن وقد شارف على بلوغ مأربه ومبتغاه..

ثم تحرك بحذر وببطء نحو داره محاولاً تجاهلهم. رأى القط المنتصب فوق سور الدار وعيناه تتوهجان بلون أحمر مخيف. رفع رأسه نحو السقف فرأى الثعبان الذي يزحف على الجدار ورأسه يرمقه بثبات. اقترب من الدار فتضاعفت العيون المتوهجة داخل أغصان الشجرة فجأة وكأنما يستدعي بعضها البعض في انتظار المعركة التالية.. يتحسس الكتاب ثانية ملتصقاً منه العون وهو يخترق الباب الخشبي الصغير الذي يحيط بحديقة داره. هنا تعالت همسات غريبة مخيفة وصغيرٌ حاذٍ من كل مكان وتحرك القط نحوه. تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله بجنون وقد صار كالفأر الواقع في مصيدة لا فكاك منها. كان كل ما يهمه الآن ألا يفقد الكتاب.. ويعيون مسعورة.. يرى ما يحدث..

واستطال القط فجأة وتضخم جسده.. وبرز من بين أغصان شجرة التوت عشرات الكيانات المخيفة. اهتزت الأرض تحت قدميه مرتجفة هي الأخرى كأنما تشاركه ذعره. وفكر بالتراجع محاولاً الهرب وهو يتلفت بذعر بحثاً عن مهرب ما. لكن القط تحرك نحو الباب الذي دلفه منذ قليل ليسد

عليه طريق الهرب. نظر إلى السور المنخفض الحجري لكن كيانات لا يدرك كلها صارت تعلوه الآن. تحرك نحو باب الدار ليرى أن ذلك الثعبان قد صار أمامه وسد طريقه للأمام.. وتلتقط أذنه صوتاً غير بشري من العدم:

-الثأر من الإنسي.. الثأر من من اللص القاتل..

تصاعد الذعر في نفسه، وترنحت قدماه وهو يبحث بلا جدوى عن مخرج لمآذيه هذا. وبينما تقترب منه الكائنات المخيفة بثبات وعيونها تتوهج بغضب انكمش حول نفسه وقبض على كتابه بقوة وهو لا يصبى أن تنتهي رحلته الآن بالفشل وهو على أبواب النجاح. هنا بسط القط نحوه وقد تحول لهيئة بشرية يداً مخليئة، وهو يقول بصوت لم تنفج شفاه لتخرجه:

الكتاب أيها الإنسي.. أعطى كتاب الدم.

تشبث بكتابه بذعر وقد قرر أن يموت قبل أن يعطيهم إياه. وهو يمد يده في جيوبه كي يقبض على الكتاب. هنا تعثرت أنامله باللزقة التي أعطتها جواهر العرافة له فذكرها.. وبأمل جديد في النجاة وإصرار لا حد له أخرجها بسرعة وهو يصرخ في وجوه الكائنات التي تقترب منه بشجاعة لا يعلم مصدرها:

-ابتعدوا عني!!! لن تحصلوا على الكتاب أبداً. ابتعدوا من هنا.

وبسرعة فاض الخيط حول اللزقة وبعث محتوياتها التي تشبه الغبار في وجوه الجان من حوله. هنا تعالت الصرخات وحلبت الفوضى. شاهد كيف تمزق جسد القط فجأة مخلفاً خلفه خيطاً من دخان تبدد في نسيم الليل. وبينما حاول الثعبان الهرب اشتعلت النار بجسده فجأة. فراح يطلق صفيراً مخيفاً قبل أن تهمد حركته ويتلاشى. أما تلك الكائنات التي اعتلت الشجرة فقد راحت تلاحقها كائنات أخرى مخيفة كال دخان ومن حين لآخر

كان ضوءاً أحمر كاللهب يتوهج فجأة ويتلاشى معه أحد الكائنات. كانت معركة لا يعرف جنودها لكنها انتهت بانتصاره.. لقد أنقذته جواهر يسحرها كما وعدته. ثم دخل الدار المظلمة وأغلق الباب خلفه وقال مُخَبِّئاً ظلام البيت وسكونه:

-لقد عدت.

وأطلق ضحكة شيطانية صاحبة.

(12)

كانت القرابين هي ما يحتاجه الآن وقد أعدَّ العُدَّة الآن في قبو داره. فخرج من بيته وهو يعرف مبتغاه. أسرة من أب وأم وطفل ورضيع. هذا قربانه الأول لاستدعاء شياطين الظلام ليقوموا هم بالباقي.

وكان هناك رجب. ذلك الغرب الفقير الذي أتى للقرية منذ أعوام فتزوج بها وسكن في بيتٍ طيني يشبه الكوخ على أطرافها. علم أن لديه طفلاً صغيراً وآخر رضيع، ولا صعوبة هناك في أن يدعو له لداره بحجة إطعامه.. وتلقى رجب الدعوة بترحاب وسار وزوجته وطفليه خلف عبدالتواب. دخلوا البيت فأشار إليهم عبدالتواب بترحاب نحو الطعام المصفوف على الطاولة الخشبية. كان هناك الكثير من اللحم والدجاج الذي لا يتذوقه رجب وأهله إلا في الأعياد والمناسبات. وأصرَّ عبدالتواب أن يتناولوا منه كما يشاءون وهو يُلَبِّحُ عليهم ألا يتركوا شيئاً من الطعام. راح الأب يُطْعِمُ الإبن الذي يرتدى أسمالاً مُبْقَعَةً بالية بعض الدجاج وبيده الأخرى يقذف للزوجة البدينة قطعاً من اللحم وهو يطالها أن تاكل. لم يلحظوا العينين اللتين تراقبهم بنشوة وتبرقان كلما أكثروا من الطعام.. ولم يلتفتوا للرائحة

اللاذعة الغربية التي يعيق بها الطعام. كان مُخَبِّئاً قوياً وكانوا ليتعرفونه لو لم يذهب الطعام بعقولهم.

وبعد قليل غلجهم النعاس للمرة الأخيرة وظلَّ الرضيع يَقْظُ يصرخ. وحملهم عبدالتواب نحو القبو. كانت الشموع السوداء في كل مكان ترسل لهباً وظلالاً شيطانية، والطلاسم والدوائر والنجوم الخماسية تغمر كل شيء في المكان. أخرج الكتاب ووضع في منتصف نجمة خماسية تتوسط القبو وفي كلِّ ذراعٍ من أذرعها أشعل شمعة سوداء مُطْلَقَةً دُخَانًا نافذ الرائحة.. وضع الأسرة كاملة داخل النجمة ثم رفع الرضيع الذي يصرخ بلا تردد فوق الكتاب وأغمض عينيه وهو يردد تعاويذ شيطانية لُقْنَهُ إياها الشيخ الأسود. وحين انتهى ودون أن يبالي بالرضيع الذي يصرخ، هوى على عنقه بخنجر مُطْلَسَم. لم يصرخ الطفل وجسده الضئيل ينتفض في يد عبدالتواب الذي برقت عيناه في نشوة والدم الغزير ينهمر نحو الكتاب. وصرخ بجنون والكتاب يتشرب كل نقطة من الدماء كمصاص دماءٍ نهم:

-أزوث.. أزوث.. حان وقتك سيدي فانهض.. أزوث المبجل. إن عبدك ينتظرك!

ألقى جسد الطفل وقد فرغ جسده من الدماء واندفع نحو الأجساد الناعسة للأبد. وقام الخنجر بعمله في الأعناق. وفاضت الدماء واختلطت بالتعاويذ الشيطانية وارتجف الجدران وهي تردد معه بلا انقطاع من حناجر ظلالٍ خفية:

أزوث.. أزوث.. أزوث.

ابتعد عن الأجساد المذبوحة المنتفضة في احتياج صامت وراقب الشياطين التي ملأت المكان. رأى المارد الذي رآه من قبل وحوله الكثير ممن يشبهونه تمامًا من المردة. وراح الكل يردد بلا توقف فردد هو الآخر معهم في نشوة:

تداخلت الظلال ولهيب الشموع السوداء في رقصة رعب مُميّنةٍ وارتجّت الجدران حتى أوشكت على السقوط قبل أن تنطلق الشياطين لتقوم بعملها.

وأمام التربة تحركت صابحة ومفيدة حاملتين جرار الماء الممتلئة عائدتين لبيتهما، وهما تطلقان ضحكات خافتة من حين لآخر، ويراقيان بلا مبالاة أشعة الفجر الأولى التي تولد في الأفق. لكن أشعة الفجر الوليد أتت ومعها شيء لم يلحظه في البداية لكنهما حين شعرا به فوقهما ارتجفا فسقطت الجِزَارُ الفُجْارِيَّةُ على الأرض مُهْتَمَّةً وانسكب الماء..وهما يصرخان صرخاتٍ توقظ الموتى وقبل أن يندفع نحوهما كائنٌ غامضٌ مخيفٌ ذو أجنحة ضخمة ثم حملهما بمخالب قدميه وطار بهما مختفياً في الفضاء والظلام.

ومن مكانٍ خَفِيَ بين أعواد الذرة السامقة يبلل فرج نفسه رعباً، وهو يرتجف بذعر وقد رأى ما حدث قبل أن يُهزِلَ نحو القرية صارخاً طلباً للنجدة..

وفوق سطح بيت الحاج داوود عبدالمؤمن وأمام القرن الطيني جلست زوجته جمالات وهي تطرح أقراص العجين داخل الأتون الملتهب، ومن خلفها جلست ابنتها، تُعِدُّ العجين وتُشَكِّله، قبل أن تناولها إياه، بينما راح ياسر الصغير يمرح على مقربة منهما ممتطياً عود ذرة جاف كأنه حصان. وبينما ترتفع الشمس في الأفق رويداً رويداً راح عامود الخبز هو الآخر يرتفع وعينا جمالات ترمقه برضا وهي تحت ابنتها على الإسراع، لكنها وحين تعود بعينها نحو القرن وهي تهم بإلقاء قُرْصٍ آخر من العجين داخله ترى الوجه الناري الذي يبرز من فتحة الأتون وهو يتجه نحوها.. تصرخ برعب

وتجاوبها ابنتها في جنون لكن دخاناً أسوداً يحيط بهم فجأة للحظات قبل أن ينقشع بغثة والمكان خالٍ منهم. هنا يبرز رأس الحاج داوود وهو يصعد السطح ليرى ماذا تستغيث زوجته وابنته. وهو يحمل في يده عصا غليظة ليدافع بها عنهما. لكنه لا يرى إلا الخبز الذي راح يحترق داخل القرن وعامود الخبز الناضج وحلة العجين النصف ممتلئة ولا شيء آخر. ويصرخ وهو يكشف أن زوجته وابنته وابنه قد اختفوا فجأة فيتجمع الجيران..

في نفس الوقت تحرك إسماعيل عبدالهادي في الطريق الترابي وهو يفرك عينيه بكسل بكفة الخشن وهو يحمل على ذراعة أخرى فأسه. بينما سار خلفه محمد رزق، وعبدالفتاح البسيوني، ورضا البسيوني تتبعهم جميعاً مواشيهم وبعض الماعز التي تمرح حولهم. إنه الصباح حيث العمل مبكراً في الأرض قبل صهد الظهيرة. كانوا يسرون بصمت قبل أن يروا ما يعترض طريقهم. كانوا ثلاثة مرده سود ضخام الجسم، يَرْتَوِ الواحدُ منهم على المترين طولاً وقد تسربلوا بالظلام. هل هؤلاء غيلان أم وحوش. فكروا جميعاً وقد اضطرب الحيوانات وراحت تعدو الماعز هاربة. فَكَّرَ الأربعة في الجرى، لكن المردة كانوا أسرع واندفعوا نحوهم وبلغوهم في ملح البصر والتقط كل منهم أحدهم ثم اختفى به وبصرخاته البائسة اليانسة. في جوف الأرض. لم ينجو إلا رضا الذي ظل يعدو ويصرخ حتى وصل إلى القرية المذعورة، ليخبرهم -بعقلٍ ذهب به الذعر- بما حدث..

وخلف أحد الدور كان سلامة ينتظر جميلة. التي أتت إليه متدثرة بالظلام مُضمَّنها في نشوة لترفع ثوبها لينال من جسدها المزيد. لكن عيون قسطنط نارية برزت بغثة أمامها فأرعبتها لتصرخ وهي تلقى ثوبها، وحين خرج سكان البيوت التي تحيطهم، لتتبع الصرخات الفزعة ونجدة أصحابها. شاهد الكل كيف اختفى سلامة وجميلة فجأة أمام بصرهم.

وفي مقابر القرية لم يكن هناك إلا الشيخ عبدالواحد الحانوتي.. كما كان هناك الرعب والهول. راحت عشرات الأشباح تدور بلا انقطاع حول القبور وصفير رفيع وصرخات مخيفة تدوى في باحات القبور، قبل أن يرى الشيخ عبدالواحد بعينه ما يخرج من فتحات القبور المغلقة. أجساد ميتة بالية تتشج باكفانها يعرف أصحابها وقد عادت لحركتها بعد سكون الموت، وظلال وكيانات شيطانية تدور حولها وهي تردد أنشودتها الشيطانية. كانوا خمسة موتى من أحصاهم قبل أن ينكمش في حجرته برعب ويغلق الباب والنافذة على نفسه، ولسانه لا يكف عن قراءة القرآن. لقد أتت الساعة بلا شك وما هم الموتى يخرجون من قبورهم..

كانت القرية في رعب والفجر لم يغادرها بعد والمشاعل في كل يد والخوف في القلوب قد بلغ الحلقوم، ولا أحد يدرى كيف صارت القرية مرتعا للشياطين فجأة. وبلا هدى راح الموكب الضخم من أهالي القرية الخائفين يتحرك في الشوارع بحثا عن فقدوا، والشانعات والأحاديث لا تنتهى وهم في ضلالهم بعمهون..

من يبدد حيرتهم ومن يفسر لهم ما خفى عنهم ومن يقودهم في بحثهم؟. هذا ما راحوا يفكرون فيه حتى برز شيخ جليل اعترض موكبهم فجأة وأشار لهم أن يتوقفوا. أطاعوه بعجب وهم لا يعرفونه فقال لهم بصوت غاضب:

-من أراد ان يعرف من أخرج الشياطين من جعيمها، ومن اختطف أبناءكم فليتبعتى.

صرخ صوت من بين الجموع :

-ومن أنت. وكيف تعرف من فعل كل هذا؟.

-أدعى الشيخ عبدالله المنيأوى.. لا أحد منكم قد سمع عني لكنى اعرف عدوكم وأعلم لماذا فعل هذا. لكن لا وقت لهذا الجدل، ودعونا ننقذ الأبناء قبل أن يتخلص منهم ويُطْلَقَ شيطانه الأكبر.

ثم تحرك أمامهم فتبعوه وهم يرون بعجب كيف اتجه إلى بيت عبدالنواب المنيأوى قبل أن يشير إليه ويصبح فهم:

-انظروا.. هل ترون الشياطين.. هل ترونهم.

ورأى الجميع الشياطين التي تحيط بالدار وتحوم حوله واضحة مع ضوء الصباح الأول.. كان منهم من يخترق الجدران ومن يخرج منها، فتوقف الجمع في رُعب ولا أحد يدرى ماذا يفعلون..

وبالداخل كان القبو الآن يُعْجُ بالجنون، وقد حضرت شياطين الجحيم للشهد ما يدور. إن فجر أزوث موشك على البزوغ ثانية. وكانت الرائحة لا لمّا.

اصحفت جثث خَمْس في قلب كل ذراع من أذرع النجمة الخماسية الكبرى. وفي النجمة الخماسية التي بداخلها خمسة أحياء مُقَيَّدُونَ كُلٌّ في ذراع من أذرع النجمة يرقبون ما يدور حولهم في فزع مُمَيَّن وفي النجمة الخماسية الأخيرة خمسة أحياء آخرون مقيدون أيضا، وفي منتصف كل هؤلاء يرقد الكتاب مفتوحا من منتصفه وتراقص فوقه الظلال المخيفة..

كانت الطقوس الآن قد اكتملت.. خمسة موتى وعشرة أحياء وردد عبدالنواب التعاويذ الشيطانية ترددها خلفه الشياطين في إيقاع مميت:

أزوث.. أزوث.. أزوث.

لم اندفع نحو الأحياء وعمل خنجره المطلسم في أعناقهم. ولم يبال بالظلمات المزعورة المستغيثة التي تسأله النجمة والرحمة، وانهمرت

تفجرت الدهشة على وجوه الجميع مما يسمعون، وتابع شريف هذه المرة، وهو يكمل ما يرويه الحاج محمود عمدة القرية :

-لا تتخيلون أبداً ما أحدثه في النفوس، اختطاف أهالي القرية بصورة شيطانية من هلع لا حد له. لا تسأل أحد حينها عن التعقل قبل الإقدام على رد فعل ما.. لذا وحين هاجم أهالي القرية بيت عبدالتواب قاموا بإحراقه بلا تفكير. لكنهم لم يكتفوا بهذا بل هاجموا بيوت عائلة المياوي الأخرى ولولا بعض التعقل لأهلكوا العائلة بأكملها.. لكنهم اكتفوا ولحسن الحظ بطرد العائلة أجمعها من القرية في ذلك الحين.

شعر عماد بالجزع وهو لا يصدق أن أحد أجداده تسبب في ما يسمعه الآن من أهوال، ولولا ما جرى معه من غرائب لما صدق ما يقال.. بينما انتبه الدكتور محمد شاهين إلى أمر آخر.. الشيخ الذي قاد الجموع نحو دار عبدالتواب من أين أتى وكيف علم أن عبدالتواب هو المتسبب في تلك الأهوال، لذا قال متشككاً:

-وماذا عن الشيخ الذي أرشد الجموع إلى عبدالتواب؟.. لقد ذكرتم أنه كان غريباً عن القرية ولم يتعرفه أحد.. ماذا حدث له بعد ذلك وهل تُعرف أحد ما على هُويته؟.

تبادل العمدة والحاج مدبولي النظرات وصمت شريف، قبل أن يقول الحاج مدبولي :

-لا يعلم أحد عنه أي شيء.. لقد اختفى الرجل هو الآخر فور انتهاء الأمر. اعتقد أنه ما من أحد اهتم في ذلك الوقت بالسؤال عنه، فالك كان في ذهول مما جرى.. وقد جرت الأحداث بسرعة مخفية.

الدماء من أعناق عشر، واندفعت بقوى شيطانية نحو الكتاب الذي نُشِرتْها كاملة في نهم رهيب وراح عبدالتواب يردد :

-عد ثانية أزوت المجل.. لقد قدمت قراييك وذبحت عبيدك كي تُبعث ثانية. إن عبدك الضعيف بانتظارك كي يتم العبد.

ومن بين صفحات الكتاب خرج الظل الرهيب الذي لم يجسُر على التطلع إليه..

وفي الخارج لم يجسر أحد على التقدم نحو البيت وهو يرى كل هؤلاء الشياطين. لكن الشيخ عبدالله لم يعبأ بما يراه، وهو يردد عزائم مهمة ويضم كفيه ثم يفتحهما ليكشف أشياء خفية في وجه الشياطين لتختفي على الفور. رآه يتقدم داخل الدار فتشجع بعضهم وتبعه. سار نحو القبو مباشرة كأنما يعرف هدفه ثم فتح باب. كان القبو الآن في جنون وأزوت يقيم العهد في تلك اللحظة مع عبدالتواب. كان ما رآه الجميع حينها كابوساً لا يُحتمل ودون أن يشعر أحدهم بنفسه ألقى بالمشعل الذي بيده نحو القبو. هنا جاء الجنون فألقى الجميع بمشاعلهم نحو القبو في فزع. واشتعل غضب الشياطين فراحات تتخطف عشرات الأرواح. بينما اشتعلت النيران فجأة في جسد عبدالتواب وقد أصابته إحدى المشاعل. راح جسده يحترق وهو يتخبط ويمد يده نحو أزوت ملتصقاً منه النجدة بينما تابع الشيطان ما يجري بغضب لا حدود له. لقد هلك البشري قبل أن يحوز هو على حريته كاملة. المشكلة في هذا أنه صار مُقَيِّداً بالجسد المحترق المتفحم وصار عليه أن ينتظر لأعوام لا حصر لها كي يتحرر من ربة الجسد الميت المتفحم الجامد. عليه أن ينتظر أعواماً لا حصر لها حتى يحرره أحد الأبناء والأحفاد. وزأ في غضب لا حد له. وردد الاتباع صرخاته

تذكر عماد البيت المتبقى كأثر وحيد من أسرته بالقربة، تمنى لو كان هذا البيت هو بيت جده وليس منزل أحدًا آخر غيره. ربما مازال محتفظًا ببعض الإجابات عما جرى من قبل، لذا قال بحذر:

-وماذا عن البيت المتبقى من تلك العائلة، أما زال قائمًا أم تَهْدَمُ؟ وهل سكنه أحد ما بعد ذلك.

هتف الحاج غنيم على الفور بجزع:

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...بالطبع لم يسكنه أحد، إنه بيت ملعون يا بني ولا أحد يجرؤ على الإقتراب منه.

انتبه الدكتور محمد لما يقال عن البيت الملعون! إنه بغيتهم بلا شك. وقبل أن يسألهم عن البيت عاد شريف ليتكلم:

-إنه منزل عبدالتواب نفسه وهو الشيء الوحيد المتبقى كأثر من آثار عائلة المنياوى كلها. وكما قال الحاج غنيم فالبيت ملعون بحق.. فلا أحد يجسر على الإقتراب منه ومن فعل وجرب أن يدخله لم يعد أبدًا ليخبرنا ما رآه بداخله. تكرر هذا الأمر بضع مرات، فتعلم الجميع ألا يقربوا البيت. ليس هذا كل شيء، فهناك الأصوات المخيفة، والصرخات المفزعَة التي تصدر من داخله من حين لآخر وهناك الأشباح التي تظهر من نوافذه في بعض الليالي المظلمة. كل هذه أمور جعلت من البيت لعنة لا يقربها أحد.

وصمت للحظة وعيناه تنظر أثر كلماته على وجوه الجميع قبل أن تتوقف على وجه عماد المضطرب، فأكمل دون أن يرفع عينيه عن وجه عماد:

-لقد حاول البعض إحراق البيت بضع مرات. لكن لم يفلح أحد في هذا أبدًا. فالنار وبصورة عجيبة لا تنتشر أبدًا في جنبات البيت وكأنما هناك

قوى خفية تطفئها على الفور وتمنعها من التهام البيت. شخصيًا أعتقد أن هناك من يحرص على سلامة البيت والمحافظة على أسرارها من المتطفلين.

كان هذا كافيًا للدكتور محمد. هذا البيت هو مقصدهم حتمًا. فكر للحظة هل يسمح لهم البيت بدخلوه أم يمارس معهم الأعباء؟ لكن عماد بينهم. حتمًا لن يرفض البيت دخول عماد وهو سيده الحقيقي الآن، لو كان بالبيت أسرار فالبيت لن يُفصح عنها إلا لعماد. لذا نهض قائلاً:

-لا أدري كيف أشكركم. لقد ساعدتمونا كثيرًا. لكن تبقى مساعدة أخيرة نرجوها منكم. هل يخبرنا أحدكم أين يكون هذا البيت؟.

رقمه العمدة باستنكار قبل أن هتف:

-لا تخبرني أنك ترغب في رؤيته أو دخوله..أرجو يا دكتور ألا تفكر في هذا..الأمر ليس مُزَحَّةً ولم يدخل البيت أحد من قبل وعاد..كلهم دخلوه ولم يغادروه قطّ

-يؤسفني أن أخبرك أننا مضطرون لفعل هذا..لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نقوم بهذا

-ولماذا عليكم أن تفعلوا أمرًا كهذا؟.. لا شيء أبدًا قد يدفع المرء لأن يلقي بنفسه في التهلكة.

هنا قال عماد هذه المرة لينهى هذا الجدل بشيء من التوتر والحدة:

-وهل هناك ما يمنعنا من أن ندخل البيت؟

رقمه الجميع بتعجب من حديثه وتوتره وفكر الدكتور محمد في قول شيء ما يخفف من وقع كلماته وخاصة أن الجميع يُظهِرُونَ لهم وُدًا حقيقيًا، لكن شريف قال بسرعة مجيبًا ببساطة وعيناه مثبتة على وجهه:

-يمكنك أن تدخل البيت يا أستاذ عماد متى شئت مادمت ترغب في هذا.
البيت مهجور منذ قرن كامل، ولم يعد ملكاً لأحد كي يمتك، وطالما هذه
رغبتكم فهذا شأنكم.

-إذن هل تخبرنا كيف نصل إلى البيت إذن؟..

-سوف أقودكم بنفسى له لأثبت لك أنه لا أحد يعترض على هذا. لكنى لن
أدخله معكم بالطبع..

هنا قال الدكتور محمد شاهين بامتنان حقيقى:

-سيكون هذا كريماً حقيقياً منك يا بنى.

(14)

كان البيت كئيلاً بحق..وحتى مع ضوء النهار الذى بدد الضلالات والأوهام
بدا البيت مخيفاً، يبعث فى النفوس إحساساً مهيماً بالإنقباض وعدم
الراحة. كلهم شعر بهذا حين لاح لأعينهم من بعيد وهم يتجهون إليه
بوجوم، ومن خلفهم تبعهم السيارة الجاوار السوداء الفخمة يقودها
ممدوح ببطة، وهى تخفى جسد ابتسام التى مازالت فى غيبوبتها فى جوفها
وقد رقد بجوارها ابنها عماد نائماً هو الآخر..

حمد الدكتور محمد الله فى سره أن الوقت مازال نهائياً، فلا يدرى كيف
يمكن أن يدخل بيتاً كهذا فى ظلام الليل. ورغم أنه قد فعل هذا كثيراً من
قبل مع عشرات المنازل المسكونة، لكن هذا البيت كان مختلفاً.. هناك
شيء شيطاني يحيط بالبيت..أخفى مخاوفه فى أعماقه وسار ببطة مفكراً فى
ما يمكن أن يجده بالداخل..ووجد نفسه يتمنى ألا يكون الموت بانتظارهم
داخله

أما عماد فقد تباينت مشاعره التى تشتعل فى جوفه. شعر بالإثارة لأنه
يعود لبيت تربي فيه أجداده، بيت لم يعرف وجوده قبل الآن، لكنه يحمل
بين جنباته مصيراً لا يعرفه أعيد له منذ دهور بعيدة. حدثته نفسه أنه
يقترّب من نهاية الحكاية والكابوس الذى عاشه لأعوام سبع..ولاح لعقله
إحساساً مهيماً بأن هناك مفاجأة كبرى مازالت بانتظاره..

وصلوا للسور الحجرى القصير الذى يحيط بالبيت وقد تهدم أغلبه
فتوقف شريف وقال ومازال محتفظاً بابتسامته الودودة على شفثيه:

-هنا تنتهى رحلتى أنا وتبدأ رحلتكم..لن أتقدم أكثر من هذا، كما أتمنى لو
تفعلون مثلى وتقلّغوا عما أنتميتم فعله، وتعودوا أذراكم سالمين.

التفت إليه عماد ومدّ يده نحو مصافحاً وغمغم بشرود والبيت عالقٌ فى
ذهنه:

-إننى أشكرك على كل ما قمت به من أجلنا يا شريف. أتمنى أن تلتقى ثانية
لنتحدث مرة أخرى.

-هذا ما أتمناه وأدعو الله به. أتمنى أن أراكم ثانية بالفعل. سوف أنتظركم
هنا قريباً، احتجتم لشيء ما.

اعترض الدكتور محمد على اقتراحه قائلاً:

-لا داعى لهذا يا بنى..قد نتأخر بالداخل ولا نريد أن نعطلك أكثر من هذا..
أذهب لبيتك، وكفى ما قدّمته لنا.

قالها ثم أردف فى أعماقه بقلبي حقيقى بنُّهُ البيت فى نفسه:

-ما جدوى الإنتظار وقد لا نعود ثانية أبداً. فمن يدرى ما الذى ينتظرنا
بالداخل.

هَزَّ شَرِيف رَأْسَهُ مُعْجَبًا قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ لِيَتَوَقَّفَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةِ التَّوتِ الَّتِي تَنْتَصِبُ فِي مَوَاجِهَةِ الْبَيْتِ مُرَاقِبًا إِيَّاهُمْ لِلْحِظَاتِ...رَأَى مَمْدُوحَ الَّذِي غَادَرَ السَّيَّارَةَ عَلَى عَجَلٍ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ نَحْوَهُمْ لَاهِنًا لِيَتَبِعَهُمْ..

تَوَغَّلَ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَدِيقَةِ الْجَرْدَاءِ الْقَاحِلَةِ وَاحْظُوا أَكْوَامَ الْقِمَامَةِ الَّتِي تَنْتَشِرُ فِي جَوَانِبِهَا. اقْتَرَبُوا مِنْ مَدْخَلِ الْبَيْتِ وَرَأَوْا كَيْفَ صَارَ تَالِفًا بِشِدَّةٍ وَقَدْ تَحَطَّمَتْ نَوَافِذُهُ تَامَمًا وَاخْتَضَى أَغْلَبُهَا مُخْلِيفَةً وَرَانِهَا فِجَوَاتٌ مَظْلَمَةٌ تُثِيرُ الْكَثِيرَ مِنَ الْخِيَالَاتِ وَالْهَوَاجِسِ.. كَانَ السَّقْفُ الْخَشْبِيُّ مَهْتَمٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَعَلَى الْجِدَارِ ظِلَّتْ أَثَارُ حَرِيقٍ وَدَخَانُ أَسْوَدَ نَشَى بِمَا جَرَى مِنْ أَحْدَاثٍ مُخِيفَةٍ فِي زَمَنِ بَعِيدٍ مَضَى. تَحَرَّكُوا بِحَذَرٍ وَصَبَّتْ نَحْوَ بَابِ الْبَيْتِ. كَانَ مَوَارِبًا، دَفَعَهُ عِمَادُ بَيْدِهِ فَتَحَرَّكَ لِلدَّخَالِ مُصْنِيزًا صَرِيرًا صَاحِبًا مُزْعِبًا. تَمَنَّى حِينَهَا مَمْدُوحٌ لَوْ كَانَ قَدْ انْتَظَرَهُمْ بِالسَّيَّارَةِ، لِمَاذَا يَنْدَفِعُ بِحِمَاقَةٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ لِيَقُومَ بِأَشْيَاءَ لَا قَبِيلَ لَهُ بِهَا. إِنْ الْبَيْتَ مُخِيفٌ كَالْحَجِيمِ وَلَا يَدْرِي لِمَاذَا يَشْعُرُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَنْتَظِرُهُمْ بِالْدَاخِلِ. كَمْ تَمَنَّى لَوْ يَفِرُّ مِنَ الْمَكَانِ كُلِّهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجْسُرْ عَلَى الْبُوحِ بِرَغْبَتِهِ هَذِهِ لَهُمْ فَانْكَضَى بِالسَّيْرِ خَلْفَهُمْ وَأَسْنَانُهُ تَصْطَكُ بِبَعْضِهَا فِي خَوْفٍ. وَبِالدَّخَالِ الْبَيْتَ كَانَ أَثَرُ الْحَرِيقِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. كَانَتْ هُنَاكَ قِطْعَ خَشَبِيَّةٍ مَحْرُوقَةٍ وَأَثَانًا مُخْطَمٌ وَسِتَانِزٌ مَمْرَقَةٌ وَأَحْجَازٌ مُتَسَاقِطَةٌ. كَمَا بَدَتْ جِدْرَانِ الْبَيْتِ نَفْسَهُ مُتَدَاعِيَةً تَوْشِكُ أَنْ تَنْقَضَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ. إِنَّهَا لِمُعْجَزَةٌ أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يَسْقُطْ حَتَّى الْآنَ وَمَا زَالَ قَائِمًا..

وَفِي مُنْتَصَفِ صَالَةِ الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ بِالرَّغْمِ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ الْمُنْتَسِرِ مِنْ مَوَاضِعَ شَتَّى مِنَ الْجِدْرَانِ، شَاهَدُوا هَيْكَلًا عَظِيمًا مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ وَلَا يَغْطِيهِ إِلَّا أَسْمَالٌ بَالِيَةٌ مَهْتَرَنَةٌ. تَوَتَرُوا جَمِيعًا وَغِيوَهُمْ تَتَسَعُ وَهِيَ تُخَيِّقُ فِيهِ بِحَذَرٍ وَغَمْغَمٍ مَمْدُوحٌ يَهْلَعُ، وَقَدْ جَفَّ حَلْقُهُ:

-هَلْ هَذَا هَيْكَلٌ بَشَرِي حَقِيقِي؟

بَدَا السُّؤَالُ غَيْبِيًّا لَا مَعْنَى لَهُ فَلَمْ يَهْتِمْ أَحَدُهُمَا بِإِجَابَتِهِ وَانْحَنَى الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ نَحْوَ الْهَيْكَلِ الَّذِي بَدَا رَاقِدًا عَلَى وَجْهِهِ. رَفَعَ أَحَدُ الذَّرَاعَيْنِ الْعَظَمَيْنِ فَتَفَكَّكَتِ الْأَصَابِعُ وَالسَّلْمِيَّاتُ مِنْهُ، وَنَظَرَ إِلَى حَوَافِ الْعِظَامِ فَلَا حَظَّ أَنَّهَا مَتَاكَلَةٌ بَالِيَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.. أَزَاحَ الْمَلَابِيسَ الْبَالِيَةَ فَتَمَرَّقَتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ بِسَهُولَةٍ مُخْلَفَةً وَرَانِهَا عِظَامًا نَظِيفَةً تَامَمًا بَلَا أَنْسَجَةٍ يَغْلِفُهَا بَعْضُ الثَّرَى.. هُنَا انْتَصَبَ ثَانِيَةً وَهُوَ يَقُولُ :

-لَقَدْ مَاتَ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ لِلْغَايَةِ، الْعِظَامُ مَفْكَةٌ لَا يَرْبِطُهَا شَيْءٌ بِبَعْضِهَا الْبَعْضُ كَمَا أَنَّ حَوَافِهَا تَالِفَةٌ وَبَالِيَةٌ مُتَحَلِّلَةٌ. إِنْ عَمَرُ هَذَا الْهَيْكَلِ عَشْرَاتِ الْأَعْوَامِ كَمَا أَعْتَقِدُ.

تَأَمَّلَ عِمَادُ الْهَيْكَلِ بِاضْطِرَابٍ وَغَمْغَمٍ وَهُوَ يَفْكُرُ فِي صَاحِبِهِ:

-أَتَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيُّ هُوَ مَا يَبْقَى مِنْ جَدِي؟..

-لَا أَظُنُّ أَنَّهُ جَدُّكَ. قَعْمَرُهُ لَنْ يَصِلَ أَبَدًا لِقَرْنٍ كَامِلٍ مَعَ عَوَامِلِ التَّعَرُّبِ تِلْكَ الَّتِي تَحُلُّ جَسَدَهُ فِيهَا. أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَخْصُ أَحَدَ الْمُتَطَفِّلِينَ الَّذِينَ قِيلَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا الْبَيْتَ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُ.. يَبْدُو أَنَّهُ قَضَى نَحْبَهُ هُنَا لِسَبَبٍ مَا وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ لِيَتِمَّ بِدَفْنِهِ.

-وَمَا الَّذِي قَدْ يَكُونُ قَدْ قَتَلَهُ؟

رَمَقَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ بِعِيُونٍ هَادِنَةٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيبَ بِبَسَاطَةٍ :

-لَا فَكْرَهُ لَدَيَّْ عَلَى الْإِطْلَاقِ، الْعِظَامُ سَلِيمَةٌ كَمَا تَرَى لَا أَثَرَ لِكُسُورٍ بِهَا..مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ مَيْتَةً طَبِيعِيَّةٌ وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَاتَ رَعْبًا مِثْلًا..أَنْتَ تَفْهَمُ مَا أَقْصَدُهُ بِالطَّبْعِ.

فَهَمَّ عِمَادُ مَا يَقْصِدُهُ فَصَمَّتْ، ثُمَّ تَحَرَّكُوا ثَانِيَةً بَيْنَ الْأَثَانِ الْمَحْطَمِ وَالْمُتَرَكَمِ بَلَا انْتِظَامٍ وَدَخَلُوا حِجْرَاتِ الْمَنْزِلِ لِيُرَوْا مَا فِيهَا..لَمْ يَعْبُرُوا إِلَّا عَلَى الْأَثَانِ

المُهَشَّم والغُبَار وأعشاش العناكب الكثيفة.. وفي المطبخ وجدوا هيكلًا عظيمًا آخر.. هيكل يرقد على ظهره وقد تبعثرت عظامه في دائرة قطرها متر كامل.. وفي إحدى حجرات النوم رقد على الفراش هيكل عظمي ثالث لجنّة ثالثة..

كلهم كانوا يشبهون الهيكل الأول وكلّهم كان قديمًا يعود لسنواتٍ بعيدة وكلهم يحمل معه أسرار غامضة مخيفة بلا إجابات..

لماذا مات هؤلاء؟..

في النهاية لم يعثروا على شيء آخر ذا بال، فتوقفوا في منتصف الصالة وعيونهم تدور في المكان الموحش الرهيب وهتف عماد بحيرة مُخَدَّئًا الدكتور محمد الذي احتشد بعض العرق على جبهته وبدأ مُرَهَقًا مريضًا في هذه اللحظة:

-والآن ماذا تقترح أن نفعل؟.. لا شيء في البيت مُلِفٌ غير الجثث الثلاث.

-علينا أن نعرّ على القبو.. لقد حدث كل شيء به كما أخبرنا عمدة القرية، ولهذا أتوقع أن نعرّ على الإجابات به.

-لكنني لا أجد أثرًا له حوّل.. أين نعتقد أنه موجود.

تحول بصر الدكتور محمد إلى ركنٍ مُغطّى بالأحجار والأثاث المُهَشَّم والتراب فأشار إليه بإصبعه قائلاً:

-أعتقد أن علينا أن نُزِنل الأحجار تلك لترى مات خفيه خلفها.

نظر ممدوح وعماد إلى كومة الأحجار التي أشار إليها وتمتم ممدوح بحجّرة:

-وهل نعتقد أن القبو مخفّ خلفها؟..

-أعتقد أن علينا ألا نُضَيِّع المزيد من الوقت في طرح الاسئلة التي لا معنى لها وأن نبداً العمل على الفور في إزاحة تلك الأحجار.. لقد اقترب الظلام ولا أجيّب أن أبقى داخل هذا البيت حين يغيب الضوء.

تحركا على الفور وبدءا في إزاحة الأحجار والأثاث القديم جانبًا بينما جلس الدكتور محمد ليستريح على مقعد خشبي بلا حشية. عريد الألم في جسده كوحشي يركّز ينهش في أوصاله بهم، وراح بصعوبة يغالب دوارًا عنيفًا يحتاج عقله. أدرك الآن أنه بالفعل لم يعد قادرًا على تحمل الإثارة كما قالت مديرة منزله وداد حين اعترضت على رغبته في الاشتراك بالأمر.. كان عليه أن يستمع إليها ليتجنب تلك الآلام التي يقاسمها الآن. مضى الوقت بطئيًا وعماد وممدوح يعملان بهمة في إزاحة الأحجار وغمر المكان الكثير من الغبار قبل أن يهتف ممدوح بحماس وهو يشير لشيء مخفي خلف الغبار الذي غمر الناحية كلها:

-رباه.. هناك بابٌ بالفعل يا رجال. هل تراه يا عماد.. انظر هناك. إن الغبار يخفيه.

بالفعل رأى عماد الباب المخفّ، فزاد من نشاطه هو الآخر، وبعد قليل كانوا قد صنعوا فجوة سمحت لهم بالوصول للباب الخشبي ذو الطلاء المتآكل. دفعه عماد بذراعه للداخل فلم يستجيب له. تقدم نحوه ممدوح ليساعده وراح يدفع الباب معه بكل قوته فقاومهما الباب قليلًا قبل أن يست. لم أمامهما وبدأ في التحرك ويتزاح للداخل رويدًا رويدًا.

وحمل إليهم الباب من داخل القبو رائحة عفنة، أشدّ شناعة من رائحة القبور. كانت رائحة عضوية قوية تقلصت أحشاء الثلاثة لها، وقد شعروا بغثيان شديد ورغبة في القاء جاهدوها بصعوبة. انتظروا حتى خفتت حدة الرائحة قليلًا ثم دلفوا القبو المظلم. أضاء عماد ضوء الكشف الذي

أطال عماد النظر إلى الجسد المتفحم ومشاعر شتى تتنازعها..ميتة بشعة تلك التي نالها الرجل. لكنه وأمام ما يراه حوله من أهوالٍ لم يشعر بالشفقة نحوه، إنه يستحق ما حدث له بلا ريب، لو كان هو من فعل تلك الممارسات البشعة.

تحرك الدكتور محمد نحو أحد الجثث التي غُطَّت منتصف النجمة الداخلية وقد لح شيئاً يبرز من أسفلها. حَرَّكَ الجثة التي تحولت لمومياء جافة الآن، فرأى الكتاب المَقْفَى بالغبار أسفلها. رَمَقَ النقوش الغربية التي حُفِرَتْ على غلافه الجلدي للحظة. ومَدَّ ذراعه بعدها ليرفعه من على الأرض.. لكنه وقيل أن تلمس كفه الممتدة الكتاب، سمع ذلك الصوت من خلفه والذي هتف به مُخْذِرًا :

-حذارِ أن تفعلِ يا دكتور..لو لمسته سأقتلك على الفور.

انتفض الثلاثة فجأة فزعًا والتفتوا بِجِدَّة نحو مصدر ذلك الصوت، وعلى ضوء المشاعل رأوا المشهد المخيف الغريب..

شريف واقف على الدرج الحجري خلف باب القبو ينظر إليهم بصرامة وحَزَم وفي يده مُسَدَّس صغير يُصَوِّتُهُ إِلَيْهِمْ. ومن نظرات عينيه أدركوا أنه لا يُمَحِّصُ أبدًا في تهديده.

(15)

طال الصمت والترقب لوقتٍ طويل وهم يتبادلون النظرات المذهولة مع شريف الذي ظل بمكانه ينظر إليهم بحذر ومسدسه بيده مُتَحَفِّرًا لَأَيِّ شَيْءٍ طارئ، في النهاية هتف عماد بجدّة واستنكاراً:

-ما هذا الذي تفعله يا شريف؟ ولماذا تهددنا بهذا المسدس؟

331

جليه معه وتقدمهم، ثم تبعه الدكتور محمد وممدوح الذي غَطَّى أنفه بمنديلٍ قَمَاشِيٍّ لِيَجَنِّبَهُ الرائحة الخانقة. هبطوا الدرجات الحجرية التي انتهت إلى أرضٍ قسيحة، وراح ضوء المصباح يُظهِرُ مُحْتَوَاهَا الرهيب. طالعهم الأجساد الهامدة المتحللة التي بلا رؤسٍ وقد تكومت في رَأْسِ الأركان الجماجم المقطوعة في مشهد رهيب. وامتلات الأرض والجدران بالكثير من النقوش والنجوم الخماسية والطلاسم التي أدرك الدكتور محمد من اللحظة الأولى أنها طلاسم حقيقية للسحر الأسود. لقد مورس في هذا المكان سحرَ شيطانيٍّ رهيب.. لم يرى من قبل طقوسًا دموية كهذه. كما ينرك من خبرته أن الغاية من ممارستها في الغالب قد تكون استحضار الشيطان نفسه.

لم يكن ضوء المصباح كافيًا ليبعد الظلام الدامس فأشار إلى مشاعل خشبية مُعَلَّقة على الجدران وهتف في عماد وهو يناوله علبة ثقابٍ أخرجها من جيبه :

-حاول أن تُشْعِلَ تلك المشاعل يا عماد..

قَرَّبَ عماد السنة اللهب الصغيرة من المشاعل فاشتعلت على الفور.. كان عددها على الجدران خمس كُكُلٍ شَيْءٍ آخر في المكان.. أنارت المشاعل القبو كله، وعلى ضوء اللهب بدا المكان رهيبًا بشدة.. رأوا كيف اصطفت الجثث المقطوعة الرؤس بانتظام داخل أذرع النجمات الخماسية المتداخلة.. وشاهدوا في أحد الأركان الجسد البشري المنتصب والذي تَفَحَّمُ تمامًا وقد بسط في الفراغ ذراعًا عظمية. تبادل الجميع النظرات المرتجفة وهم يرمقون الوجه المسود الذي ذابت ملامحه، وهزَّ الدكتور محمد رأسه ببطء وهو يلاحظ نظرات عماد المتسائلة وقال باقتضاب:

-أعتقد أنه جدك.

330

-أَصْحَحْ خطأ فعله جدد منذ أكثر من قرن. إن عبدالتواب المنيأوى هو جدد يا عماد. أليس كذلك؟

رقمه عماد بدهشة متساءلاً كيف عرف بينما قال الدكتور محمد بهدوء وقد رسم على شفثيه ابتسامة غريبة:

-إنه حفيده بالفعل. ولا يدهشنى أبداً أنك أدركت هذا. لكن الفضول ينهشنى لأعلم من أنت؟ وما الذى مازلت تخفيه فى جعبتك.

رقمه شريف بحزم وقد اضطرب وجهه من تلك الإبتسامة التى يراها على وجه الدكتور محمد ثم قال:

-إننى حفيد رجلٍ آخر..رجل خانه هذا الرجل المتفحم منذ قرن وسرق من بيته شيئاً خطيراً للغاية.

-لنقل أنك حفيد ذلك الرجل الذى أرشد القرية فيما مضى لهذا البيت. أليس كذلك؟..

تحرك شريف نحوهم بحذر وهو يشير إليهم بالمسدس أن يتجمعوا سوياً ويتراجعوا نحو أحد الأركان ثم اتجه مباشرة نحو الكتاب دون أن تفارقهم عيناه وانحنى نحوه وحمله بيده الخُرَّة وهو يقول:

-هذا هو كتاب الدم يا دكتور. أعلم أنك لم تسمع به من قبل لا أنت ولا غيرك. إنه أحد الأسرار التى لا ينبغى أن يعلمها أحد. لقد كان إرثاً، عهد به إلى أجدادى منذ الأزل للحفاظ عليه وإخفائه عن الأعين. ولقد نجح أجدادى فى هذا حتى جاء جدُّ عماد إلى جدِّى الشيخ عبدالله المنيأوى. لا أدرى كيف خدعه حينها، لكنه فى النهاية سرق الكتاب وهرب به ليتسبب فى كل هذه المجازر الوحشية التى ترون آثارها حولكم.

شعر الدكتور محمد بالحيرة الشديدة لأنه لم يسمع عن هذا الكتاب من قبل أبداً. رغم أنه يعلم كل كتب السحر والخوارق والجان التى خُطِّبَ إليها البشر. هنا قال بفضول وعيناه مُعلَّقةً بالكتاب الذى يحمله شريف ويقبض عليه بقوة:

-وماذا يكون هذا الكتاب. هل يكون كتاب سحر أم هو من اجل استحضار الشياطين والجان.

نظر اليه شريف بحيرة وظهر التردد على وجهه للحظة وهو يفكر. هل يخبره بسر الكتاب أم يصمت..فى النهاية قرر التحدث :

-إنه كتاب أزوث يا دكتور. هل سمعت به من قبل.

لكن الدكتور محمد أجابه هذه المرة مبتسماً:

-سيددهشك أننى اعلم أزوث هذا. إنه أحد الشياطين القديمة. أحد أعوان إبليس نفسه وأحد أمراء الشياطين العظام. ربما لم أسمع عن كتاب الدم من قبل، لكننى قرأت مِراراً عن أزوث. شيطان النار والحرب..

-يدهشنى بالفعل أنك تعلم بشأنه يا دكتور. أجل. إن أزوث هو شيطان النار والحرب..الشيطان الذى كاد أن يحترق ويُقتل فى أحد المعارك القديمة فصنع إبليس من أجله هذا الكتاب وزوَّده بالطلاسم التى تحمى أزوث وأعوانه من التلاشى. إن كل قوى أزوث وأعوانه صارت حبيسة هذا الكتاب. إنها قوى مخيفة لا يقبل لأحدٍ بها أبداً. قوى خطيرة للغاية فى انتظار من يأتى ليحررها.

-وقد حاول جدُّ عماد تحريرها كما اعتقد.

-للاسف هذا ما حدث..لقد كان الكتاب كما أخبرتك بحوزة أجدادى دوماً بعد أن انتهى إلى يد ساحرٍ غجريٍّ يمارس السحر الأسود كان قد عثر عليه

في أحد المغارات. حدث هذا في العصر الأيوبي. ولقد نجح أحد أسلافي في الظفر بالكتاب منه وقد أدرك خطره فَرَوَّدَهُ بِالطَّلَاسِمِ الَّتِي تَحْمِيهِ وَتُخَفِّئُهُ عَنْ أَعْيُنِ الشَّيَاطِينِ كَيْ لَا تَصِلَ إِلَيْهِ أَبَدًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى جَدِّي عَبْدِ اللَّهِ لِيَأْتِيَ عَبْدَ التَّوَابِ الْمُتَفَحِّمَ أَمَامَكُمْ، لِيَسْرِقَهُ مِنْ جَدِّي.

انكمش ممدوح حول نفسه في الرعب وقد التصق بالجدار وهو لا يعنيه ما يدور الآن بينهم.. لقد فهم أن شريف يريد الكتاب وما هو قد حصل عليه. ليرحل إذن عنهم وليذهب بالكتاب إلى الجحيم فهذا لا يعنيه. أما عماد فراح يتابع ما يقوله شريف عن الكتاب وعن جده وهو يحاول أن يدرك الرابط بين ما حدث في الماضي وما حدث مع أمه وأخته وما شأنه به. وفي النهاية قال بَوْهَنِي

هل تعلم يا شريف أن أبي وَجَدِي وَجَدَ أَبِي قَدْ مَاتُوا جَمِيعًا فِي الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِمْ.. هل تعلم أن أمي قَدْ أَصَابَهَا اسْتِحْوَاذٌ شَيْطَانِيٌّ قَتَلَهَا فِي النَّهَايَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ أَخْتِي الْوَحِيدَةَ قَدْ أَصَابَهَا بِالْأَمْسِ نَفْسُ الْإِسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِيِّ لِلْعَيْنِ. هل تعلم لماذا حدث كل هذا؟

تراجع شريف للخلف قليلًا بظهره قبل أن يقول :

-أعتقد أن أعوان أزوث هم من فعل هذا. ذنْبٌ آخَرُ مِنْ ذُنُوبِ جَدِّكَ الْكَثِيرَةِ.. لقد ظن أنه يجلب القوة له ولذريته فاذا به يحمل الموت والهلاك لهم. لقد حرر جدك أزوث من الكتاب وأعوانه، لكنه مات قبل أن يُقِيمَ الْعَهْدَ مَعَهُ. إن أزوث رغم قواه الرهيبة لا يمكنه العودة لهذا العالم إلا من خلال بشرى يقيم العهد مع الكتاب، وبورث العهد لذريته من بعده. لقد مات جدك قبل أن يفعل فصار أزوث حبيس الجسد المتفحم في انتظار أن يأتي أحدًا من ذريته ليحرره ثانية. لا بد أن أعوانه قد وصلوا إلى

أجدادك وأهلك ولابد أنهم طالبوهم بتحرير سيدهم ولما لم يفعلوا لجعلهم بالأمر قتلوهم.

نظر عماد نحو جده المنتصب مُتَفَحِّمًا وهو يُجَسِّنُ بِغَضَبٍ وَمَقْتٍ لَا خَدَّ لَهُ. إذن فهو من تسبب في كل هذا، لقد كان جده لعنة يحق على أسرته. ليته لم ينتمي لهذا الجَدِّ.. بل ليته مات قبل أن يشهد كُلُّ هَذَا.

وسمع الدكتور محمد يقول لشريف :

-لكن أليس غريبًا أن تعلم مكان الكتاب ولا تأتي للحصول عليه.. ألم تخشى أن يُغَيَّرَ عَلَى الْكِتَابِ شَخْصٌ مَا مَصَادِفَةٌ وَقَدْ يُقِيمُ حِينَهَا الْعَهْدَ مَعَ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ كَمَا تَقُولُ.

ابتسم شريف وهو يُجِيبُ:

-لم يكن ممكنًا أن أقترِبَ أَنَا أَوْ غَيْرِي مِنَ الْبَيْتِ وَقَدْ تَحَرَّرَتْ أَعْوَانُ أَزُوثِ وَرَاحَتْ تَحْمِيهِ. إنهم أقوياء يا دكتور كما أخبرتك ولا قِبَلَ لِي أَوْ لَغَيْرِي بِهِمْ. لقد قتلوا كل من سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ دُخُولَ الْبَيْتِ.. أعتقد أنك قد رأيت الهياكل العظمية لبعض هؤلاء بالخارج.

-ولماذا لم يفعلوا معنا هذا الآن؟..

-لأن عماد بينكم. ظننت هذا واضحًا. إنهم بانتظاره منذ قرنٍ وما هو قد أتى، فلا مجال إذن للتعرض لكم..

هَزَّ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدَ رَأْسَهُ مُتَفَحِّمًا وَقَالَ ببطء:

-إذن لم يكن الشياطين فقط هم من ينتظر عماد أو أحد أباءه. لقد كنت وأجدادك أيضًا في انتظار أن يأتي أحدهم لتظفروا بالكتاب منه. ولقد كنت أنت سعيد الحظ الذي شهد هذا واستعاد الكتاب ثانية.

-هذا تحليل دقيق للغاية. أنت مُصيب.

هنا تقدم ممدوح بعصبية وقد شعر بأعصابه تتوتر بشدة وقال:

-وها قد حصلت على الكتاب...هلاً غادرت المكان وتركنا نغادره نحن أيضاً.

ابتسم شريف هذه المرة بمرارة وهو يرقُب ممدوح الذى يقترب منه وقال:

-للأسف هذا غير ممكن الآن...لا ينبغي أن يعلم بالكتاب أى أحد، ولهذا فأنا مضطر فى هذه اللحظة للتخلص منكم جميعاً قبل أن أختفى بالكتاب ثانية.

هنا قال الدكتور محمد ببطء وقد أيقن أن شريف لا يمزح فيما قاله:

-حتمًا لن تفعل يا شريف. لا تُبَرِّز أبداً لجريمة جديدة. خذ الكتاب واذهب به حيث شئت ونَعِدُكَ أن نلتزم الصمت.

نظر نحوه شريف لِيُعَقِّبَ وفى اللحظة التالية حدث ما لم يتوقعه أحد..كان ممدوح قد فقد كل تَعَقُّلُهُ فى هذا الوقت وقد أيقن هو الآخر بهلاكه..لم يكن يرغب حتمًا فى الموت لذا قرر أن يجازف ويفعل محاولة ما وحين التفت شريف نحو الدكتور محمد وهو يُخَذِّثُهُ، اندفع نحوه مرة واحدة مُحَاوِلًا القبض على يده التى تُصَوِّبُ المسدس نحوه. لكن شريف انتبه إليه فى اللحظة الاخيرة وتراجع للخلف بسرعة قبل أن يطلق نحوه رصاصة استقرت فى صدره..

صرخ عماد وهو يندفع نحو صديقه الذى تَكُونُ على الأرض مُخْتَضِرًا وجسمه ينتفض بشدة، وخيطٌ من الدماء يتسلل من جانب فمه للخارج. وانحنى نحوه الدكتور محمد هو الآخر بأسى وقد أيقن إن إصابته مميتة. وقال شريف بأسفٍ حقيقى:

-أرجو ألا تَحْقِدُوا عَلَى. كُنْتُ مُضْطَرًّا لهذا. إنه ذنب جَدِّكَ يا عماد فى النهاية، وهو من تسبب فى تلك الفوضى. إنه من يستحق حنقى وحنفكم جميعاً. والآن من فضلك أغمضوا أعينكم واستعدوا للموت. لا أحب أن أطلق رصاصى نحوكم وأنتم تنظرون إلى.

لم يفعل الإثنين وارتفعت أعينهم نحوه فى حقد وَتَحَدٍ وتحرك إصبعه نحو الزناد وضغطه بلا تردد.

(16)

لم تنطلق الرصاصة حين ضغط شريف الزناد. بل ولم يتحرك الزناد من مكانه. وقبل أن يفكر شريف ويبحث عن تفسيرٍ ما لما حدث سمع تلك الضحكة الصاخبة التى أتت من خلفه. التفت على الفور ليرى ابتسام التى لم يرها من قبل. كانت تتقدم نحوه وعلى وجهها تلك الإبتسامة الساخرة وفى يدها سار عماد الصغير بخطواتٍ أَلِيَّةٍ كأنما يُحَرِّكُهُ شَيْءٌ ما.

وهتف عماد بقلق وقد خشى أن يُطْلِقَ شريف عليها نار مسدسه:

-احذرى يا ابتسام. ابتعدى بالطفل فقد يؤذيك.

لكنها واصلت التقدم نحو شريف الذى تراجع أمامها فى خوفٍ حقيقى. فى النهاية اصطدم ظهره بالعائط ومازالت يده تحاول بلا جدوى إطلاق الرصاص نحو ابتسام التى تتقدم نحوه، ويده الأخرى تُقْبِضُ على كتاب الدم بقوة.

وصلت إليه ومدَّتْ أصابعها نحوه. هنا صرخ بألمٍ رهيب وهو يلحظ القوة الخارقة الخفية التى أحاطت بمعصمه فحررت الكتاب من يده ليطير فى الهواء نحو عماد الذى تلقفه بدهشة، وفى نفس الوقت سقط المسدس

من اليد الأخرى التي تلبس عليه وذوى معه صوتٌ شنيع لعظام يده التي
هشمتها قوى خفية فراح يصرخ.

هنا راحت عشرات الظلال تتحرك في الحائط وراحت الهمسات تَدَوِي في
المكان من كل مكان، وقالت الشياطين بصوتٍ غليظ خرج من فم ابتسام
وهي تنظر إلى عماد..

-حان الوقت لثُخِرَ أزوث. أطلق سراح السيد. إنه بانتظارك. حرر أزوث
أيها البشرى.

راقب الدكتور محمد الذي مازال مُنْخَبِئًا حول جسد ممدوح المحتضر،
بتوتر عماد الذي تجمد فجأة وهو ينظر للكتاب.. وشعر بالصراغ الخفى
الذي يدور في عقل عماد في هذه اللحظة. هل يتلقى اتصالاً ما من قوى
خفية في هذه اللحظة.

الحقيقة أنه كان مُجْعًا في اعتقاده.. ففى تلك اللحظة كان عماد مع
جده.. كانا في مكانٍ آخر وزمنٍ آخر انتقل إليه بعقله، وراح جده يُخَبِّئُهُ
بعماسي عن كتاب الدم. حَدَّثَهُ عن أسرارهِ. حَدَّثَهُ عن القوة التي تنتظره لو
حرر سيده، وَذَكَّرَهُ بما ينتظره لو لم يفعل. سيقته أعوان أزوث كما فعلوا
مع أبوه وأجداده. وإن لم يفعلوا فهناك جثة سوسن التي ستعثر عليها
الشرطة حتمًا وسيهمونه بقتلها وقد يُعَذِّم من أجل هذا. رأى عماد منى
ورأى زوجها الذي أذلَّها طويلًا. رأى الممرض حكيم وتداغت لذاكرته ما
فعله معه ومع الآخرين. ثم رأى أخته التي ظلمها ابن زوجها وحرمها من
حقها وأموالها. هنا كره ضعفه الذي منعه من الأخذ بثأره ممن ظلمه
وظلم أحبائه من قبل.. إنه لا يرغب في الموت كما لا يرغب في أن يظلَّ
ضعيفًا. وحين أفاق كان يُدرك ما عليه أن يفعله..

رأه الدكتور محمد يتحرك بثبات نحو منتصف النجمة الخماسية التي
توسط المكان وفي يده الكتاب فأدرك ما ينتويه. نهض على الفور وتحرك
نحوه وهو يهتف مُخَبِّرًا:

-إياك أن تفعل يا عماد.. لا تُقَدِّم على أي حماقة الآن.

لكن قوى خَفِيَّة أوقفته بغتة ورفعت جسده في الهواء ثم دفعته نحو
الجدار المقابل للجدار المُتَّيَّب به شريف، الذي مازال يصرخ برعبٍ وألم.
شعر الدكتور محمد بالقيود الخفية التي تُقَيِّدُهُ لِلْجِدَار، فتضاعف الألم
في جسده ولم يعد قادرًا على الكلام..

وفي منتصف النجمة الخماسية توقف عماد ورفع عنقه لأعلى ثم رفع
الكتاب عاليًا في الفراغ، وهتف بصوتٍ غريب:

Antiquum jus demones inferni

..Ossa principibus tenebrarum

Ius Beelzebub et sacerdotes Ozmidus magiceque et magos

Antoninum sepulchra

O Veni in auxilium nigra reversus AZOTH..

Ozoth Vamrhawwa reversus..

Computatis Ozot Fattabek Salvator exspecta

وارتجفت الجدران وتراقص لهب المشاعل في تَوْخُّشٍ واشتعلت الشموع
السوداء التي تملأ أركان المكان فجأة. تراقصت عشرات الظلال المتَوَهَّجَة
على الجُدُرَان قبل أن تتجسد في شكل كياناتٍ مُخَبِّفَة بعيون نارية ووجه

كان بمفرده هذه المرة ولا أثر لعماد أو أخته أو الطفل الصغير ولا كتاب الدم. مازال جسد ممدوح كما هو وقد فارق الحياة ومازال جثمان شريف المُمَرَّق على حاله في منتصف النجمة الخماسية. وقد أظل المكان صمتًا ثقيل. كانت القيوذ الخَفِيَّة التي قَيَّدَتْهُ للجدار قد تلاشت هي الأخرى فتحرك في وَهْنٍ نحو باب القبو فغادره ثم سار مُتَرَتِّعًا إلى سيارته وقد غابت الشمس خلف الأفق وحل الظلام. تحرك بالسيارة وهو بالكاد يرى أمامه ولا يدري هل يستطيع الوصول بها إلى فيلته بالمقطم أم لا. تحركت السيارة، وعقله يأبى أن يُصَدِّق كل ما جرى الآن من أهوال، حتى أنه تمنى لو كان يحلم. لكن الواقع المُخيف الذي ما زال يترانى لبصره أَعْلَمُهُ أنه ولسوء حظه لا يحلم.

مطموسة سوداء. وراحت الشياطين الخفية تردد ترانيمها الوحشية في صوتٍ مخيف:

أزوث. أزوث. أزوث.

رفع عماد يده نحو شريف، فطار جسده ليقبع في منتصف الدائرة راقداً على ظهره وقد بسط كلاً من ذراعيه وكَفَّيْهِ على اتساعهما. وبينما راح شريف يصرخ في رعب، شَقَّ الفراغ من مكان خَفِنَ خنجر قديم مُطْلَسَم التقطه يد عماد اليسرى، ثم انحنى نحو شريف وأغمض عينيه وهو يصرخ بنشوة:

-المجد لأزوث..

وبلا تردد هوى بالخنجر على صدر شريف واخترقه، فتفجر الدم، وارتفع الخنجر ثانية في الهواء قبل أن يهوى هذه المرة على عنقه.

سالت أنهار الدم من الجسد المنتفض فالتقط عماد بعضها بِكَفِّهِ، وسكها على الكتاب. فارتجت الجدران وتزلزلت.

وعلى جدران القبو تَجَسَّدَ الثُّعْبَانُ الناري وهو يَلْتَفُّ حول نفسه ويرفع رأسه عاليًا وفي منتصفه ظهرت جمجمة شيطانية بعيون مُشْتَعِلَةٌ وقرنين نارين على جانبيها..

و من وسط الثعبان برز أزوث وتجسد. غادر الجدار المشتعل ونظر إلى عماد ثم أشار بكفه نحوه. كان بشعًا مخيفًا، فلم يجسر الدكتور محمد على النظر إليه وأغمض عينيه في خوفٍ حقيقٍ.

لم يرى عماد الذي ركع أمام أزوث..لم يرى الخاتم الناري الذي خرج من إصبع أزوث ليلتفُّ حول إصبع عماد..وحين كَفَّتِ الهمسات المخيفة عن التردد واختفت الأصوات الشيطانية فتح الدكتور محمد عينيه ثانية..

الخاتمة

"من صفحة الحوادث لجريدة الأخبار المصرية"

"جرمنا قتل غامضتين في يوم واحد بالمطرية"

كتب: محمود عبد العليم:

تجرى نيابة المطرية تحقيقاتها في جرمتي قتل غامضتين، حدثتا في حي المطرية بالقاهرة..

ففي الحادثة الأولى، عثر الأهالي على جثة فتاة كانت مفقودة تدعى سوسن م.ع. في شقة جارها عارية تماماً وقد تم ذبحها وقد وُصِمَ جسدها بالنار. وفي التحقيقات اتهمت الأم الجار، ويُدعى "عماد.س.م." بفعل هذا، وأكد الشهود أن ذلك الجار قد خرج لتوه من مستشفى الأمراض العقلية بعد إيداعه فيها بتهمة قتل أمة قبل سنوات بصورة قريبة مما حدث مع الفتاة، وتواصل النيابة تحقيقاتها في انتظار تقرير الطب الشرعي، ليؤكد هل اعتدى ذلك الشاب عليها قبل قتلها أم لا.. علماً بأن الشاب قد اختفى قبل اكتشاف الجريمة مع أخته وطفلهما..

كما تُحقّق النيابة في جريمة مماثلة في نفس الشارع راح ضحيتها أحد تجار المخدرات ويدعى "محمد.ع.".. كان القتل قد وُجِدَ مقتولاً في فراشه محترقاً وقد تفحم جسده تماماً. الغريب في الأمر أنه لا آثار حريق ظهرت بالجوار، هذا وتواصل الشرطة تحرياتها عن الحادث لمعرفة ملابساته كما تبحث

عن زوجة القتل وتدعى "منى.م.أ" التي اختفت هي الأخرى في ظروف غامضة ولا يعلم أحد مكانها"

قصاصة من صفحة الحوادث لجريدة المصرى اليوم

"مقتل ممرض يعمل بمصححة نفسية بطريقة بشعة"

كتب: عماد رشاد.

تواصل مباحث السيدة زينب تحرياتهما لكشف غموض مقتل ممرض يعمل بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية يدعى "حكيم.ع.م" 34 عام..

كانت زوجته قد اتصلت بقسم شرطة السيدة زينب وهي في حالة انهيار تام لتبلغهم بعثورها على جثة زوجها مصلوبةً بالحائط وقد تم سلخ جلده عن لجمه تمامًا وشاهدت على الحائط المثبت به، الكثير من الرموز الغريبة مرسومة بالدم.

وأضافت الزوجة أنها كانت وقت ارتكاب الجريمة في منزل أمها لزيارتها وحين عادت وجدت زوجها مقتولًا هكذا، وقد دلت تحريات المباحث أن القتل لا أعداء له ولم تهم زوجته أحد بفعل هذا"

من صفحة الحوادث بجريدة المصرى اليوم

"العثور على جثة شاب مشنوقًا في بيته"

كتب: داليا فؤاد.

لواصل مباحث قصر النيل تحقيقاتها في جريمة قتل راح ضحيتها شاب يدعى "أدهم.س.". كانت زوجته قد عثرت على جثته معلقةً من رقبته في سقف حجرة نومه وبيدها مقيدتان للخلف.. هذا ولم تهم الزوجة أحد بفعل هذا كما نفت أن يكون الحادث من أجل السرقة حيث أكدت أنها لم تفقد شيئًا من شقتها.. كما دلت تحريات المباحث أنه لا آثار عنف بالشقة وما زالت تواصل تحرياتهما للوصول لغموض هذا الحادث.

وعلى فراشه رقد الدكتور محمد شاهين بيأس في انتظار النهاية السرمدية. سار الألم لا يطاق ولم تعد تجدى المسكنات والأدوية المخدرة التي يتناولها في تخفيف حده.

كانت هي النهاية. أدرك هذا مستسلمًا وهو يرى عجز من حوله عن إيجاد حل لتلك اللعنة الرهيبة التي عصفت به..

زاره الكثيرون. كانت خفية لا تنتمي للبشر. حكماء من الجان، بل وأيضًا بعض سحرتهم العظام. ومع هذا فشل الجميع رغم قواهم الرهيبة في إزالة اللعنة عنه أو تأخير النهاية. بل وفشلوا حتى في تخفيف تأثيرها والألم.

لقد أن للدكتور محمد شاهين أن يموت. ومع أنفاسه اللاهثة المتسارعة، والدوار العنيف الذي يختطف وعيه، أدرك أن الأمر أقرب مما يتخيل. وربما تكون هذه الساعات هي الأخيرة له في هذا العالم.

قيض على غليونه بأصابع مرتعشة واهنة وقزته من فمه وبالكاد سَحَبَ نفساً ضعيضاً أخرجه على الفور من فمه قبل أن يصل لصدره. لم تُعارضه وداد ولم تعد تسأله أن يَكْفُ عن التدخين، وقد حاصر عقلها حُزنٌ لا ينقطع.

شعر بحركتها وهي تقترب من الحجرة، ولدهشته وجدها تحمل صندوقاً مُغلّفاً غريباً. وضعت أمامه، وأخرجت منه خطاباً، وهمست:

-لا أدري إن كان صواباً أن ترى هذا الآن أم لا. لقد وجدت هذا الصندوق في صندوق البريد. إنه لا يحمل اسماً ولا يحوى غير هذا الخطاب الموجه إليك، وقنيئة زجاجية سوداء لا أدري كُنْهها وبعض قصاصات الصحف. لم أدري وأنا أرى على الخطاب كلمة "هام للغاية" إن كان من الصواب أن تقرأه أم لا. لكنني أحضرته في النهاية لتَقْرَ ما عليك أن تفعله.

مدَّ يده نحو الخطاب المغلق والتقطه من يدها.. ثم فضَّه ببطء وبدأ في مطالعة ما به وما زالت وداد بجواره في انتظار أن ينتهى منه.

"مرحباً يا دكتور.

أتمنى أن تكون في خير حال حين يصلك خطابي هذا، وإن كنت أخشى أن هذا غير ممكن.. لقد أعلمني أزوث بأمر اللعنة التي أصابتك.. أخبرني أنها أكبر منه وأنه لا أحد قادر على إنهاؤها غير صاحبها.

بالطبع تعلم من أنا. نعم.

أنا عماد..

أردت فقط أن أخبرك أنني في خير حال. كما أنني لست بمفردى، فهناك اهتمام وعماد الصغير وهناك حبيبتي منى وطفلتها الجميلة. كل هؤلاء يشاركوني حياتي الجديدة. إنني لم أغادر مصر كما تظن. بل مازلت أعيش بها. لكن الأمر تَبَدَّل الآن. لم يعد هناك ما يمكنني أن أخشاه وقد حُزْتُ القوة. لقد أدركت الآن لماذا فعل جدى ما فعله..

أرجو أن تصدقني حين أخبرك أن الأمر يستحق.. يستحق أكثر مما تتخيل..

إن أزوث قوى. قوىٌ وسخىٌ للغاية مع أعوانه. كما أنه لا يطلب المستحيل. لا داعي لأن أخبرك ما يحتاجه، فأنت تعلم حتماً ماذا يتم في تلك الأمور..

لقد حققت انتقامي من الجميع.. في الواقع لم يعد هناك من أعداء لي على قيد الحياة.. سترى قُصَصَات الصحف في نفس الخطاب.. إنها لأشخاص ماتوا في وقتٍ واحدٍ بطريقةٍ رهيبةٍ غامضةٍ. يمكنك ببعض الخيال أن تُخَيِّنَ من فعل..

لعتقد أنني قد تبدلت. أنت طبيب نفسى ويمكنك أن تدرك لماذا حدث هذا، وهل كان أمامي سبيلٌ آخر غير هذا أم لا.

جميلة هي الحياة الآن. جميلة هي الحياة التي تتمتع بكل لحظة فيها ولا ينقصك شيءٌ من مباهجها. هناك الأخت التي عادت لتعبنى وهناك الحبيبة التي عادت لأحضانى. وهناك القوة، وهناك المال، وهناك الأعداء المتعنفين الآن في قبورهم..

وهل هناك ما هو أكثر إبهاجاً من هذا؟..

بالمناسبة هناك قنينة في نفس الصندوق. إن بها ترياقاً صنعه أزوث بنفسه من أجلك.. لن يُزيل اللعنة بالتأكيد، فكما أخبرتك من قبل، هذا أكبر منه.. لكن الترياق سيؤخرها لبعض الوقت، ويُزيل في الوقت نفسه الألامك. إنها هديتي لك.

هذه هي المرة الأخيرة التي تسمع فيها عني.. لقد انتهى عماد الذي تعرفه وأتى بدلاً منه رجل سعيد آخر.. رجل لن تلتقاه أبداً.

المُخلّص

عماد..

انتهى الخطاب فأخرج القصاصات وقرأها. شعر بالنفور مما يقرأه فألقاها جانباً، ثم طلب من وداد أن تأتية بقنينة الترياق. ناولته إياها ففتحتها وتجرع ما بها بلا تردد. كان السائل مُراً للغاية، لكنه احتمل. وأغمض عينينه بعدها وتسلسل النوم إلى عقله..

وحين استيقظ كانت أشياء كثيرة بجسده قد تَبَدَّلَت. زالت آلامه تماماً، وشعر بالقوة تسرى في دماؤه. نهض من فراشه فطاوعته أطرافه ببساطة ونشاط. فراح يتقافز على الأرض مستمتعاً بالصحة التي يشعر بها الآن!

وحين نظر إلى وجهه في المرآة رأى كيف اختفت الكثير من التجاعيد عن وجهه وكيف عاد عمره سنوات للخلف. أراد أن يصرخ فرحاً. أن يرقص طرباً!!!

وحين دخلت وداد حجرته ووجدته صحيحاً هكذا لم تُصَبِّقَ بصرها وصرخت في ذهول:

-يا إلهي.. لقد ذهب عنك مرضك؟.. كيف حدث هذا؟. إن الشياطين ترعاك بلا شك!. أنت تخيفني يا دكتور. صرت تخيفني حتى الموت!

وفُتِّرت من أمامه مُسرِعَةً كأنما تُفِرُّ من الجحيم، وضَجَّك..

ضَجَّكَ كما لم يفعل في عمره كله.

ثم تحرك بنشاط نحو حديقته ليقرأ جريدة الصباح..

حديثنا اليوم عن الساحر الشيطاني كروالي وعن الشيخ عبدالله المنياوي وعن سحرة وشيوخ آخرين.
 لكننا لن ننسى أن هناك أم قد قتلت فاتهموا ابنها بقتلها رغم أنه يُصرُّ أنه لم يفعل ..
 هناك أيضا عائلة تعيسة تجري في دمانها لعنة مخيفة .. فكل رجالها يموتون في الثانية والثلاثين من عمرهم.
 كما أن علينا أن نجد **الشيخ الأسود**. السيد الذي لم يره أحد ولا يعرف أحد أين يكون رغم أنه دوماً موجود.
 الحكاية مُتداخلة وكبيرة. لكن الشيء المميز فيها هذه المرة أن الرعب هو رفيقها الذي لم يفارقها قط
 هل حدثت بالفعل تلك الرواية وهل تشعر بأبطالها من حولك وهل يمكنك أن تكون يوماً طرفاً في وقائعها المُرعبة..

هذا ما أتركه لخيالك بعد أن تنتهي منها!

